

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين 6

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

وصف فلسطين

أواخر أيام العثمانيين

1898 - 1916

رحلات ومذكرات

إبراهيم أسود - نجيب عازوري - جمال الدين القاسمي

يوسف الحكيم - رشيد نخلة - جرجي زيدان - محمد كرد علي



وصف فلسطين أواخر أيام العثمانيين

درسها وحققها ووضع حواشيها : تيسير خلف

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail 1: said.b@scs-net.org

E-mail 2: kanaanbook@yahoo.com

بالتعاون مع

دائرة الثقافة والإعلام بعجمان

دولة الإمارات العربية المتحدة – تلفاكس: 0097167423189

E-mail 1: mafarag_2005@yahoo.com

E-mail 1: m_harbi3@yahoo.com

الطبعة الأولى : 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

التدقيق اللغوي: سامي عبد المجيد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com

http://www.neelwafurat.com

موسوعة

رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين

«الجزء السادس»

وصف فلسطين أواخر أيام العثمانيين

1898 - 1916

رحلات ومذكرات

إبراهيم أسود، نجيب عازوري، جمال الدين القاسمي،

يوسف الحكيم، رشيد نخلة، جرجي زيدان،

محمد كرد علي

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

صدرت هذه الموسوعة بمناسبة

احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية 2009

بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام بعجمان / دولة الإمارات العربية المتحدة







لنا كلمة

إن أهم إسهام يمكن أن نقدمه للقدس في احتفاليتها عاصمة للثقافة العربية لعام 2009 هو أن تبقى حية في الأذهان، في وقت يحاول المحتلون الصهاينة محو وجهها العربي والإسلامي، واستبداله بوجه غريب عنها، ولكي تبقى حية في الأذهان بصورتها العربية الإسلامية هي وأخواتها مدن فلسطين المحتلة الأخرى، لابد من تقديم الوجه الحقيقي لها من خلال الكتب والمؤلفات التي تناولتها من وجهة نظر عربية إسلامية.

ولذلك تحمسنا لمشروع موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، لأننا أدركنا أهمية نشر هذا الأثر، وتعميمه في هذه الاحتفالية، لأنه يسد نقصاً كبيراً في المكتبة العربية، ومن شأنه أن يسهم بشكل مباشر في خدمة قضية القدس وفلسطين، بشكل حضاري يرد على الدعاية الصهيونية بالحجة والمنطق التاريخي.

ولذلك فنحن نرى أن الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م هو احتفاء بتاريخها وأعلامها، عبر جعل هذا التاريخ في متناول الجميع، لأن من شأن هذا الأمر أن يسهم في تعميق الوعي بضرورة تحريرها من رجس الاحتلال، وإعادتها مدينة عربية إسلامية، تُشد الرحال إليها كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا طوال القرون الخمس عشرة الهجرية الماضية.

والاحتفاء بالقدس يختلف عن الاحتفاء بأي مدينة عربية أخرى، فهو ليس ترفاً أو استعراضاً شكلياً بقدر ما هو ممارسة عملية واجبة على كل عربي ومسلم، والتزاماً فكرياً وإيماناً راسخاً بعروبة هذه المدينة، ولن يتم كل ذلك إلا بتكريس هذه القيم عبر الوسائل الثقافية والمعرفية، ومنها نشر الكتب وإنتاج الأفلام والبرامج والمسلسلات التي تؤكد على الوجه الحقيقي لهذه المدينة التي شهدت أعظم الأحداث في تاريخنا العربي والإسلامي.

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة عجمان

هذه الموسوعة

إسهاماً منها في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م ارتأت دار كنعان للدراسات والنشر أن تقدم لقراء العربية موسوعة شاملة لرحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين خلال أكثر من أحد عشر قرناً، شهدت فلسطين خلالها عدداً كبيراً من الرحلات التي قام بها عرب ومسلمون، بعضها تم تحقيقه خلال فترات زمنية مختلفة، ومنها ما بقي حبيس المخطوطات، لم يتيسر لعموم القراء مطالعته.

ولأدب الرحلات أهمية خاصة بالنسبة لفلسطين، فهي الأرض المقدسة التي زارها ملايين الحجاج ونقلوا لأحبتهم أخبار مشاهداتهم لهذه الديار المباركة. غير أن عدداً قليلاً منهم قام بتدوين مشاهداته، التي تمثل الزمن الذي عاش فيه هذا الرحالة أو ذاك، ولذلك فالرحلات وثائق تاريخية وجغرافية، من شأنها أن تعمق الوعي التاريخي وتوسع الآفاق والمعارف والرؤى.

ولقد عرفت فلسطين طوال هذه القرون تطورات وتحولات كثيرة، لم يكن بالإمكان الاطلاع عليها من خلال كتب التاريخ التقليدي المتداولة، نظراً لحصر اهتمام هذه الكتب في أخبار الحروب والتحركات السياسية والعسكرية لهذا القائد أو ذاك، بعيداً عن التاريخ الذي يخص الأرض والبشر، ولذلك نأمل أن نُسهم بقدر الاستطاعة في نفض الغبار عن هذا التاريخ المجهول الذي يميط اللثام عن الكثير من الحقائق الغائبة.

وتكمن أهمية هذه الموسوعة، في أنها تمثل الجانب الآخر من صورة الرحلات التي قام بها الرحالون الغربيون إلى فلسطين خلال قرون طويلة، أسهموا من خلالها في تكوين وعي معين تجاه فلسطين، مستقى بشكل أو بآخر من الوعي الديني المسيحي واليهودي الذي يُمثل فيما يُمثله جانباً واحداً من الصورة، غير أن الأمر بات أكثر خطورة بعد حملة نابليون على فلسطين آخر القرن الثامن عشر، حيث بدا نوع جديد من الرحلات مرتبط بشكل أو بآخر بالمشاريع الاستعمارية التي كانت تُعد في دوائر القوى العظمى، مستهدفة إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين في مغالطة لحقائق التاريخ والجغرافيا والمنطق. ولذلك ساد خلال قرنين من الزمن نوع من الرحلات الاستكشافية إلى فلسطين

وما يحيط بها، أسهم بشكل مباشر في تكوين وعي زائف لتاريخ فلسطين خصوصاً وبلاد الشام بشكل عام، ما نزال نعاني من تبعاته حتى هذه اللحظة، إذ ركزت معظم رحلات الغربيين على إدعاءات كاذبة تحيل على جهل وتخلّف سكان فلسطين من العرب الذين يعيشون في خيام ويمتهنون السرقة والسلب والخروج على القوانين، تاركين هذه الأرض الخصبة معطلة، فكان لابد من إعمار هذه الأرض المقدسة بشعب متحضر يبلغ بها مراقي التقدم، معيداً لها مجدها القديم الذي توقف مع قدوم العرب المسلمين إليها. وهذا هو الوعي الذي سوغ للصهيونية كل جرائمها بحق فلسطين وأهلها حتى يومنا هذا.. فما أحوجنا إذاً لتصويب الصورة، وتوضيح الأمور ووضعها في نصابها، ونقل الجانب الآخر من الصورة الذي تمثله رحلات العرب والمسلمين التي ننشرها في موسوعتنا هذه.

ومن الملاحظ أن الوعي العربي للخطر الصهيوني بدأ بالظهور في مطلع القرن العشرين، والرحلات التي نقدمها خلال هذه الفترة؛ تُبين بشكل واضح وجلي أن الكثير من العرب كانوا على بينة من أبعاد المشروع الاستعماري الصهيوني لفلسطين، ولذلك ظهرت في ذلك الوقت أشكال متعددة لمقاومة هذا المشروع، منها أدب الرحلات الذي كان يهدف إلى تقديم حقيقة الأوضاع وتوعية الناس لما يجري حولهم، وهذا ما تصدى له كلٌ من نجيب نصار ونجيب عازوري وعارف العارف وبشير كعدان وغيرهم..

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، إذاً هي إسهامٌ هامٌ في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية وهي إسهامٌ نطمح أن نثري به المكتبة العربية، فتكون هذه الموسوعة إضافةً هامةً إلى المراجع الأخرى التي تناولت الحديث عن فلسطين أرضاً وشعباً وتاريخاً عبر العصور الغابرة.

دار كنعان للدراسات والنشر

تمهيد

شاءت المصادفة أن يبدأ كتابنا هذا بمهرجان مفتعل، نظمه السلطان عبد الحميد لحليفه الألماني الإمبراطور غليوم الثاني الذي زار الأراضي المقدسة مع عقيلته عام 1898م، فخرجت جموع الشعب مهللة مزغردة لهذا الضيف (الكبير) في أضخم احتفال شعبي تشهده بلاد الشام منذ دخول الفاتح العثماني الأول السلطان سليم خان إلى دمشق عام 1516م، معلناً إسدال الستار على دولة المماليك. وكما شاءت المصادفة أيضاً أن يختتم هذا الكتاب بمهرجان مماثل نظمه أولو الأمر في ولايات بلاد الشام عام 1916م احتفاءً بالقائدين العثمانيين أنور باشا وجمال باشا، اللذين قاما برحلة إلى بلاد الشام والحجاز. لكأن القدر كتب عليهما وعلى السلطنة العثمانية، التي كانا يحكمانها، النهاية بعد هذا (الكرنفال)، الذي يذكر بـ(كرنفالات) أخرى لمستبدين لاحقين، أخرجوا الشعوب صاغرة للاحتفاء بهم وهم يودعون مجدهم الزائل.

وبين هذين المهرجانين كانت فلسطين تعيش مخاضاً من نوع آخر، إذ ما إن استقرت التنظيمات العثمانية الجديدة، التي بدأت في عهد السلطان عبد المجيد وتعطلت في عهد عبد الحميد، حتى ظهر الخطر الصهيوني بشكل سافر، معبراً عن نفسه بمشاريع الاستيطان التي حملها أكثر من مندوب إلى السلطان عبد الحميد، الذي رفضها جميعاً معرضاً مستقبل عرشه للخطر، فما كان منه إلا أن ارتمى في أحضان الألمان، الذين كانوا في ذلك الوقت من العقد التاسع من القرن التاسع عشر، قد بدؤوا يطلون برؤوسهم كقوة استعمارية منافسة للقوتين التقليديتين فرنسا وبريطانيا. وكان من نتيجة ذلك منح الامتيازات للألمان، وتنظيم المهرجانات لقادتهم، وهو ما وضع السلطنة العثمانية -التي كانت تلقب بالرجل المريض- برمتها في (بازار) السياسة الدولية، وبدأت مشاريع تقاسم هذه التركة تتمخض عن كيانات مختلفة.

لقد كان موضوع فلسطين محسوماً لدى الدوائر الاستعمارية منذ ذلك الوقت، فالحركة الصهيونية بدأت بتأسيس نويات مستوطناتها ومدنها المستقبلية في فلسطين،

مستغلة جو الانفتاح الذي انتشر بعد إقصاء عبد الحميد وتسلم جمعية الاتحاد والترقي السلطة التنفيذية في السلطنة. وكانت ملامح الكيان الصهيوني قد أخذت تتبلور في فلسطين منذ المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في بال عام 1897م، أي قبل زيارة غليوم الثاني بعام واحد. وقد تنبه المفكر العربي ونائب متصرف القدس جميل عازوري لهذا الخطر المحدق بفلسطين، وبدأ يحشد الرأي العام للتصدي له منذ عام 1904م.

والحق يقال: إن هذا الخطر لم يكن واضحاً بشكل كامل في أذهان الكثير من الكتاب والسياسيين العرب، نظراً لاتخاذه طابعاً إنسانياً من حيث الشكل، إذ كانت الدعاية الصهيونية في ذلك الوقت تركز على موضوع اضطهاد اليهود في روسيا وغيرها، وعلى ضرورة توفير ملجأ لهم، وإمكانية أن يشكلوا مصدر إنقاذ للسلطنة من خلال استغلال المساحات الجرداء من الأراضي، وتوظيف الأموال اليهودية لخدمة هذه المشاريع، مما سينعكس خيراً على جميع سكان البلاد.

ولكن هذه الدعاية لم تكن لتنطلي على الجميع، وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد الذي جاءه السير لورانس أوليفانت عام 1880م حاملاً مشروعاً للاستيطان الصهيوني في منطقة شرق الأردن لدوافع إنسانية، فما كان من السلطان إلا أن رفض المشروع وعاقب كلاً من مدحت باشا والي الشام بنفيه إلى سجن الطائف وقتله هناك، وخير الدين باشا الصدر الأعظم بعزله من منصبه، واللذين تحمسا لهذا المشروع وتوسطا لصاحبة بالوصول إلى السلطان.

كان عبد الحميد، على الرغم من نواياه الطيبة، قد انفرد بالحكم نتيجة سوء ظنه بالرجال الذين يحيطون به، وبسبب تجارب أسلافه السابقة، وتزايد المطامع الاستعمارية في سلطنته. فأنشأ جهاز الخفية الذي كانت مهمته التجسس على موظفي السلطنة وعلى المواطنين، وأوقف العمل بالدستور الذي كان هو قد أمر بوضعه، وارتمى كلياً في حضن ألمانيا هرباً من خطر بريطانيا وفرنسا وروسيا، فما كان من (جمعية الاتحاد والترقي) الحزب السياسي القوي المناوئ لسياساته إلا السيطرة على الجيش وعزله من منصبه، والقبض بشكل مباشر على السلطة. فتعززت الآمال لدى العرب العثمانيين بحصول انفراج ينقذ السلطنة من مشكلاتها، ويضعها على سكة التقدم والتحضر بعد قرون طويلة من الجمود.

غير أن هذه الآمال سرعان ما تبددت بعد فرض سياسة التتريك وظهور تيار قومي تركي متطرف، أدى فيما أداه إلى ظهور تيار (عروبي) جنيني سرعان ما تمخض عن

هياكل سياسية متعددة، رأت أن مصلحة العرب تكمن في دعم بريطانيا وفرنسا ضد تركيا في الحرب العالمية الأولى، من دون أن يدرك هذا التيار (العروبي) بأنه كان يسلم فلسطين، من حيث يدري أولا يدري لقمة سائغة للصهاينة حلفاء بريطانيا وفرنسا!.

لقد كانت التحولات السياسية الدولية بين (مهرجاني) غليوم الثاني 1898م وأنور باشا 1916م، أكبر بكثير من عرب ذلك الزمان، ومع ذلك تنبه بعض الصحفيين والكتاب لهذه المخاطر فرصدوها في رحلاتهم ومذكراتهم، والتي أتت خير شاهد على روح تلك الأيام الانتقالية العصيبة، والتي تعطينا بعداً آخر لصورة الصراع العربي الصهيوني يكمل ما تتضمنه كتب التاريخ التقليدي المعروفة.

تيسير خلف

دمشق في 7 شباط 2009م

رحلة حج أم بحث عن حصة من «التركة»؟

الإمبراطور غليوم الثاني في الديار المقدسة

من الأحداث الكبيرة التي وسمت نهاية القرن التاسع عشر بميسمها، في فلسطين خصوصاً وبلاد الشام عموماً، زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني وعقيلته الإمبراطورة أوغستا فكتوريا في خريف عام 1898 م. يومها تبارت السعادات والفخامات والعطوفات والغبطات في تقديم آيات التكريم لهذا الزعيم الغربي القادم إلى الشرق بقصد زيارة الأراضي المقدسة وتدشين كنيسة للألمان الكاثوليك في القدس.

وقد حظي الإمبراطور بتكريم عال من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي اكتفى باستقباله في عاصمة الإمبراطورية العثمانية ولم يرافقه إلى الديار المقدسة لأسباب شتى، على الرغم من أنه كان يطمع في دعم ألمانيا له في وجه المطامع البريطانية والفرنسية التي لم تكن تخفي وجهها القبيح الساعي لتقاسم تركة الرجل المريض، كما كانت تسمى السلطنة العثمانية آنذاك. ولذلك بالغ العثمانيون في تكريم الضيف الألماني، وتحولت مدن فلسطين التي مر عليها إلى مهرجانات احتفالية لم تشهد البلاد مثلها من قبل.

ولكن المهم في هذه الرحلة أنها شكلت انعطافة كبيرة على صعيد الاهتمام بالمنشآت العمرانية التي نبتت خلال فترة قصيرة لاستقبال ضيف السلطنة الكبير، سواء في دمشق أم في القدس ويافا وغيرها من مدن فلسطين، أو على صعيد الاهتمام الألماني بفلسطين، إذ فتحت هذه الرحلة عيون الفرنسيين والبريطانيين على ملامح تحالف بين غليوم الثاني وعبد الحميد الثاني واللذين سيكتب القدر هزيمة بلديهما في الحرب العالمية الأولى التي ستحدث بعد نحو عقدين من الزمان.

وصل الإمبراطور الألماني غليوم الثاني إلى مدينة حيفا قادماً من اسطنبول يوم الثلاثاء 25 تشرين الأول 1898م، ثم توجه نحو يافا التي اتخذها محطة للانطلاق نحو

القدس، حيث زار الأماكن المقدسة وتوجه نحو بيت لحم ثم عاد إلى القدس حيث دشن كنيسة ألمانية، غادر بعدها إلى يافا ثم إلى بيروت قاصداً دمشق.

وقد قام أكثر من صحفي عربي بتدوين تفاصيل هذه الرحلة في كتاب، منهم خليل سركيس صاحب جريدة (لسان الحال) البيروتية، وإبراهيم أسود صاحب جريدة (لبنان)، والذي أصدر كتاباً أرخ لهذه الزيارة بعنوان (الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية) صدر في بعبدا عام 1898م، ومنه أخذنا النص الخاص بفلسطين.

وإبراهيم نجم الأسود هو مؤرخ وصحفي لبناني عاش بين عامي 1855- 1940م وتنقل بين عدة وظائف وأنشأ أول جريدة سياسية ظهرت في لبنان عام 1891م. ومن مؤلفاته ذخائر لبنان وتنوير الأذهان في تاريخ لبنان، وديوان شعر والكتاب الذي بين أيدينا.

وعلى الرغم من أن صاحب الرحلة الأصلي أي الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لا يدخل في مجال حديثنا، إلا أن كاتب الرحلة عربي عبر بقلمه عما يجول في خاطره وخاطر الكثيرين حول هذه الرحلة، التي أشبعها بالكثير من الشروحات الجغرافية والتاريخية المفيدة، على الرغم من أنها تندرج في إطار الثقافة السائدة آنذاك، والتي تعتمد فيما تعتمد على الكتاب المقدس كأساس للتاريخ.

وقد استرعت هذه الرحلة الإمبراطورية اهتمام المفكر والصحافي العربي نجيب عازوري، الذي كان قد تسلم مهام منصبه الجديد نائباً لمتصرف القدس فرأى الأبعاد الحقيقية لهذه الزيارة، إذ كانت ألمانيا في ذلك الزمن قوة استعمارية صاعدة منحت نفسها لقب الإمبراطورية الألمانية، ساعية لوراثة الإمبراطورية النمساوية الآفلة، ولذلك بدأ غليوم الثاني يلعب على التناقضات بين القوى العظمى في ذلك الزمن أي بريطانيا وفرنسا وروسيا، محاولاً أن يجد موطئ قدم في آسيا الصغرى ومنطقة المشرق العربي برضا الفرنسيين والروس من جهة، والانكليز من جهة أخرى.

أما على الجانب العثماني فقد رأى عازوري أن زيارتي الإمبراطور إلى الشرق، ومنهما زيارته إلى فلسطين وبلاد الشام، تمثل مناسبة لصحف القسطنطينية لكي تكذب على الشعب وتدعي أن الإمبراطور غليوم أدنى من السلطان عبد الحميد مرتبة لأنه زار عاصمة السلطنة أولاً. في حين أن هذه الزيارات في حقيقتها (لها هدف وحيد ألا وهو فرض نفوذه وهيبته على الرجل المريض ليضمن لنفسه حصة كبرى من الميراث في المستقبل)[1].

[1] - يقظة الأمة العربية، ط2، ص 121-122.

الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية

في حيفا

عند الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع في 25 تشرين الأول سنة 1898 أقبلت الباخرة هوهنزولرن إلى ثغر حيفا[2] تخفرها الدارعتان «هرتا» و«هيلا»، فأطلقت عكا 21 مدفعاً، وخفَّ إلى اليخت حضرة الفريق سعادتلو [صاحب السعادة] عبد الله باشا يحمل السلام الشاهاني لجلالتهما، والموسيو شرودر قنصل دولة ألمانيا في بيروت، والموسيو كلر قنصل الدولة المشار إليها في حيفا ليقتبلا الأوامر الإمبراطورية.

وبأثناء ذلك بعث جلالته برسالة برقية إلى الحضرة الإمبراطورية السلطانية يتضمن النبأ بوصوله سالماً، فورد على جلالته الجواب متضمناً التهنئة بسلامة الوصول، وبعد ذلك عاد الذوات المشار إليهم معلنين رغبة جلالتهما بالنزول إلى البر، فصفَّت العساكر على جوانب الطرق، ووقف على الرصيف كل من حضرة صاحب الدولة ناظم باشا والي ولاية سوريا، وصاحب العطوفة رشيد بك والي بيروت، وأصحاب السعادة عبد

[2] - هذه المدينة قائمة فوق البحر في سفح جبل الكرمل على مسافة ثلاث ساعات من مدينة عكا، موقعها يشبه موقع بيروت، وفيها من المباني ذات الطراز الجديد ما تعدُّ به في مصاف المدن التي هي من الدرجة الثانية في سوريا. وقد كانت تعد منذ ثلاثين سنة من القرى العادية ومن بضعة شهور أنشأت الحكومة السنية مرسىً جديداً فيها غير المرسى القديم ليخرج منه جلالة الإمبراطور، والإمبراطورة بحاشيته الكريمة، وقد بنته من الحجر الرملي النقي بمكان قريب من رأس جبل الكرمل إلى الناحية الغربية الجنوبية قبالة الجالية الألمانية، وكان إنشاؤه على يد المهندس شوماخر طبقاً للرسم الذي رسمه الأستاذ لند أحد أساتذة المدرسة الملكية في دار السعادة العلية، وقد بلغت نفقات هذه المرسى الجديد ثلاثة آلاف ليرة أما طوله فخمسة وسبعون متراً، وعرضه ستة أمتار وارتفاعه عن سطح المياه متر ونصف متر، وهو ينار ليلاً بعشرة مصابيح مرتكزة حوله على أعمدة حديدية ومعظم تجارة هذه المدينة بالحبوب، ولها في هذه التجارة فروع كثيرة في المدن، والقرى، أما عدد أهاليها فيبلغ نحو عشرة آلاف نفس، وقد سرى في أذهانهم نور المعارف والتهذيب منبعثاً إليها من المدارس الابتدائية الوطنية والأجنبية، وفيها قناصل لجميع الدول إلا اليونان، ومن نحو خمس وعشرين سنة أتاها نحو مئة عائلة من مهاجري الألمان فتوطنوا فيها، وشادوا أبنيتهم على طراز أبنية أوروبا، وهم يشتغلون بالزراعة والصناعة بعضهم بالتجارة، ويبلغ عددهم الآن نحو ثمان مئة نفس تقريباً، وفيها كثير من الفنادق والمعابد لجميع الطوائف التي اتخذتها موطناً وهي: الإسلام، والروم الأرثوذكس، والموارنة، والروم الكاثوليك، واللاتين، والبروتستانت، واليهود، وهي من حيث أحكامها تابعة لولاية بيروت

الله باشا المشار إليه، وحسين بك متصرف عكا سابقاً، وأحمد شكري أفندي قائمقام حيفا، ومحمود جلال الدين أفندي مدير معارف ولاية بيروت، وميشال أفندي إده مدير الأمور الأجنبية في بيروت، وعزتلو [صاحب العزة] بشارة أفندي سر مهندس[3] الولاية، والدكتور شرودر المشار إليه والموسيو كلير قنصل ألمانيا المشار إليه، وجميعهم بالألبسة الرسمية.

ولما كانت الساعة الخامسة أقبل جلالتهما مع بعض نساء الشرف على زورق بخاري بديع الصنعة قام في وسطه غرفة بلورية، ثم رجال الحاشية على زوارق أخرى، ولما نزلا إلى البر صدحت الموسيقى بالألحان الألمانية والعثمانية، وأخذت العساكر الظافرة سلام جلالتهما، وقدم له عبد الله باشا باقي الذوات المشار إليهم، فصافحهم بهز الأيدي، ولما قُدّم له قائمقام حيفا قال له: (إن بلدكم صغيرة إلا أنها جميلة) فأجابه: (إنها كانت صغيرة أما الآن فقد عظمت بتشريف جلالتكم)، ثم صعد بعد ذلك مع الإمبراطورة إلى جبل الكرمل حيث مقام النبي إيليا، وبعد أن طاف فيه، وسرح طائر الطرف في تلك الهضاب والبطاح، عاد محفوفاً بالعظمة إلى الرصيف حيث كانت الموسيقى تصدح بالألحان الشجية، والمأمورون المشار إليهم مازالوا بانتظار جلالته، فمكث يتمشى على الرصيف بضع دقائق ظهر في خلالها أنه منشرح الصدر.

ثم ركب الزورق المشار إليه هو والإمبراطورة والحاشية، وعادوا إلى اليخت يصحبهم كل من حضرة ناظم باشا، ورشيد بك، وعبد الله باشا، والمسيو شرودر الذين دعاهم جلالته لمناولة طعام العشاء على مائدته الكريمة.

ولما جلسوا إلى المائدة خاطب جلالته ناظم باشا قائلاً: إنني مسرور جداً بهذه السياحة، وبما شاهدته من حفاوة عظمة السلطان عبد الحميد الذي أعده بمثابة والدي. وكان صدر جلالته حينئذٍ يتلألأ بوسام خان دان آل عثمان العظام، ووسام الامتياز المرصع. وقد ظهرت ليلتئذٍ (حيفا) و(عكا)، والقرى المجاورة والدوارع الراسية في الثغر بحلة أنيقة من الزينة، وقد كان عدد القادمين إلى حيفا يومئذ لشهود الاحتفال نحو عشرة آلاف نفس، ومعدّل الكلمات الصادرة من مركز حيفا التلغرافي[4] والواردة عليه في كل من

---

[3] - سر مهندس = كبير مهندسي أو رئيس مهندسي الولاية

[4] - إن الحكومة السنية قد عينت ستة من مأموري التلغراف ليكونوا بمعية جلالة الإمبراطور وهم كل من أصحاب العزة مدالي أفندي مهندس التلغراف العام (لأجل التبييض)، وحيدر بك (لأجل التصحيح)، وعزت بك، وبكر سامي أفندي، وحشمت أفندي، وقساطو أفندي (لأجل المخابرة)، وعينت في حيفا علاوة على مدير تلغرافها يومئذ وهو رفعلتو الأمير قيصر شهاب كلاً من أصحاب الرفعة خليل أفندي كاتب باش مديرية تلغراف بيروت، وقيصر أفندي منير أمين

يومي الاثنين والثلاثاء الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر المذكور نحو أربعين ألف كلمة.

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي نزل جلالتهما والحاشية الكريمة من اليخت، فاستقبلهم كل من حضرة ناظم باشا، ورشيد بك. وصدحت الموسيقى، وأخذت سلامها العساكر الشاهانية، وأطلقت المدافع من قلعة عكا، ومن حيفا، ومن البارجة العثمانية. وبعد ذلك أتى جلالتهما حديقة قونصلاتو [قنصلية] ألمانيا حيث كان أعد لهما كرسيان من صنف الفوتول على بساط أنيق، وكانت العساكر خارج الحديقة، فلم يكن داخلها غير الجالية الألمانية، والحاشية الإمبراطورية[5]، وتراجم القونصلاتو، واثنان من أصحاب الجرائد الوطنية، وبعض مراسلي الجرائد الأجنبية[6]، وتحرير واقع الحال هو: أنه لما وصل جلالة الإمبراطور والإمبراطورة، ومن أشرنا إليهم من كبار

الصندوق، وحيدر أفندي وشوعه أفندي، ورشيد أفندي حداد، وموليري أفندي، واميل أفندي مأمور عكا. وعينت في يافا علاوة على المدير رفعتلو يوسف أفندي صوصه كلاً من رفعتلو يوركي أفندي، والأمير عارف شهاب، ولطفي أفندي، وحكمي أفندي . وعينت في القدس علاوة على المدير رفعتلو جمال أفندي كلاً من شفيق أفندي، ومويز أفندي، وحسن أفندي وعينت في طبريا علاوة على المدير رفعتلو باريخ أفندي رفعتلو نجيب أفندي فرحات ناصيف، وعينت في الناصرة علاوة على المدير رفعتلو يروانت أفندي رفعتلو خريستو أفندي أما في مركز تلغراف بيت لحم، فكان رفعتلو نجيب أفندي وذلك عدا المأمورين الموظفين رسمياً في المراكز المذكورة وقد أقامت مفتشاً عاماً عزتلو حمدي بك المعروفة بالحكمة وسمو المدارك

[5] _

وزير خارجية دولة ألمانيا	الموسيو دوبولوف
التشريفاتي الأول	القونت أولنبرغ
رئيس الدائرة الإمبراطورية	القونت ودل
الأستاذ	الموسيو لوتيهولد
الطبيب الخاص	البارون لينكر
الطبيب الثاني	الدكتور ايبلرغ
الرئيس الروحي	دريادنر
المستشار الأول	الموسيو لوقانوس
المستشار الثاني	الغونتر اميرال البارون سندن بيبران
سفير ألمانيا في الأستانة	البارون مارشال
باش ترجمان السفارة	الكونت (القونت) مولنين
نساء الشرف	القونتس (الكونتس) كالمر والآنسة كرسدروف
مأمور تشريفات الإمبراطورية	القونتس بروكورف والبارون مرباح والبارون كنزيك

[6] - كان في الموكب الإمبراطوري من أصحاب الجرائد ومكاتبيها ثمانية وأربعون واليك بيانها من أصحاب الجرائد التركية3، من أصحاب الجرائد العربية 10، ومن أصحاب الجرائد الإنكليزية 13، ومن أصحاب الجرائد اليونانية 1، ومن أصحاب الجرائد الإفرنسية (بينهم ابنة) 5، ومن أصحاب الجرائد الألمانية 12، ومن أصحاب الجرائد الإيطالية 1، ومن أصحاب الجرائد النمساوية 1، ومن أصحاب الجرائد الأمريكية 1، وابنة صاحبة جريدة هولاندية

المأمورين العثمانيين، والوزراء الألمانيين، تقدم الطالبون، والطالبات من أبناء مدرسة الألمان ينثرون الأزهار عند أقدامهما، ثم تقدم ابنتان، ورفعتا لهما طاقتين من الزهر، ثم تقدم قسيسان من الألمان، وهما بورمستر، وباتر بيفر، وناظر المدرسة الموسيو (لنكي)، وخطبوا في حضرتهما بالألمانية خطاباً أعربوا فيه عن تعلقهم بالإمبراطورية الألمانية.

ولما فرغوا من الكلام دنوا من جلالته، فصافحهم يداً بيد، ثم تقدمت السيدات الأوانس (أناليخ)، و(إدوار كلر)، و(أنريتا كلر) كل واحدة منهن بطاقة للإمبراطورة، وقبّلن يدها وهذه الطاقات منضدة على الطراز الشرقي ضمن علبة من خشب الزيتون.

ثم تقدم الخواجا هومس لنجر، وأرنست إهمان، وقدما مائدة من خشب الزيتون كبيرة، وأخرى صغيرة مستلقى[7] للأقدام.

ثم تقدمت البنات الصغيرات أليس، وهيلانة، وشارلوت بسرير صغير من زيتون فيه شخص صغير تقدمة لجلالته، فتكلم جلالته بما شفّ عن ارتياحه لذلك كله باللغة الألمانية واعداً الألمان أنه سيعهد إلى ملك (وورتنبرغ)[8] أن يعاونهم ويقضي لهم ما يلتمسون، ثم رفع إليه جناب نقولا أفندي عبد المسيح صاحب جريدة السرور التي تطبع في مصر أربعة أبيات من الشعر مكتوبة بحروف مطرزة بسلك من ذهب على رقعة يحيط بها إطار متقن الصنع، فأمر جلالته بأخذها مظهراً ارتياحه.

ثم ذهبا إلى دير الراهبات الألمانيات، وإلى الكنيسة الألمانية، ثم سارا في موكب عظيم قاصدين (قيصرية)[9] على العربة بعد أن تقدمهم ذاهباً إليها حضرة صاحب الأبهة، والدولة جواد[10] باشا الصدر الأعظم الأسبق لإرصاد المعدات اللازمة، وقد صحبهما حضرة دولتلو [صاحب الدولة] ناظم باشا، وسعادتلو عبد الله باشا، أما حضرة

---

(7) - مستلقى = مسند.

(8) - إحدى إمارات ألمانيا التي مر ذكرها آنفاً.

(9) - هي مركز مديرية (قيصرية) وقد كانت في السابق مدينة عظيمة بناها هيرودس على شاطئ البحر وجعلها عاصمة لفلسطين فنمت وشيدت فيها الصروح الفاخرة وأقيم فيها هيكل لأغسطوس قيصر وكانت ميناها من أحسن المرافئ وقد ورد ذكرها في الإنجيل المقدس وفيها ولد المؤرخ الكنائسي إيسيوس والمؤرخ بروكوبيوس ولم تلبث أن انحطت عظمتها بعد ذلك وآل أمرها إلى الخراب والدمار، وقد كانت من نحو عشرين سنة تحتوي على مائة بيت، وجعلت موطناً لمهاجري الجركس، أما اليوم، فقد أصبحت تعدُ في مصاف القرى الكبيرة، وكثيراً ما يؤتى بحجارتها إلى يافا لأجل البناء، وبينها وبين التنتورة طريق عربات طولها 12 كليو متراً.

(10) - بناء على الإرادة السنية عهد إلى هذا المشير الخطبر بإرصاد المعدات اللازمة في كل مكان قبل وصول جلالة الإمبراطور إليه

عطوفتلو [صاحب العطوفة] رشيد بك والي بيروت فشيعهما إلى أطراف الولاية، ثم عاد إلى بيروت لإرصاد المعدات اللازمة، فعرجا بأثناء ذهابهما على قرية عتليت[11].

وبعد أن شاهدا ما بها من الآثار القديمة استأنفا المسير، فبلغا قرية التنتورة [الطنطورة][12] الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، فاستراحا قليلاً بالمضارب المعدة لعمال. وبعد تناول الغداء شخصا إلى قيصرية حيث أعرب جلالته للجنود العثمانية الظافرة أنه يحب العثمانيين ويحبونه.

وبعد مشاهدة آثارها شخصاً إلى البرج[13]، وباتا تلك الليلة في المضارب المعدة لهما هنالك، وفي صباح اليوم الثاني ركبا في موكب عظيم قاصدين يافا.[14]

ولما بلغا أطراف قضاء بني صعب رأيا عمودين قائمين على جانبي الطريق كتب على كل منهما بالعربية والألمانية (بني صعب) وفوق العمودين تخفق الرايات العثمانية، والألمانية، وكان قائمقام القضاء عزتلو [صاحب العزة] جميل بك العابد في عدد من الفرسان يترقب قدوم جلالتهما. وعند الساعة 12 من ذلك النهار بلغا قرية (النبي أمين)[15] حيث كانت أعدت لهما المضارب.

وبعد أن تناولا طعام الغداء، واستراحا ركبا قاصدين يافا، ولما انتهيا إلى آخر قضاء بني صعب وجدا على الحدود عمودين كالأولين وعليهما عدد الأمتار التي قطعاها ضمن القضا وقدرها 38 كيلومتراً،[16] وقد بقيا مواصلين السير حتى بلغا حدود يافا، فرأيا في

---

(11) - هي قرية غنية بآثارها القديمة، وموقعها إلى الجنوب الغربي من مدينة حيفا.

(12) - هي قرية على شاطئ البحر شيدت أبنيتها على الطراز الجديد، وقد أقام فيها البارون رتشليد معامل زجاجية إلاّ أنها لم تأت بالغرض المقصود لعدم موافقة ترتبها، وبينها وبين حيفا طريق طولها 38 كيلو متراً.

(13) - قرية صغيرة من أملاك حضرة صاحب الدولة والأبهة كامل باشا الصدر الأعظم الأسبق، ووالي ولاية أزمير، وأهلها قليلو العدد يشتغلون بالحراثة، والزراعة، وبينها وبين قيصرية طريق عربات طولها 5 كيلومترات

(14) - مدينة كائنة على شاطئ بحر الروم، بينها وبين القدس نحو أربعين ميلاً، وهي ذات مبان متينة مؤلفة من الحجارة الصلبة، وقد أحاطتها البساتين من كل جانب، فكثرة فيها أنواع الأشجار، والأثمار ولاسيما البرتقال أما مناهلها فأكثرها من الآبار، وهذه المدينة قديمة العهد حتى قيل أنها وجدت قبل الطوفان، أما ميناها، فلا تدنو منها البواخر لشدة أخطارها، ولو كان البحر هادئاً ساكناً، بل ترسو على مسافة بعيدة عنها، ولهذه المدينة شأن كبير في التاريخ لما كثر فيها من الحروب ولتجارتها فروع كثيرة، وبينها وبين النبي أمين طريق عربات طولها 22 كيلو متراً، وبينها وبين القدس سكة حديدية طولها 76 كيلو متراً.

(15) - هي قرية صغيرة في منتهى حدود سنجق نابلس تحتوي على خمسين بيتاً من البيوت الحقيرة، وسكانها يشتغلون بالحراثة، والزراعة، وبينها وبين البرج طريق عربات طولها 46 كيلو متراً.

(16) - إن الطريق المذكورة هي إحدى الطرق التي أُنشئت حديثاً وهي:

المكان المسمى «بيار عدس» مضربين قام فيهما بانتظار جلالتهما حضرة سعادتلو توفيق بك متصرف القدس، وحضرة سعادتلو حسن أفندي رئيس هيئة الضابطة في الأستانة العلية، وعزتلو نشأت بك نجل حضرة ناظر الضابطة الجليلة، وأحد أعضاء شورى الدولة الذين أنفذا للقيام بإجراء التدابير الاحتياطية في القدس، وعزتلو محمود بك قومندان الموقع في القدس، وعزتلو زهدي بك، وكيل قائمقامية يافا، ورفعتلو محمد أفندي مراد مأمور طابور يافا.

فمر بهم جلالته، وبقي مواصلاً السير حتى بلغ أوائل المدينة، فشاهد ألوفاً من اليافعين بمكان تخفق فوقه الرايات العثمانية، والألمانية، ولما بلغا جسر مسراره رأيا فوقه قبة مزدانة بالأعلام والأزهار، وكان على جانبيه تلاميذ المدارس الألمانية، وتلميذاتها، وأكثرهم باللباس الأبيض، وعلى صدر كل واحد شارة تمثل الراية الألمانية، وهم يهتفون بالدعاء.

ولما بلغ سارونة[17] أوقف العربة تحت قبة مزدانة بالأعلام، والأزهار، وفي صدرها الشعار الألماني أعدها له الجالية الألمانية صورة تدهش الأبصار يتقدمها ويتلوها على مسافة بعيدة من الطريق ألوف من الرايات، وكان الألمانيون جميعاً، وعددهم نحو أربعة آلاف محتشدين إلى جانبي الطريق لاستقبال جلالتهما، وفي مقدمتهم قنصل الدولة

كليو متر	الطرق
70	طريق أنشئت من حيفا إلى الناصرة
17	طريق أنشئت من حيفا إلى عتليت
12	طريق أنشئت من عتليت إلى التنتورة
11	طريق أنشئت من التنتورة إلى قيصرية
5	طريق أنشئت من قيصرية إلى البرج
8	طريق أنشئت من البرج إلى حدود سنجق نابلس
18	طريق أنشئت من سنجق عكا إلى قلنسوة
20	طريق أنشئت من قلنسوة إلى حدود يافا
22	طريق أنشئت من حدود نابلس إلى يافا
183	

وقد أنشئ في هذه الطريق نحو 60 من الجسور، والمعابر، وأنشئ بين التنتورة، وقيصرية جسر مؤلف من أربع قناطر، يبلغ طوله 80 متراً، وقد تم إنشاؤه في واحد وعشرين يوماً بهمة عزتلو بشارة أفندي مهندس الولاية ببيروت الجليلة، ومعاونيه وهم حسين أفندي مهندس لواء عكاء، وضاهر أفندي مهندس اللاذقية، وسامي أفندي مهندس طرابلس، ومحمد أفندي علي معاون مهندس نابلس، والقولاغاسي حسين بك، والملازمين رمزي أفندي، وتوفيق أفندي، وتيار أفندي، وحقي أفندي أما مجمل النفقات على هذه الطرق، والجسور فقد بلغ سبعة آلاف ليرة، وذلك ما عدا ما قام به المكلفون من الأهالي من أمر الإصلاح توفيقاً للنظام

(17) - وهي المستعمرة الألمانية الأولى الملحقة بيافا بمكان يبعد عنها نحو نصف ساعة

الألمانية المسيو شميث، وموظفو القونصلاتو، وهم جورج أفندي مراد الكونشليار، والياس أفندي الترك الترجمان الأول، وأنطون أفندي الخوري سالم الترجمان الثاني، فتقدم إذ ذاك جناب القنصل، وحضرة السيدة قرينته، وبيد كل منهما كأس من الخمر الجيدة، وطاقة من الزهر فقدماها لجلالتهما.

وتكلم القنصل حينئذ بما يدل على سرور الألمانيين بذلك اليوم السعيد قائلاً: (أقدم لجلالتكم كأساً من خمر عصرتها يد ألمانية) وخاطبت قرينته جلالة الإمبراطورية قائلة: (أقدم لجلالتك أزهاراً اقتطفتها يد ألمانية)، ثم تلاهما الخواجا هنري ويبر كبير الجالية الألمانية مرحباً بجلالتهما بالنيابة عن الألمان عموماً، فأظهر جلالته ارتياحه إلى ذلك، وقال إنه مسرور بأن الجالية الألمانية تتمتع برغد العيش في ظل الدولة العلية العثمانية، مبيناً ما بين عظمة السلطان الأعظم، وبينه من الولاء والصفاء.

وبعد أن شرب جلالتهما كأسي الخمر هتفت الجموع المحتشدة من ألمان، وسواهم، وعدد لا يقل عن العشرين ألف نسمة بالدعاء لعظمة مولانا الأعظم، ولصاحبي الجلالة الإمبراطور، والإمبراطورة، ثم تقدمت ابنة المستر هرتك قنصل أميركا في يافا، وقدمت طاقتين من الزهر لجلالتهما فسرا، وسار جلالتهما حتى بلغا المستعمرة الثانية للألمان الكائنة ضمن يافا، فشاهدا حينئذ تلامذة المدارس الرشدية، وسواهم بأياديهم الأعلام العثمانية والألمانية وكانوا ينشدون الأناشيد الرخيمة، ويهتفون بالدعاء.

ونزل جلالتهما هناك بلوكندة[18] البرق، فأطلقت عندئذ البواخر الراسية في الثغر 21 مدفعاً، وما توارت الشمس بحجابها إلا وقد برزت يافا كعروس تختال تيهاً وعجباً بحلة من الأنوار براً وبحراً وخصوصاً سراي الحكومة السنية، والثكنة العسكرية، والمستعمرة الألمانية، ودير الروم الأرثوذكس.

وكانت الأسهم النارية تشق كبد السماء، والعثمانيون لم يكونوا يومئذ أقل من الألمان فرحاً وترحيباً بالزائرين الكريمين، وقد أقامت البلدية من الزِّينات البديعة ما حدا إلى شكر عزتلو حافظ بك السعيد وكيل رئاسة البلدية الذي أظهر من علو الهمة في أمر تنظيم الشؤون ما يذكر، فيشكر.

وقد بعث جلالته يومئذٍ برسالة برقية إلى الحضرة العلية السلطانية مؤداها:

(18) - هي اللوكندة التي أعدها لجلالتهما المستر كوك وقد استأجرها من الخواجا موريس الألماني في تلك الليلة بألف ومائتي ليرة، أما اللوكندة وما حوته من الرياض، فحدث عنها ولا حرج إذ قد توفرت فيها الأدوات الذهبية والفضية، وقد جعل في غرفها معرض للعاديات والآثار القديمة العهد البديعة، وفيها حديقة غناء حوت، من كل فاكهة زوجين

«إن الاستقبال الذي حصل لي في يافا كان حسناً والتزيينات جيدة، ولاسيما الدائرة البلدية، فإنها كانت تتلألأ بالأنوار على طراز بديع، فأقدم الشكر لجلالتكم»، وصباح الجمعة عند الساعة الثامنة إفرنجية ركب جلالته جواداً نادر المثال في ارتفاعه، وهكذا جلالتها، وتبعهما عربة تقل نساء الشرف، وسارا فارسين في موكب حافل يتقدمهم دولتو ناظم باشا قاصدين الرملة[19] التي تبعد ساعتين عن يافا حيث أعد لهما طعام الغداء، فأطلقت المدافع من البوارج الألمانية، والعثمانية في ميناء يافا إجلالاً وتكريماً.

ولما بلغا الرملة نزلا في المضارب المعدة لهما أمام الجامع الأبيض، وكانت المدينة حينئذٍ متدثرة بالأزهار والرياحين ومن فوقها الأعلام في مخافقها تترنح طرباً لقدوم الضيفين الكريمين، فلما استقر بهما المقام استمثل جلالته لديه جناب مدير الناحية رفعتلو [صاحب الرفعة] محمد أفندي شمس الدين الحسيني، فسأله باللغة الإنكليزية مسائل تتعلق بالمدينة فبسط لديه لمحةً من تاريخها، وسألته جلالتها بالإفرنسية مسائل تتعلق بهوائها.

وبعد ذلك ركبا عربتهما بموكب عظيم قاصدين أترون[20] حيث أعد لجلالتهما طعام العشاء والمبيت، فبلغاها محفوفين بالمسرة والهناء، وبأثناء قدومهما مراً تحت قوس نصر متقنة نصبها سليم آغا بوغوش شيخ صلح ناحية بني مالك تجاه قرية العنب [قرية أبو غوش].

ولما أمسى المساء برزت تلك القرية وما جاورها من القرى بحلل من الأنوار بديعة.

ولما كان صباح اليوم الثاني ذهب جلالتهما راكبين مركبة تجرها ستة من جياد الخيل قاصدين القدس محفوفين بموكب عظيم من الوزراء والأمراء والحاشية الكريمة والعساكر الشاهانية والحرس الملوكي. ولما بلغا قرية أبي غوش استقبلهما عدد من وجوه البلاد راكبي الخيول، وأخذوا يلعبون بالرماح والسيوف، وقد ساروا على مقربة من القدس نزل جلالتهما من العربة وصليا شاكرين الله لوصولهما إلى أورشليم بسلام، ثم ركبا الخيول الجياد، وساروا بموكب حافل قاصدين القدس.

---

(19) - كانت من قبل مدينة عظيمة وقصبة فلسطين، وكانت ملك داود وسليمان ورحبعام تحتوي على الفواكه الكثيرة أما هواؤها فنقي جداً، وإليها ينسب خير الدين الرملي صاحب الفتاوى المشهورة أما الآن فإنها أصبحت بلدة صغيرة وهي تبعد عن يافا ثلاث ساعات وعن القدس تسعاً إلى غربي الشمال الغربي، وعدد سكانها يبلغ 8000 ثمانية آلاف، وهي مركز مديرية تابعة لواء القدس، وفيها أبنية جميلة، وعدة جوامع، ودير للاتين، وبرج من بناء العرب.

(20) - هي قرية صغيرة تبعد عن الرملة نحو أربع ساعات، وهي ما يدعى حالياً اللطرون

الإمبراطور في القدس

بلغ جلالتهما القدس عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، فأطلقت المدافع من المدينة إجلالاً لهما وتكريماً، وصدحت الموسيقى بالألحان الألمانية، وأخذت سلامهما العساكر الشاهانية الظافرة واستقبلهما دولتلو ناظم باشا، وسعادتلو توفيق بك متصرف القدس، وكل من حضرة قومندان العساكر الشاهانية، وياسين أفندي الخالدي رئيس البلدية.

وبرزت مدينة القدس يومئذ تكسوها حلة خضراء بديعة محوكة من الرياحين مطرزة بالأزهار والرايات تخفق فوق المنازل وعلى جوانب الشوارع ولاسيما على الطريق المؤدي من المضارب المعدة لجلالتهما إلى كنيسة القيامة، فإن البلدية نصبت عند طرفي هذه الطريق قوسين جميلي الشكل مزدانين برسم جلالتهما في صدر كل منهما الشعار الألماني فوقهما الهلال العثماني الشريف، ونصب اليهود في منتصف الطريق قبة مزدانة بالرايات العثمانية والألمانية وبالآنية الفضية والذهبية ككأس القدوس والمبخرة وتيجان التوراة وبالأنسجة التي كتبت عليها عشر الوصايا وستارات الهياكل إلى غير ذلك من الرموز الذي تدل على أسباط بني إسرائيل الاثني عشر ومن تحتها إلى الجانبين حجرتان يغشاهما قماش من حرير مزركش بالقصب أعدتا لجلوس كبار هذه الطائفة عند مرور جلالتهما وقد كتب بصدر القوس من إحدى الجهتين باللغة الألمانية (مبارك الآتي باسم الرب)، ومن الجهة الثانية (فلتعش الملكة).

ولما كانت الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر رغب جلالتهما في زيارة القبر المقدس فصفَّت العساكر إلى جانبي الطريق، وساروا في موكب عظيم جداً بعد أن ركب جلالته جواده الأشهب وارتدى حلة عسكرية صفراء فوقها برنس حريري، وركبت جلالتها عربة تجرها أربعة من جياد الخيل، وركب معها ثلاث من نساء الشرف، وكان ألوف من الناس بسرورات الطريق، وفي القصور العالية، والشرفات البعيدة، وعلى فروع الأشجار والموسيقى العثمانية تشنف الآذان بأطيب الألحان.

ولما بلغ جلالتهما قبة اليهود احتفل كبار هذه الطائفة باستقبالهما وفي مقدمتهم حضرة الحاخامين بخور الياشار وشمويل سالانت احتفالاً عظيماً، وهتفوا مع تلامذة مدارسهم بالدعاء بإطالة بقائهما هتافاً كبيراً، وخطب الحاخام خطاباً ترحيبياً، ثم رفع إلى الإمبراطورية كتاباً ضمن ظرف، فوقف جلالتهما حينئذ، وأبديا شكرهما وامتنانهما من حسن الاستقبال، وكانت الرياحين وهما سائران قد كستٍ أديم الأرض من طريقهما حلة خضراء.

ولما بلغا القوس الأولى من القوسين اللتين نصبتهما البلدية، استقبلهما ياسين أفندي الخالدي المشار إليه بخطاب هنأهما به بسلامة الوصول بالنيابة عن أهل المدينة، فشكره جلالته قائلاً: (إنه يؤمل دوام المحبة بينه وبين الذات الشاهانية، كما يؤمل أن سياحته هذه تجعلها غير منفصمة العرى).

ولما بلغا باب الخليل استقبلتهما بنات المدارس الألمانية بالترتيل والدعاء، ثم ترجل جلالتهما، وسارا ماشيين على الأقدام إلى أن بلغا باب كنيسة القيامة الكبير حيث كان الجنود واقفين لأخذ السلام، فاستقبلهما غبطة الحبر المفضال السيد لودفيكوس بيا في بطريرك اللاتين، فخطب باللاتينية مرحباً بهما.

وإذ صارا عند المغتسل وسط الكنيسة استقبلهما غبطة الحبر المفضال السيد أرتينيان بطريرك الأرمن الأرثوذكس فرحبَ بهما بخطاب خطبه باللغة التركية، ثم استقبلهما أمام القبر المقدس غبطة الحبر المفضال البطريرك داميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس، فخطب باللغة اليونانية مرحباً بهما، وسألهما الدخول لزيارة القبر المقدس، وكان حينئذٍ حضرة الأب الأرشمندريت كيرافتيموس وكيل القبر المقدس واقفاً لاستقبالهما، فدخلاه، وسجدا، وصليا، وبعد ذلك دخلا كنيسة الروم الأرثوذكس الخصوصية المعروفة بكنيسة نصف الدنيا الكائنة ضمن الكنيسة الكبرى، فأعجبهما ما شهدا فيها من الزخارف البديعة والأواني النفيسة، وقد عرض عليهما إذ ذلك غبطة البطريرك داميانوس على مائدة مخصوصة التحف والهدايا المهداة إلى الكنيسة وهي: شمعدانان من الفضة النقية ثقلهما 13 أقة، وقنديل من الفضة أيضاً ثقله أقّتان هدية المغفور له البرت دي بروسيا أخي المغفور له جده غليوم الأول في سنة 1843، وصليب من البرلنت الخالص هدية من الملك ميخايل باليلوغوس، وصورة وجه السيد المسيح مرصعة بالماس الخالص هدية من ديان ملك منكريليا، وإنجيل مذهب ومرصع بالماس من يوان بورس أحد إمبراطوري روسيا، وعظام الشهداء، وأيقونة الرسل الاثني عشر مذهبة في علبة من البلور وجدت على مائدة كنيسة مار يوحنا في عهد الصليبيين، فسرّ جلالتهما من ذلك.

وبعدئذ أخذ المرتلون يرتلون باليونانية نشيد دعاء لهما ولعظمة المتبوع الأعظم، ثم طافا حول القبر والمقامات المقدسة في كنيسة نصف الدنيا ومغارة الصليب وكنسيتي اللاتين والأرمن وعمود الجلد والجلجلة حيث صلب السيد المسيح.

ولما فرغا من الطواف خرجا ومن معهما من الوزراء والكبراء، فقرعت الأجراس، ثم ذهبا لزيارة كنيسة المخلِّص الألمانية بالقرب من كنيسة القيامة، فكانت هنالك الجالية

الألمانية تنتظر قدومهما الميمون، وكان في مقدمتهم حضرة كاهن الألمان وقرينته فتلا كل من هذين خطاباً بالألمانية ضمَّنه الدعاء لجلالتهما.

ثم دخلا أبنية الكنيسة القديمة وبعد أن شهدا ما فيها من الآثار القديمة عادا إلى حيث كان الموكب العظيم ينتظر قدومهما، فرأى جلالته حينئذ دولة المشير شاكر باشا، فصافحه يداً بيد، ثم ركب جلالته جواداً، وجلالتها ركبت عربة تجرها أربعة أفراس وإلى جانبها إحدى نساء الشرف، وذهبا إلى المضارب.

وقد بدا من جلالته ارتياح حينئذ إلى قبول زيارة البطاركة المشار إليهم، وبقية الرؤساء الروحيين، وقناصل الدولة الفخيمة في قنصلاتو دولة ألمانيا الفخيمة، فحضروا جميعاً في الوقت المعين وهو الساعة 5 بعد الظهر بالألبسة الرسمية، فجعل جلالته يخاطبهم بهشاشة وبشاشة ولاسيما سيادة المطران سالسبوري مطران الإنكليز الذي قد حضر إلى القدس الشريف لتدشين كنيسة إنكليزية، وكانوا جميعاً واقفين لديه، وقد خصّ بطريرك الروم المشار إليه بقوله: إني أشكرك أولاً لما أظهرت من المحبة نحوي ثانياً لما أريتني من التحف في الكنيسة ثالثاً لأنني أُستقبلت في الكنيسة التي استقبل بها المرحوم والدي وكان الترجمان حينئذ المسيو لتشندروف قنصل ألمانيا في القدس.

أما المضارب التي أعدّت لنزول جلالتهما في القدس فهي قريبة من بيوت الجالية الألمانية في بقعة أرض فسيحة في جهة الشمال الشرقي وهي عديدة، وأعظمها المضرب الذي فرش بالرياش الثمينة، وقد قام فوقه على عمود تاج ملوكي وكرة من الذهب الخالص، وقد اتخذ بمثابة قاعة لجلوس جلالتهما، وقد جعل حول المضارب 25 نقطة للحرس في كل نقطة حارسان أما المحافظة على مضربه الخاص، فقد عهد بها إلى رجال آلاي العسكر الزحاف ليس غيره، وكان سر الليل محصوراً بجلالته لا يبوح به إلا للحرس فقط بواسطة جاويشي آلاي الزحاف اللذين كانا يرافقان جلالته بأثناء مسيره دائماً، وهما محمد آغا بدوي، وحسن آغا محمود من قضاء مرجعيون.

وقد دعا جلالته لمناولة طعام العشاء على مائدته الكريمة مساء الاثنين في 31 ت1 سنة 98 كلاً من حضرة دولتلو ناظم باشا، وقمبفنر باشا، وتوفيق باشا، وشاكر باشا، وسعاد تلو عبد الله باشا، وغيرهم من كبار المأمورين العثمانيين، ومن كبراء وزراء الألمان، وبعض رؤساء المقاطعات الألمانية الذين دعاهم للحضور معه من برلين، فجلسوا على مائدة واحدة، وسهروا حتى الساعة 10 مساءً، وكانت الموسيقى الألمانية تصدح بأطيب الألحان، وفي الليلة الثانية تعطف، وجلس على مائدة الضباط، وتناول طعام العشاء معهم.

وكان جلالته في الغالب ينام الساعة 9 مساءً ويستيقظ عند الساعة الخامسة صباحاً.

وقد تقدم لجلالتهما من قبل بلدية القدس مجموعة رسوم المناظر من حيفا إلى القدس بغلاف من صدف مصفحة قرنيه بالذهب، ثم رسم الصخرة المقدسة مؤلفاً من صدف نقي.

وقدمت إليهما كريمة عزتلو إسماعيل بك مدير المعارف بالقدس رسم الطغراء الهمايونية مزركشة بالذهب.

الإمبراطور في بيت لحم

لما كانت الساعة 9 من صباح يوم الأحد في 30 تشرين الأول سنة 98 سار جلالته في موكب حافل لزيارة بيت لحم[21]، وكانت الطرق مزدانة بالرايات والرياحين على نحو ما تقدم من الوصف، وكانت البلدية قد نصبت في أوائلها قوس نصر بديع مزدان بالأزهار والأعلام العثمانية والألمانية، فاستقبله في الطريق الحاج رشيد أفندي عريقات وجماعة من العربان يلعبون بالرماح، وقد بلغا كنيسة الألمان الكائنة بظاهر المدينة عند الساعة 10 صباحاً، وبعد أن قضيا زيارتهما أتيا كنيسة بيت لحم حيث كان المدير رفعتلو إسماعيل أفندي حقي ورئيس البلدية سليمان أفندي الجاسر وعدد من العساكر الشاهانية لأخذ سلامهما وتلامذة المدارس البطريركية الأرثوذكسية بالأناشيد الشجية، فدخلا أولاً من باب دير اللاتين حيث استقبلهما غبطة السيد بيافي وقد تطرقا منه إلى الكنيسة الكبرى،

---

(21) - مدينة قديمة العهد على بعد ساعة من القدس وفي سنة 330 للمسيح بنت فيها القديسة هيلانة كنيسة كبيرة فوق المغارة التي ولد فيها المسيح وهي أقدم كنيسة مسيحية في العالم قائمة على نحو خمسين عموداً طول الواحد منها أربعة أمتار ومحيطه نحو متر ونصف، وعلى جدرانها كثير من الآثار، ومن الفسيفساء والكتابة اليونانية، وبجانبها دير للروم الأرثوذكس، وله قبّة ذات سبعة أجراس يزن الصغير منها نصف قنطار، والكبير سبعة قناطير بناها غبطة السيد اسبريدون بطريرك أنطاكية السابق منفقاً عليها من ماله، فبلغت النفقة نحو ألفي ليرة، ودير للاتين متقن البناء وعلى طراز جديد، ودير للأرمن، وأما المغارة التي ولد فيها المسيح، فقد أقيم عليها هيكل للروم والأرمن معاً، وقد وضع فيها صفيحة من رخام وجعل في الصفيحة من الفضة ما هو بشكل نجمة إشارة إلى النجم الذي ظهر يوم ولادة المسيح والمهد (المزود) الذي وضع فيه المسيح بعد الولادة قد أقيم عليه هيكل للاتين أما عدد سكان هذه المدينة، فيبلغ ثمانية آلاف نفس، وما زال الرجال من أهلها كسواهم من أهل القرى المجاورة يعتمون بالعمائم الصفر يتخللها خطوط مختلفة الألوان أما النساء، فالمتزوجات منهم يلبسن على رؤوسهن قلنسوة معروفة عندهم بالشتوه مرصعة من الأمام بقطع من المعاملة (النقود) القديمة على نحو ما كان في لبنان أما العذارى فإنهن يلبسن كلبس القرويات في لبنان يوجد في بيت لحم دير أيتام للاتين وكنيسة للبروتستانت، وكنيسة للبروسيان جديدة، ودير للإنكليز، ومغارة السيدة للاتين، ومغارة الرعاة على بعد نصف ساعة من بيت لحم

فاستقبلهما غبطة بطريرك الأرمن أمام هيكل الأرمن الكائن في الكنيسة، ثم استقبلهما في هيكل مار نقولا للروم الأرثوذكس غبطة البطريرك داميانوس.

وبعد أن طافا في الكنيسة نزلا إلى المغارة التي ولد فيها السيد المسيح، فاستقبلهما بطريرك الروم المشار إليه، وقد كشف لجلالته حينئذ سيادة المطران اسطفانوس وكيل مطران بيت لحم للروم الأرثوذكس شيئاً من تاريخ هذه الكنيسة القديمة باللغة الإنكليزية.

ثم زارا المهد بجانب المغارة، وخرجا بعدئذ من الباب الغربي فزارا كنيسة الروم الأرثوذكس، ثم طافا في الكنيسة الكبرى المعروفة بالبازليك المحتوية على العواميد المشار إليها، وخرجا من الباب الحديدي الصغير، فركب جلالته جواداً، وركبت جلالتها عربة، وسارا إلى مدرسة الألمان المنشأة حديثاً للأيتام في بيت لحم، وبعد أن شربا المرطبات فيها سارا إلى القدس الشريف، فبلغها جلالته الساعة الواحدة بعد الظهر، أما جلالتها، فذهبت إلى بيت جالا، وبعد نصف ساعة عادت إلى المضارب.

وفي أثناء ذلك ذهب غبطة السيد داميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس يحف به كل من سيادة السيد فوتيوس مطران فلادلفيا وحضرة الأرشمندريت غليكاريوس الترجمان الأول لدير الروم، وقدموا لجلالته هدية هي (البوم) يحتوي على صور جميع أديار الزيارة المختصة بالبطركية الأرثوذكسية في فلسطين وغلاف هذا الألبوم قد رصع بالصدف النقي ترصيعاً بديعاً ظهر منه رسم الملاك الذي بشر النسوة حاملات الطيب بالقيامة، ورسم جلالتهما، ورسم والدي [جلالته]، و[رسم] جدي جلالته، وصورة التاج الملوكي الألماني، فأظهر جلالته ارتياحه لقبول هذه الهدية شاكراً.

الإمبراطور وبطاركة القدس

بعد ظهر الثلاثاء في 1 تشرين الثاني سنة 1898 زار جلالته غبطة البطريرك ارتينيان بطريرك الأرمن الأرثوذكس في مقره، فاحتفل بقدومه احتفالاً كبيراً، وفي صباح اليوم الثاني زار جلالته غبطة السيد لودفيكوس بيافي في مقره، فبالغ غبطته في إكرام جلالته، وقد طالت هذه الزيارة إلى نحو خمس وثلاثين دقيقة لم يكن لديهما في حجرة الاستقبال سوى سيادة المطران أبوديا، ثم ودّع جلالته غبطة البطريرك مظهراً ارتياحه لما جرى له من حسن الاستقبال.

وسار قاصداً غبطة السيد داميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس الذي احتفى بجلالته احتفاءً كبيراً قائلاً: إنني أشكر الله لأنني أقتبل الآن في محلي الحقير أحد أعاظم

الملوك الذي أصبح تشريفه مرسوماً على صفحات قلوب أخوة القبر المقدس كما سيرسم على صفحات التاريخ.

وختم قوله بالدعاء للحضرة السنية السلطانية، ولجلالته، وللأسرة الإمبراطورية الكريمة. فأجابه جلالته قائلاً: إنني ممنون مما جرى لي من حسن الاستقبال، ولأنه تيسرت لي الصلاة في دير الروس في جبل الزيتون، وقد حررت لجلالة القيصر بلك، فأجابه غبطته قائلاً: إننا سنذكر هذه الزيارة مدى العمر شاكرين، ونرجو أن تنظروا إلينا دائماً بعين الرضا. ثم عرض عليه على مائدة مخصوصة كتباً دينية خطية قديمة كتبت على رق غزال في القرنين الثامن والعاشر، فسرّ جلالته من ذلك، وبعد أن شرب المرطبات أخذ المرتلون بترتيل نشيد تضمن الدعاء لجلالته، ثم ذهب مشيعاً كما استقبل بالتكريم والتعظيم، وقد أهدى يومئذٍ غبطة بطريرك اللاتين رسمه ورسم جلالة الإمبراطورة الكريمين.

الإمبراطوران في كنيسة المخلص الألمانية

عند الساعة التاسعة من صباح الاثنين في 21 ت1 بدا من جلالته ارتياح لتدشين كنيسة المخلص الألمانية، فصفت العساكر العثمانية والألمانية أمام الكنيسة من الناحية الغربية ورجال الشرطة من الناحية الشرقية، ومن حول الكنيسة احتشد ألوف الناس، وكانت هنالك زينة من الأزهار والرياحين جميلة والرايات العثمانية والألمانية تلوح في مخافقها.

وقبالة باب الكنيسة رسم عظمة متبوعنا الأعظم مرفوع على مكان خاص بدير الروم الأرثوذكس، وإلى جانبي الرسم رسم لجلالتهما كل ذلك ضمن إطار بديع الصنع تخفق فوقه الأعلام، ولما كانت الساعة التاسعة والنصف أقبل كهنة الألمان وفيهم سيادة مطرانهم على رأسه قبعة طويلة سوداء وعلى كتفيه وشاح من الحرير الأصفر، وعلى صدره نيشان ألماني وصليب، وأمامه رجل بثياب سوداء، وبيده عصا الرعاية عصا من فضة ذات قبضة من ذهب مزخرفة.

وكان هنالك أربعة من الكهنة بيد أحدهم الكتاب المقدس مصفحاً بالفضة ورسم الصليب المقدس على جناحه الأيمن، وأما سائر الكهنة، فيحملون كأساً كنائسية من فضة وصفيحتين إحداهما كبيرة من فضة والأخرى صغيرة من ذهب، وكان على صدر كل منهم شارة بيضاء وعددهم (20) كاهناً، ثم أقبلت الجالية الألمانية من رجال ونساء ثم الوزراء

العثمانيون، ثم الوزراء الألمان، ثم الضباط من عثمانيين وألمان كلهم بالكساء الرسمي ثم الحرس الملوكي بقبعات مختلفة الأشكال فمنها ما هو من ذهب، ومنها ما هو من فضة على شكل الخوذة، ومنها ما هو على هذا الشكل إلا أنه أسود اللون، ومنها ما هو على رسم النسر الألماني من ذهب وفضة، ومنها ما كسي بجدايل شعر مسترسلة بين أسود وأبيض.

وبالجملة، فإن القبعات كادت أشكالها تفوق العشرين شكلاً، ثم ما لبث أن قرعت أجراس الكنيسة، وصدحت الموسيقتان العثمانية والألمانية بنغماتهما، فإذا بصاحبي الجلالة قد أشرقت طلعتهما مقبلين من باب الكنيسة الخارجي الجنوبي يحف بهما عدد من الوزراء والعظماء والحرس الإمبراطوري، فأخذت سلامهما العساكر الشاهانية والألمانية، أما الإمبراطور، فكان باللباس العسكري من لون رمادي وبقبعة من الذهب عليها رسم النسر من الذهب أيضاً تغشاها كوفية من حرير بيضاء مطرزة بالذهب، وعلى كتفيه عباءة بيضاء مطرزة على هذه الصورة (وهما من مصنوعات بلادنا).

أما الإمبراطورة، فكان ثوبها من الحرير الأبيض وعلى رأسها قبعة بيضاء ومن تحتها إلى اليسار من الجهة الخلفية طاقة من الورد (وكوفية مثل كوفية الإمبراطور)، وبيدها اليسرى مظلة بيضاء، ولما دنوا من باب الكنيسة تقدمت إليها ابنة بثوب أبيض لا تتجاوز من العمر أكثر من ست سنوات، وقدمت للإمبراطورة طاقة من الورد وغيره من صنوف الزهر.

ثم خطب اثنان من الحاضرين، ولما فرغا تقدم كاهن بيده مفتاح الكنيسة، فسلمه لمن كان بيده الكأس، فصلى عليه، ثم فتح الباب، ودخل الكهنة، ثم الإمبراطوران، أما الإمبراطور، فمن المصرع الجنوبي من مصراعي الباب، وأما الإمبراطورة فمن الجانب الشمالي ثم الوزراء، ثم الضباط، ثم الحرس، وقد بقي اثنان من هؤلاء أمام الباب حاملٌ كل واحد منهما علماً ملكياً أحد العلمين بلون أحمر إلى ذات الشمال، والثاني بلون أصفر إلى ذات اليمين واثنان من عسكر آلاي الزحاف العثماني وبيد كل منهما بندقية، ثم قفل الباب.

وفي الكنيسة مئات من المدعوين لشهود الاحتفال، فأخذ المرتلون يرتلون توقيعاً على نغمات الأرغن والموسيقى الألمانية، وكان جلالتهما جالسين على كرسيين من جلد نفيس أحمر يضرب إلى السمرة في وسط الكنيسة للجهة الشمالية وتحت أقدامهما لوح من خشب مغشى بالحرير الأحمر، وكان المدعوون جالسين وراءهما على مقاعد الكنيسة

وهي اثنان وخمسون مقعداً بين صغير وكبير، وكلها من خشب الجوز وقد خطب حينئذ حضرة الأب هبي الألماني، ثم اثنان غيره من قسس الألمان، ثم قام رئيس الأساقفة ومنح البركة.

ثم وقف جلالته في صدر الكنيسة أمام الهيكل، وخطب بالألمانية خطاباً دينياً استغرق من الوقت ثلاثين دقيقة مؤداه: إن مجيئي إلى القدس الشريف لم يكن مبنياً على غايات سياسية، بل لأنني كنت أميل إلى زيارة هذه المدينة المقدسة التي مات فيها السيد المسيح، ثم قام وصعد إلى السماء، وقد كان في خاطر أبي وأجدادي تشييد كنيسة مسيحية إنجيلية في هذه المدينة، فبدأوا بوضع أساس هذه الكنيسة التي قد تم إنشاؤها بوساطتي.

وقد ختم جلالته خطابه بقوله: إن إيمانه ثابت على الصخرة التي هي السيد المسيح، وأنه يستمر متمسكاً بالإيمان الحقيقي بالرب يسوع وسيجاهد إلى النهاية الجهاد الحسن لمد الله وخير الكنيسة، وإن السلام يجب أن يكون سائداً كما كان من قبل، ثم عادوا إلى الترتيل.

وبعد أن فرغ من ذلك الاحتفال خرج صاحبا الجلالة وكانت الساعة الحادية عشرة، فأخذت العساكر العثمانية والألمانية سلامهما، وصدحت الموسيقتان العثمانية والألمانية بألحانها الشجية. أما جلالته فخرج من الجانب الشمالي من الباب وأما جلالتها، فمن الجانب الجنوبي وإذ كانت قد هبت الريح حينئذٍ وأزاحت الكوفية التي كان يلبسها جلالته غشاءً على قبعته، فمدت جلالتها يمينها الكريمة، وأعادتها إلى موضعها، ثم دخلا المباني القديمة بجانب الكنيسة، وبعدئذ ذهبا محفوفين بالإجلال والتعظيم.

الإمبراطور في صهيون واستلامه قطعة الأرض

عند الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الاثنين في 31 تشرين الأول سار جلالتهما بموكب حافلٍ إلى مكان النبي داوود المعروف بعلية صهيون[22]، ولما بلغا المكان المشار إليه تقدم حضرة سعادتلو توفيق بك سفير الدولة العلية في برلين، وأهدى جلالته باسم الحضرة العلية السلطانية أرضاً في ذلك المكان تبلغ مساحتها نحو ألفي متر مربع، وحضرة

(22) - هو المحل الذي غسل فيه السيد المسيح أقدام التلاميذ وصنع العشاء السري، وظهر لتلاميذه بعد قيامته، وفيه اجتمعت الرسل بعد الصعود الإلهي وحل عليهم الروح القدس.

متصرف القدس قدم إليه أوراقها الطغرائية الرسمية الواردة من الأستانة العلية، فاستلمها بيده الكريمة، وسلمها إلى وزير خارجية دولة ألمانيا المسيو دوبولوف، وتقدم حينئذ حضرة صاحب الفضيلة الشيخ سعيد أفندي الداوودي صاحب الأرض أمام جلالته قائلاً: بناءً على الصداقة الكائنة بين جلالتكم وعظمة متبوعنا الأعظم، فإننا نقدم لجلالتكم الأرض (ونحملكم على الراحات).

وللحال رفع فيها العلم الألماني والعلم الملوكي الخاص، وصدحت الموسيقى الألمانية وأخذ الجند الألماني الذي كان واقفاً هنالك وعدده نحو مائتي شخص سلام جلالتهما وقد خطب جلالته حينئذ قائلاً: إن ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان أهدى المرحوم والدي الأرض التي بنيت فيها الكنيسة التي تم تدشينها اليوم، وأما عظمة صديقي السلطان عبد الحميد خان، فقد أهداني هذه الأرض، وكما أننا بنينا في الأولى كنيسة للألمان الإنجيليين، فسنبني في هذه كنيسة للألمان الكاثوليكيين، فشكراً لعظمته، ولآل عثمان العظام.

ثم وزع على الجنود الألمانية جميعاً المداليات التي صنعت تذكاراً لذلك، وسلم جلالته الأرض حينئذ لغبطة السيد لودفيكوس بيافي بطريرك اللاتين باسم قداسة البابا، فقبلها ناطقاً بالشكر، ثم بعث جلالته برسالة برقية إلى قداسته قال فيها: (إنني بواسطة جلالة السلطان الأعظم الذي أيّد بالدليل الساطع صداقته المخلصة قد ملكت في أورشليم الأرض المعروفة بمحل نياح السيدة جازماً أن أضع هذه الأرض المقدسة بين أيدي رعاياي الكاثوليكيين، فإنه يسرني أن أثبت أهمية الصوالح الدينية للكاثوليك الذين سلمتهم العناية الإلهية لي، وبالختام أسأل قداستك قبول تعلقي الخالص الأكدي) أما جواب قداسته فهو: (لقد ابتهجنا جداً بالرسالة البرقية اللطيفة التي تفضلت عظمتك بإرسالها إلينا لإعلامنا بعزمك على إعطاء محل نياحة العذراء القديسة التي تملكته إلى رعاياك الكاثوليكيين، وقد قابلنا ذلك بملء الرضا، ولا شك في أن الكاثوليكيين يشكرون عظمتك على هذا التفضل مزيد الشكر وبكل مسرة نضيف تشكراتنا إلى تشكراتهم).

الإمبراطور في جبل الزيتون وبستان الزيتون

لما كان يوم الأحد في 30 ت1 ذهب جلالتهما عند الساعة الرابعة بعد الظهر بموكب حافل إلى جبل الزيتون حيث جرى استقبالهما بما يليق بجلالتهما من الاحتفال والاحتفاء من قبل وكيل سفارة الروس الروحية في القدس الأرشمندريت رافائل، وقدمت لهما

المشروبات الروحية، ثم صعدوا على الأسطحة ومنها إلى قبّة الأجراس حيث رأيا بنظارة كبيرة جميع الأماكن المقدسة التي لم يذهب إليها، وأخذ رسم القدس حينئذٍ.

وكان المطران سالسبوري مرافقاً جلالتهما، فخطب خطبة دينية مؤثّرة بيّن فيها عظم أهمية الأماكن المقدسة، وبعد ذلك صليا، وقدما الشكر لله، ثم إن جلالته بعث برسالة برقية إلى جلالة القيصر يثني على ما رأى من حسن الاستقبال. ويوم الثلاثاء زارا بستان الزيتون[23] حيث صلى المسيح، ثم زارا جبل الزيتون تكراراً، وقد أمر بأخذ رسم جلالته يومئذ، فأُخذ، وكان راكباً حينئذٍ جواده الأشهب ولابساً ثوباً عسكرياً، ومدرعاً بالدرع الألماني ومتشحاً بالبرنس الحريري الأبيض، وعلى رأسه كوفية حرير بيضاء.

الإمبراطور في الحرم الشريف

عند الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء في 2 ت2 سنة 1898 بدا من جلالتهما ارتياح لزيارة الحرم الشريف[24]، فصفت العساكر على جانبي الطريق، وذهب جلالتهما في موكب حافل تحف بهما الوزراء والأمراء، وقد دخلا أولاً من الباب الشرقي، ومنه ذهبا إلى المسجد الأقصى، فسرير سيدنا عيسى، فالأبواب الدهرية، فكرسي سيدنا سليمان، وكان يسير أمامهما حضرة الشيخ عبد القادر الدنف الملقب بالأنصاري. ثم خرجا من باب الأسباط المعروف بباب السيدة مريم بعد أن شاهدا تلك الأبنية العظيمة، وما فيها من

---

[23] - هو البستان الذي صلى فيه المسيح يشتمل على أربع شجرات من الزيتون كبيرة عتيقة، وهو للاتين، وأمام البستان مصلى وقف فيه المسيح لما تلا الصلاة الربانية، وأمام المصلى صخرتان نام عليهما بطرس ويوحنا عندما كان المسيح يصلي، وإلى شرقيهما كنيسة بناها الإمبراطور إسكندر الثاني على اسم القديسة مريم المجدلية (سمية والدته) بناها على طرز جميل ونحتت حجارتها نحتاً عجيباً وجعل فوقها قبّة يصعد إليها بخمس وستين درجة علق فيها سبعة أجراس، وفوق ذلك جبل الزيتون، وفيه دير للروس، ودير للروم، ودير للراهبات اللاتين يحتوي على ست وثلاثين راهبة متحجبات فيه، وقد كتبت على جدرانه من الخارج الصلاة الربانية باثنتين وسبعين لغة أما دير الروس فقد استدل مما فيه من الآثار أن قصر هيردوس كان هنالك، ومن تلك الآثار رسوم بشرية، ورسوم بط ودجاج وسمك وحجل وكتابات يونانية وسريانية

وفي جبل الزيتون كان الذي قال فيه المسيح لتلاميذه (إنني سأذهب لأبي ولأبيكم) وبالقرب من مقام السيدة العذراء من جهة الشرق مغارة اختبأ فيها السيد المسيح قبل الصلب، وقد اتخذها اللاتين هيكلاً. وتحت كنيسة الروس بناحية الشمال الغربي منها بيت بناه الأمير بول الروسي جداره الخارجي من الجهة الغربية على الصخرة التي اضطجعت عليها البتول مريم طلباً للراحة وهي نازلت من جبل الزيتون، ولدى هذا البيت من الناحية الشمالية بستان كان توما الرسول فيه يوم كانت السيدة مريم صاعدة إلى السماء وقد ألقت عليه المنطقة

[24] - أمام هذا الحرم قبّة السلسة قيل لها كذلك لأنها بنيت بناء متقناً على سلسلة من القناطر، عشر منها خارجية تحيط بثمان داخلية شيّد في صدر الخارجية منها من الناحية الجنوبية المحراب، والثانية الداخلية مزينة بآيات من القرآن الشريف، وشكل هذه القناطر جميعها مثمّن يعلوها كلها تلك القبة قبة السلسلة

الآثار الجليلة، ثم سارا إلى برك سليمان، فمدرسة سمث الألمانية الكاثوليكية، فمدرسة شالوتا الألمانية للبنات، ثم عاد جلالته إلى المضارب أمام الإمبراطورة، فقد ذهبت إلى دار الأيتام الألمانية، ثم لحقت بجلالته إلى المضارب وقد أمر يومئذٍ بأخذ رسوم العسكر الزحاف العثماني ورسوم العسكر الألماني.

صباح الخميس الواقع في 3 ت2 زار جلالتهما المستشفى الألماني وبيت الفقراء، ثم عادا إلى المضارب، وبعد الظهر ذهبا بعجلة، وزارا قبور الملوك وغيرها من الأماكن متفقدين الآثار القديمة التاريخية، ثم ذهبا إلى كنيسة المخلص، فحضرا ثم عادا إلى المضارب.

وداع الإمبراطور في القدس

عند الساعة 9 صباح الجمعة صفت الجنود على جانبي الطريق من المضارب إلى محطة السكة الحديدية، ثم خرج جلالتهما، فذهبا إلى المحطة، وركبا القطار المخصوص قاصدين يافا بين هتاف الألوف من الناس بالدعاء لجلالتهما.

الإمبراطور في يافا راجعاً من القدس

نهار الجمعة في 4 ت2 سنة 98 عند الساعة الحادية عشرة صباحاً حضر قطار السكة الحديدية يقل الحاشية الإمبراطورية وبعض رجال الحكومة، ونحو الظهر أقبل القطار المخصوص مؤلفاً من أربع عجلات مفروشة بالرياش والحرير يقل جلالتهما، فنزلا إلى المكان المعدّ لهما في المحطة، وكانت أرضه مفروشة بالسجاد النفيس حيث كان واقفاً لاستقبال جلالتهما دولتلو ناظم باشا، وكل من حضرة وكيل القائمقامية، ووكيل رئاسة البلدية، وقومندان الموقع عزتلو شوقي بك، وصاحب الفضيلة نائب أفندي، وسواهم من كبار المأمورين بالألبسة الرسمية.

وبعد أن حياهم جلالته، وأخذت سلامه العساكر الظافرة ركب جلالتهما العربة، وأمامهما حضرة توفيق باشا سفير الدولة العلية في برلين، فسارت العربة محفوفة بكثير من العربات تقل الوزراء والأمراء، وكانت يافا حينئذ لم تزل متدثرة بزينتها البديعة، وفي أثناء مسيرهما استقبلهما شهبندر دولة إيران بالأعلام العثمانية والألمانية والإيرانية وهو بلباسه الرسمي، وقد فرش فناء داره الفسيح بالطنافس النفيسة، وداستها الخيول بأقدامها، وقد أقيم لجلالتهما عند باب الكمرك قوس نصر مزدان بالأعلام والأزهار فرش ما تحته من الأرض على مسافة بعيدة بالطنافس أيضاً، وعند بلوغهما المينا نزلا

إلى الزورق البخاري بعد أن أمسك بيدهما فتوتلو [صاحب الفتوة] عبد الوهاب أفندي رئيس المينا، وحينئذٍ أطلقت المدافع من السفن الراسية في الثغر، فبلغا اليخت (هوهنزولرن) على الطائر الميمون محفوفين بالأبهة والإجلال، ولما غابت الشمس مخر اليخت بجلالتهما إلى بيروت تخفره الدارعتان (هيلا) و(هرتا) والباخرة (لورلي) وكانت الناس على الرصيف تعد بالألوف أما حضرة الوزراء العثمانيين، فكانوا قد ساروا على الباخرة (أزمير) إلى بيروت عند وصول جلالتهما إلى اليخت (هوهنزولرن).

في القدس

قدَّمت الجالية الألمانية في القدس توراةً جناحاها من خشب الأرز محفور عليها رسم كنيسة المخلِّص الألمانية الجديدة، وكرسياً لها من خشب الزيتون النقي، وقطعة الأرز التي صنع منها جناحا التوراة قد أهديت إليهم من حضرة الدكتور بوست بواسطة حضرة السيدة الفاضلة لويزا رئيس المستشفى الألماني البيروتي لأن خشب الزيتون القدسي لم يكن صالحاً لذلك.

في حيفا

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الثالثة إلى كل من حضرة صاحبي السعادة حسين أفندي متصرف لواء عكا، وأحمد أفندي شكري قائمقام حيفا.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى كل من حضرة رفعتلو مصطفى أفندي رفاعي مدير جمرك حيفا، والموسيو أوتوفيشر التاجر الألماني، والموسيو كلوفيس قنصل ألمانيا، والأب بارومانيشتر كاهن البروتستانت، والموسيو كودلب شوميخر[25] فيس قنصل دولة أميركا، والخوري داهود الألماني.

ووسام تاج دي بروسيا من الطبقة الثانية إلى حضرة سعادتلو بدري بك قائمقام الأركان الحربية، والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى حضرة الموسيو بوهنس كلر والموسيو فردريك لأنه رئيس المدرسة الألمانية، والبموسيو بوهنس هرمن، وبشارة أفندي قرداحي الترجمان الأول لقنصلاتو ألمانيا، وإلى كل من أصحاب الرفعة الأمير قيصر شهاب مدير تلغراف وبوسطة حيفا سابقاً، وفضول أفندي ربيز مأمور البوليس ونجيب أفندي الياس رئيس البلدية.

---

(25) – هو المستشرق الشهير المهندس غوتليب شوماخر صاحب كتاب الجولان وكتاب حيفا وكتاب عبر الأردن.

ومدالية الوسام نفسه الذهبية إلى كل من فتوتلو علي آغا رضا، وفؤاد أفندي سعد ترجمان قنصلاتو ألمانيا الثاني، ونخله أفندي قشوع الترجمان الثالث، والفضية إلى كل من القواصين عبد الرحيم آغا القاسم، وعبد المسيح آغا.

أهدت جلالة الإمبراطورة حلية ذهبية مرصعة رسم عليها الحرف الأول من اسم جلالتها إلى كلٍ من الآنسات. آنه لانه، وهربت كلر ابنة قنصل ألمانيا، وشقيقتها تورا وأننخن شوميخر، وأما شميت، وشالوناصار، وهيلانه أند.

وهكذا إلى أربع بنات صغيرات من طالبات مدرسة بروسيا.

وأهدت دبابيس من ذهب مرصعة إلى كل من الآنسات الصغيرات بوهنس أثر، وأمس أيمن، وآنيسة فوخت.

في يافا

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الرابعة إلى كل من عزتلو حافظ بك السعيد وكيل رئاسة البلدية ومدير الرجي[26] في يافا، والموسيو شميت قنصل ألمانيا فيها، والبارون فون أوستينوف، وسرابيون أفندي مراد، ورفعتلو سعيد بك مدير الرسومات، والموسيو ستيكر مدير البوسطة الألمانية.

ومدالية الوسام نفسه إلى كل من أنطوني الخوري سالم، والياس أفندي الترك ترجماني قنصلاتو ألمانيا.

ووسام تاج بروسيا من الطبقة الثانية إلى عزتلو زهدي بك وكيل قائمقامية يافا.

والوسام نفسه من الطبقة الثالثة إلى مهران أفندي قومسير السكة الحديدية، وعزتلو يوسف بك بكباشي العساكر النظامية.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى الموسيو جورج مراد كاتم أسرار قونصلاتو ألمانيا، وسليم أفندي كسار وكيل الفابورات[27] الخديوية، والدمكتور شارل لروخ الألماني، والموسيو فردريك كلنك، ورفعتلو محمد لبيب أفندي باشكاتب الرسومات، ومحمد أفندي فوزي قومسير البوليس، ويوسف آغا الجزدار يوزباشي الجندرمة[28]، والبرت أفندي جوشي مأمور تلغراف يافا الفرنساوي، ومحمد أفندي مراد مأمور الطابو. ومدالية

---

(26) الرجي: الريجي إدارة حصر التبغ.

(27) – الفابورات: البواخر.

(28) – الجندرمة: قوى الدرك.

الوسام نفسه إلى كل من الموسيو أندراوس فيكل، والموسيو كويستيان يونك مختاري الألمان في سارونه[29].

في القدس الشريف

لقد أحببنا أن نثبت بيان جميع الوسامات التي منحت لبعض الوجوه في القدس كما أثبتنا بيان غيرها التي استحصلنا على كل ما يتعلق بها من المعلومات من قونصلاتات دولة ألمانيا الفخيمة، وسعينا بواسطة حضرة وكيلنا الفاضل بالقدس إلى نيل المعلومات اللازمة من قنصلاتو دولة ألمانيا هنالك، فبعد كثرة التداول ورد علينا من حضرته رسالة تلغرافية بتاريخ 1 كانونا أول حساباً شرقياً تحت نومرو 1857 تشير إلى الامتناع عن الاستجابة إلا بعد توسط فونصلاتو دولة ألمانيا في بيروت، ولما كان الوقت لا يسمح لنا بالانتظار رأينا أن لا مندوحة عن إغفال تلك المعلومات إلا من عرفناهم بالنفس في أثناء وجودهما في القدس ممن أحرزوا الوسامات الآتي بيانها.

أهدى جلالته في القدس الشريف وسام النسر الأحمر من الطبقة الأولى إلى غبطة الحبر المفضال السيد لودفيكوس بيافي بطريرك اللاتين.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى حضرة سعادتلو ياسين أفندي الخالدي رئيس بلدية القدس، وعزتلو ثروت بك قومسير ذاميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس.

والوسام نفسه من الطبقة الأولى إلى كل من غبطة الحبر المفضال السيد ارتينيان بطريرك الأرمن الأثوذكس، وحضرة سعادتلو توفيق بك متصرف القدس.

[29] - سارونه: مستوطنة ألمانية في فلسطين

نجيب عازوري يصف فلسطين في بدايات القرن العشرين

استبداد ففقر فتخلف.. وخطر صهيوني متربص!

لاتعد رحلة نجيب عازوري إلى فلسطين رحلة عادية، فقد استمرت ست سنوات متواصلة عمل خلالها نائباً لمتصرف القدس من عام 1898 إلى 1904م. وقد خبر الوضع في فلسطين على حقيقته من حيث تنامي الخطر الصهيوني الذي كان في بدايته لتأسيس كيان يهدد حاضر العرب ومستقبلهم. ولذلك بدأ عازوري في فترة مبكرة بدراسة الحركة الصهيونية ومخاطرها على مستقبل فلسطين خصوصاً والعرب عموماً، وتبنى فكرة القومية العربية التي رأى أنها الطريق للاستقلال عن السلطنة العثمانية، وبناء الكيان العربي في منطقة شرق المتوسط والجزيرة العربية.

ولد عازوري في قرية عازور جنوبي لبنان في عام 1878م، و درس في مدرسة الفرير في بيروت ونال شهادة المدرسة العليا الفرنسية في باريس ولم يتجاوز العشرين من عمره. عين مساعدا لوالي بيت المقدس عام 1898. ذكر المترجم في سيرته بقلمه أنه غادر عام 1904 فلسطين إلي مصر بعد أن قدم تقريرا للسلطان عبد الحميد عن مساوئ إدارة المتصرف وحكم عليه بالإعدام ففر من فلسطين. أسس في باريس مجلة الاستقلال العربي عام 1907م، وفي عام 1908 عاد إلى يافا إثر تسلم حزب تركيا الفتاة الحكم في السلطنة، ثم انتقل إلي مصر حيث أسس محفلاً ذا شكل ماسوني بطقس اسكوتلندي يهدف إلى تحرير الأمة العربية، واعتبر فترة من الزمن وزير خارجية حزب مصر الفتاة.

وكان يرى أن العرب يشكلون أمة، أرضها الجزيرة العربية والهلال الخصيب. وأن نهضة الأمة العربية ترتكز إلى نظام ملكي دستوري موال لأوروبا الراقية، وبرأيه أن «الأمة التي يقدسها الجميع في الشرق الأدنى هي فرنسا»، ولذلك يجب الاستقلال عن الحكم العثماني المتخلف، والذي هو سبب زوال مجد العرب. وما يلفت النظر في أفكار عازوري تنبؤه بالصراع بين القومية العربية والحركة الصهيونية، ورأى أنه (على النتيجة النهائية

لهذا الصراع سيعتمد مصير العالم بأسره). وقد أشار عازوري إلى أنه وضع كتاباً بعنوان الخطر الصهيوني العالمي، لا أحد يعرف حتى الآن مصيره. وبعد سنوات من العمل والدعوة لفكرة القومية العربية توفي عازوري في شهر حزيران من عام 1916م إثر جلطة دموية ودفن في القاهرة.

في كتابه يقظة الأمة العربية الذي ترجمه الدكتور أحمد أبو ملحم عن الفرنسية، خصص عازوري فصلاً لوصف فلسطين في ذلك الزمن ومن مختلف نواحيها، وهو وصف يختلف عن الأوصاف التي كان يدبجها بعض الرحالة الذين كانوا يقصدون (الأراضي المقدسة) بقصد الحج. فهو وإن يكن قد بالغ في إبراز سلبيات الحكم العثماني، إلا أنه قدم صورة مختلفة عن فلسطين قريبة من الواقع، على صعيد الوضع الاجتماعي والمستوى التعليمي والفساد المستشري في مرافق الدولة كافةً.

لاحظ عازوري من خلال إقامته في فلسطين ذلك التناقض الكبير بين خصب فلسطين وبؤس أهلها، الذين «يعيشون حياة خاملة ويسكنون في أكواخ نتنة، لا يعرف لون ثيابهم تقريباً ولا يتناولون سوى وجبة طعام خبيثة واحدة في اليوم». وهم إضافة إلى طعامهم الخبيث بعيدون عن الاتفاق وأكثر بعداً عن التفاهم، يتكارهون و «يتباغضون دون أن يعرفوا لماذا؟»، يستغلهم الغرباء ويوطدون الاستغلال بالاحتقار، «هذه هي حال الشعب العربي في فلسطين وهي كذلك في بقية الولايات العربية في كل من سورية والعراق».

ويشير عازوري إلى أنه في مقابل الخمود العربي، يأتي النظام اليهودي، الذي يحسن التعامل مع الحاضر ويصحح بالمهارة الحاضرة أخطاء ماضية: «أدرك يهود عصرنا أخطاء أجدادهم تماماً، لذا يسعون بأناة لتجنبها في أثناء إعادة ما يسمونه وطنهم القديم باستيلائهم على الجزء الذي لم يستطع أسلافهم امتلاكه وباحتلالهم التخوم الطبيعية للبلاد قبل كل شيء. هاتان نقطتان هامتان في ميدان عمل الصهيونية». يذهب الموضوع الثالث إلى السلطة العثمانية، التي يمكن تحديد معناها من طريقين على الأقل: أولهما بؤس حالة الشعب العربي، ذلك أن حالة الشعب، بؤساً أو نعيماً، لا تنفصل عن سلطة معينة أرادت له البؤس أو أخذت بيده إلى النعيم. قدمت السلطة العثمانية، بهذا المعنى، دعماً وافياً للمشروع الصهيوني من طريق السلب، أي من طريق تيئيس الشعب العربي، والفلسطيني منه، لأن شعباً فقيراً مريضاً لا يستطيع التعامل مع «حركة أوروبية وافدة»[30].

ويرى المفكر الفلسطيني فيصل دراج أن (ثلاثة أسباب جعلت العرب في زمن

[30] - يقظة الأمة العربية، معلومات من مقدمة المترجم ومقاطع من متن الكتاب.

عازوري مهزومين أمام المشروع الصهيوني: الاستبداد السلطوي الذي ينتج التخلّف والأرواح المتخلّفة المرعوبة، خمود النفوس العربية المهزومة قبل أن تحاول الوقوف، البصيرة اليهودية التي تجبر الأحفاد على تفادي أخطاء الأجداد. إنها يقظة الاستبداد التي تئد كل يقظة محتملة، مثلما أنها يقظة اليهود التي تقتات بيقظة الاستبداد المكين. على الرغم من هذا كله، فإن عازوري يكتب عن «يقظة الأمة العربية «متوسلاً أكثر من طريق: الجهر بالحق، بلغة إدوارد سعيد المتأخرة، التي تعلن عن حق الإنسان في وجود إنساني: بعيداً من السكن المنتن والطعام الخبيث، وتذكير العرب بماضيهم وبصفاتهم. مع ذلك فإن عازوري يضيف إلى حكايات الشرف العربي أمراً أكثر وضوحاً وتحديداً حين يقول: «ظاهرتان هامتان، لهما نفس الطبيعة بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن تتوضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية أعني: يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع، مصير هاتين الحركتين هو أن تتعارضا باستمرار حتى تنتصر إحداهن على الأخرى...». الحق والخطر الصهيوني ومجد العرب التليد وامتهان قبضة من الأتراك» لاثنيّ عشر مليوناً من العرب، كل هذا يدرجه عازوري في خطاب تحريضي، متطلعاً إلى يقظة العرب، ومؤمناً بأن شعباً حيل بينه وبين الحق في الحياة عليه أن يثور، وأن عليه أن يواجه يقظة الاستبداد بيقظة مغايرة تقوّض أركان الاستبداد)[31].

وعلى الرغم من محدودية تأثير نجيب عازوري على الفكر القومي العربي الذي بدأ ينتشر منذ ثلاثينيات القرن العشرين، إلا أن قيمته التاريخية كبيرة جداً نظراً لتنبئه غير العادي بالصراع العربي الصهيوني وتشخيصه لهذا الصراع بشكل لم يسبقه إليه أحد، ولكنه مع ذلك كان أسير الفكرة الرومانسية ليقظة الأمة العربية من سباتها، وكان موهوماً بدور أوروبي تحريري وخصوصاً إيمانه برسالة فرنسا التي كان يراها الدولة الوحيدة المؤهلة لتحرير العرب، وقد أعمته نظرته هذه عن حقيقة الدور الاستعماري الفرنسي وجعلته ينظر إلى استعمار الجزائر كوسيلة لتخليص المتوسط من القراصنة، ولا غرابة في ذلك فعازوري تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي والجامعي في المدارس والجامعات الفرنسية التي كانت تسوغ جميع السياسات الفرنسية منذ الحروب الصليبية وحتى غزو الجزائر، وتعطيها مسحة رومنسية ذات أخلاق فروسية!![32].

[31] - مقال للدكتور فيصل دراج زودنا به بشكل مباشر.

[32] - راجع فصل السياسية الفرنسية في يقظة الأمة العربية ص 99- 115.

صفة فلسطين

تمهيد

إن ظاهرتين هامتين متشابهتي الطبيعة بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية أعني يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع. ومصير هاتين الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم بأجمعه..

الشعوب القديمة في فلسطين

فلسطين، كما يريد اليهود المعاصرون إعادة بنائها أكثر اتساعاً من التي امتلكوها في مختلف مراحل وجودهم التاريخي. لم يستطع اليهود احتلال الحدود الطبيعية للبلاد، لا في زمن يشوع ولا في ظل مملكة داود وسليمان، كي يصدوا الغزاة والفاتحين. حتى في عهد هذين الملكين، لم تأو فلسطين في حضنها شعباً واحداً فقط يحكي اللغة ذاتها وله الأصول نفسها وكان يمارس العبادة نفسها والعادات نفسها؛ لأن اليهود لم يستطيعوا أن يبيدوا ويستعبدوا مختلف الأمم التي كانت تقطن وادي الأردن وأرض كنعان. كان الفلسطينيون يحتلون السهل الممتد من نهر العوجا حتى غزة، وكان العمالقة والآدميون[33] والمدينيون يعيشون في الهضبة الخصبة المحصورة بين غزة وبئر السبع والطرف الجنوبي للبحر الميت وبرزخ سيناء.

وكان الآدوميم[34] والآموريون والحوييون يحتلون هضبة شرق الأردن الكبيرة من قمة

---

(33) - الآدوميون نسبة إلى أدوم كما ورد في الكتاب المقدس، سفر يشوع الفضل الخامس عشر صفحة 386 تعريب للفظة Les Edomites.

(34) - آدوميم تعريب للفظة Iduméens.

حرمون حتى صحراء سيناء. وزرع الكنعانيون كل السهل الساحلي للبحر الأبيض المتوسط، من نهر العوجا حتى نهر الليطاني في الشمال بالإضافة إلى الجزء الأفضل من سهل مرج ابن عامر. لم يتمكن الإسرائيليون من استيعاب هذه الأقوام، ولا من العيش معها بسلام لكنهم كانوا دائماً في حذر حيناً من البعض وحيناً من الآخرين، إن الإثنتي عشرة قبيلة إسرائيلية مجتمعة لم تكن أكثر عدداً من أي قوم في الوسط الذي كانت تقيم فيه.

وكل واحد من هذه الشعوب الكنعانية أخضع اليهود بدوره لسيطرته؛ في الواقع إن عدم نجاح اليهود في استيعاب مختلف هذه الأمم، وعدم قدرة هؤلاء الناس على احتواء اليهود يبرهن على أنها كلها كانت على قدم المساواة في الحضارة. وهكذا إذا وضعنا القضية الدينية جانباً ليس اليهود بالنسبة للمؤرخ أهم من أي قبيلة بدوية كالعمالقة أو المؤابين مثلاً.

الحدود الطبيعية للبلاد

في الأساس لم يمتلك اليهود من فلسطين سوى الضفة الغربية لنهر الأردن وسلسلة الجبال الممتدة غرب هذا النهر من الخليل حتى بحيرة الحولة. إلا أن الكتاب المقدس يظهر لنا اختلاط اليهود بالكنعانيين بنسب مرتفعة في هذا الجزء من البلاد.

إذا كانت فلسطين مفتوحة من كل الجهات للغزوات الأجنبية: من الشمال كان باستطاعة الغزاة أن يدخلوها من وادي نهر الأردن أو من ساحل البحر الأبيض المتوسط؛ لأنه، من الجهتين كانوا متأكدين من وجود حلفاء لهم من أهل البلاد يكرهون اليهود. ولم يكن على الجيوش الجنوبية إلا أن تقوم بحملة ضد إسرائيل لتحصل حالاً على المساعدات الضرورية لاجتياز الصحراء. هذه الأوضاع تفسر جيداً الغزوات المعتادة لفلسطين من قبل المصريين والسوريين والآشوريين من جهة الشرق، كانت تتداول مختلف أقوام هضبة شرق الأردن فيما بينها أحياناً لتقوم بغارات ضد شعب إسرائيل، ولكن هؤلاء السلاب لم يكن خطرهم كبيراً جداً بسبب الخلافات التي كانت تفرقهم والحواجز الطبيعية التي كانت تفصلهم عن اليهود، نعني بها الأردن وبحر الميت وعلاوة على ذلك كان لليهود طليعة حرس مؤلفة من قبائل رؤوبين وجاد ومنسي التي استقرت على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

من الممكن أنه لو عرف اليهود كيف يحتوون كل الأقوام الكنعانية، ويبسطون حدودهم حتى قمة حرمون ووادي الليطاني ويقيمون طليعة حرس تحتل كيليكيا حتى

حدود صيدون، ولو كان الفساد والتنافر في الداخل أقل، والصدق والحكمة في علاقاتهم مع جيرانهم في الشمال والجنوب أكثر، لأوجدوا مملكة مستقلة حتى الوقت الحاضر ولمنعوا بزوغ فجر المسيحية نفسها.

ميدان عمل الصهاينة

أدرك يهود عصرنا أخطاء أجدادهم تماماً، لذا يسعون بأناة لتجنبها أثناء إعادة بناء ما يسمونه وطنهم القديم باستيلائهم على الجزء الذي لم يستطع أسلافهم امتلاكه وباحتلالهم التخوم الطبيعية للبلاد قبل كل شيء، هاتان نقطتان هامتان في ميدان عمل الصهاينة.

إن الحدود الطبيعية بالنسبة إليهم هي، جبل حرمون الذي يحوي منبع نهر الأردن ووادي الليطاني في الشمال، بالإضافة إلى المنطقة المحصورة بين راشيا وصيدا كطليعة حراسة، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء في الجنوب، والصحراء العربية في الشرق، والبحر الأبيض المتوسط في الغرب. إن فلسطين المؤسسة هكذا تصبح بلاداً لا تؤخذ من أيدي شعب يعرف كيف يدافع عنها. يحيط النظر من قمة جبل حرمون بامتدادات شاسعة يشرف عليها بكاملها من القدس حتى سهول الفرات ومن البحر الأبيض المتوسط حتى ضبة نجد. بتحصين سفوح هذا الجبل يصبح النفاذ إلى وادي الأردن مستحيلاً. يكفي للدفاع عن ممر وادي الليطاني الضيق الشديد الانحدار، بعض الحصون القائمة على قمم الجبال الأكثر ارتفاعاً في بلاد بشارة[35]؛ وتشرف الرؤوس الثالثة: الكرمل والناقورة والأبيض على البحر ابتداء من بيروت حتى أبعد من يافا، بينما الشاطئ الذي يمتد بين غزة وبور سعيد صخري ومرمل ومعرض لجميع الرياح ومنفذه خطر جداً.

في الجنوب، تشكل قناة السويس وصحراء العريش حاجزاً خطراً ضد اجتياحات مصر، وفي الوقت نفسه يتحكم جبل سيناء بشمال البحر الأحمر. وفي الشرق تشكل الصحراء العربية مسافة لا يستهان بها بين القبائل البدوية المحاربة في نجد والهضبة في بلاد المؤابين والأموريين. إن مساحة فلسطين الممتدة ضمن هذه الحدود تبلغ حوالي خمسين ألفاً من الكيلومترات المربعة تقريباً.

---

(35) - ورد في كتاب «تاريخ جبل عامل» ص28، تأليف محمود جابر آل صفا «قيل نسبة إلى بشارة بن مقبل القحطاني» وقيل أنه الأمير حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن أحمد بن سلامة العاملي ابن فتحون وورد في كتاب «للبحث عن تاريخنا في لبنان، تأليف علي الزين: ص204» أما أبرز الزعماء اللبنانيين في عهد المماليك، فهم بنو صبح وبنو بشارة زعماء العشيرة في القرن الرابع عشر.

لدرس جغرافيا هذه البلاد بسهولة أكثر نقسمها قسمين متساويين تقريباً: شرق الأردن وغرب الأردن يفصلهما عن بعضهما من طرف لآخر، ومن الشمال إلى الجنوب وادي نهر الأردن الذي يجري بخط مستقيم من سفح جبل حرمون حتى الطرف الجنوبي للبحر الميت، ومن هناك يمتد باسم وادي عربة حتى خليج العقبة.

شرق الأردن

ليس شرق الأردن كله سوى هضبة عالية رائعة متوسط ارتفاعها ثماني مئة وخمسون متراً، تمتد من سفح جبل حرمون حتى البحر الأحمر ومن نهر الأردن حتى الصحراء العربية. وهي تتجه نحو الشرق والجنوب وتنحدر ببطء نحو الصحراء والبحر الأحمر بينما تنتهي الثلاث الأكثر علواً نحو 2875م. وترتفع إلى الشمال الشرقي عند تخوم الصحراء وبمواجهة حرمون المرتفعات البركانية لحوران التي يبلغ ارتفاع بعض قممها 1600م، منها 800م فوق سطح الهضبة.

والى الغرب تدعم هذه الهضبة المرتفعة سلسلة جبال مؤاب التي تنفصل عن حرمون وتنبسط من الشمال إلى الجنوب حتى خليج العقبة حيث تعود لتتصل بمرتفعات سيناء محاذية ساحل البحر . ليس في هذه السلسلة سوى عدد قليل من القمم التي ترتفع ارتفاعا بسيطاً عن الهضبة التي تنهض فوقها.

غرب الأردن

تتخلل غربي الأردن من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال تتجه لتتصل بمرتفعات سيناء. بعد وادي الليطاني، ينتصب جبل لبنان من جديد ليتابع سيرة نحو الجنوب، تقاطعه أودية خصبة زاهية حتى مرج ابن عامر حيث يتوقف. في الماضي كان هذا القسم يدعى الجليل الأعلى. أما اليوم فيعرف باسم بلاد بشارة إن سهل مرج ابن عامر هضبة رائعة مستوية تبرز في وسطها ثلاث مرتفعات صغيرة وديعة منعزلة وهي جبل تابور وجبل حرمون الصغير وجبال جلبوع. بعد هذا الانقطاع تنبعث سلسلة الجليل الأعلى إلى الجنوب من مرج ابن عامر وتتابع انبساطها حتى الطرف الجنوبي للبحر الميت حيث تفسح في المجال لسهل واسع، وبعد ذلك تظهر بشكل تلال صغيرة محيطة بالضفة الغربية لوادي عربة لتتصل بجبال مؤاب عند خليج إيلات، ومن ثمة تسير مجتمعة لتلتحم بمرتفعات سيناء وتمتد سلسلة الجبال هذه من الشمال قرب

جنين نحو الشمال الغربي لتنتهي في البحر مشكلة رأس الكرمل الذي يحمي بشكل رائع مرفأ حيفا الطبيعي من جهة الأردن، يتجاوز ارتفاع بعض قممها القليلة ألف متر ولا يكاد يبلغ معدل ارتفاع السلسلة 750م.

ينتهي اللحف الشرقي لسلسلة الضفة الغربية فجأة بمنحدر شديد بينما يتناهى ببطء من جهة البحر الأبيض المتوسط حتى السهل الساحلي الخصب الجميل ذاك الذي يمتد من الليطاني حتى وادي رفح.

ينبسط الساحل بخط مستقيم من الشمال إلى الجنوب ابتداء من مصب نهر الليطاني حتى غزة حيث يميل نحو الغرب ويتابع انبساطه ليشكل نصف دائرة في بور سعيد.

وهنالك بين قسمي فلسطين اللذين وصفناهما، واد كبير يتراوح عرضه بين 15 و25 كلم يجري في وسطه نهر الأردن. إن هذا الوادي فريد في العالم بسبب الاختلافات الهائلة في مستوى ارتفاعه على طول مجراه؛ فهو تارة يرتفع فوق سطح البحر وطوراً ينخفض عنه. ويبلغ ارتفاعه 500م عندما يخرج هذا النهر من خانق حرمون ويبلغ 43م عند ملتقى نهر بانياس بنهر الأردن ولا يبلغ سوى مترين عند بحيرة الحولة وينخفض فجأة إلى 256 متراً تحت سطح البحر عند طبريا وإلى 375م عند جرش وإلى 400م عند البحر الميت. ثم يعود إلى 360م عند مدخل وادي عربة ويستمر في الارتفاع بانحدار خفيف ليصل إلى مترين عند خليج إيلات. ويبلغ طوله من منابع نهر الأردن إلى العقبة 430 كلم. إن نهر الأردن هو مجرى الماء الأكثر أهمية في فلسطين، فهو الذي يشكل ثلاث بحيرات أثناء مجراه ويبلغ طوله الكلي 250 كلم من منبعه حتى مصبه في البحر الميت. يخرج هذا النهر من قصر عنتر في حرمون على ارتفاع 2860م ويجري أولاً من الشرق إلى الغرب في أخاديد ثم يميل نحو الشمال ليتبع خطاً مستقيماً متجهاً من الشمال إلى الجنوب لا يتخلى عنه قبل أن يشكل بحيرة الحولة، يتلقى نهر الأردن من جهة اليمين بعض الأنهار القليلة الأهمية بينما يحمل إليه من الجهة اليسرى نهر بانياس مياه نهرين ضخمين هما نهرا العسل واللّدان. يتلقى الأردن أيضاً، من بحيرة الحولة حتى البحر الميت عدداً من الأنهار الصغيرة أهمها اليرموك والزرقا ووادي شعيب وواد حسبان.

يتلقى النهر أيضاً، من الجهة اليسرى: وادي الزرقا، وماعين، ووادي الموجب (قديماً أرنون) ووادي الكرك. ومن الجهة اليمنى يتلقى نهر الأردن عدداً من الأنهار الصغيرة من بينها يمكن أن نشير إلى وادي الشرار ووادي الفرا ووادي الخلد.

نهر الليطاني

إن النهر الأكثر أهمية بعد الأردن في فلسطين هو نهر الليطاني الذي ينبع من سوريا الداخلية عند سفح جبل لبنان يجري أولاً من الشمال إلى الجنوب على موازاة نهر الأردن ثم يميل فجأة إلى اليمين لكي يتخذ اتجاهاً من الشرق إلى الغرب ويصب في البحر على بعد بضعة كيلو مترات إلى الشمال من صور ويفصل واديه الضيق والسريع الانحدار بين جبل لبنان وجبال الجليل الأعلى.

نهر النعامين والمقطع :

إن مجاري المياه الأخرى في فلسطين هي: نهر النعامين الذي ينحدر من جبال الجليل الأعلى ويسقي سهل عكا الجميل، ثم نهر المقطع الذي ينبع من سفح جبل تابور ويقطع سهل مرج ابن عامر ويصب في جون حيفا. ثم أنهر الزرقا وأبو زابور والفلايق والعوجا وروبين التي تسقي كلها السهل الساحلي وتصب في البحر الأبيض المتوسط.

الينابيع المعدنية الحارة

تشبه فلسطين سويسرا كثيراً بعدد بحيراتها المتفردة بتفاوت ارتفاعاتها عن سطح البحر.

ينخفض البحر الميت إلى 400م تحت مستوى سطح البحر ويبلغ طوله 55كلم وعرضه 14كلم وعمقه 250م. تنخفض بحيرة طبريا إلى 256م تحت مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط وطولها 18 كلم وعرضها 11كلم وعمقها 55م. ترتفع بحيرة الحولة الصغير مترين فوق سطح البحر. البحيرات الثلاث في هضبة شرق الأردن التي ترتفع 600م هي: ماتك البراكن وبحر البعلة، وبحيرة الهيجانة؛ وتتغذى البحيرات الثلاث بأنهار دائمة تنحدر من حرمون وحوران.

يمكن اعتبار وادي الأردن رغم ضيقه البلد الأغنى بالينابيع المعدنية والحارة. يوجد في وادي الزرقا ـ ماعين عشرة ينابيع كبريتية فقط، تنفجر بغزارة من الأرض بحرارة +70 درجة مئوية. أطلق عليها اسم حمامات منذ زمن هيرود الكبير، اشتهرت بعلاج الروماتيزم والأمراض الجلدية. توجد ينابيع الحمة الثمانية الكبريتية والحديدية إلى الجنوب من طبريا وعلى ضفافها، حاوية ملح المانيزيا وتخرج من الأرض بحرارة تتراوح بين +65 و70 استعملت لمعالجة الروماتيزم والأمراض الجلدية ووهن الجسم.

يوجد أيضاً إلى الشمال من طبريا في طابغة سبعة ينابيع كبريتية حرارتها +32 درجة وفي غديره إلى الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية عدة ينابيع كبريتية درجة حرارتها 65 درجة مئوية. ويوجد أيضاً على اليرموك ثلاثة ينابيع كانت معروفة جيداً من قبل الرومان؛ ونرى النبع الفاتر الكبريتي لعين فاسقة +30 درجة؛ ومياه عين جدي الفاترة الكلسية على 27 درجة. ويوجد أيضاً عدة ينابيع أخرى إلى الجنوب من البحر الميت في وادي عربة. وكذلك نجد منها عدداً كبيراً في حوران.

أخيراً ليس البحر الميت نفسه سوى حوض واسع من المياه المعدنية والحارة. إذ أنها تحتوي على ملح المانيزيا والكلس والصودا والبوطاس الذائعة الصيت لمعالجة الأمراض الجلدية؛ ومن جهة ثانية تحتفظ حتى في أوج الشتاء بحرارة كافية يمكن الاستحمام فيها.

الثروات المعدنية

تمتلك فلسطين أيضاً ثروات معدنية لا يستهان بها فضلاً عن أنها لم تستخرج حتى الآن. يوجد فيها من الحجارة الكريمة: الياقوت، والفيروز، والعقيق. وتوجد مناجم للفحم الحجري على شواطئ البحر الميت وفي جبال مؤاب، وفي عجلون وحوران، ومناجم ملح لا تنفد في جبل سدوم وعلى شواطئ البحر الميت. والنحاس في جبال مؤاب وسيناء. والحديد في عجلون وحوران. والرخام الجميل الأصفر والأحمر في جبال مؤاب وحوران والقار بالقرب من صور وعكا بكميات كبيرة في حاصبيا وعلى شواطئ البحر الميت. ويوجد أيضاً على شواطئ هذا البحر ملح البروم والكبريت والفوسفور. توجد ينابيع بترول في عجلون وعلى شواطئ هذا البحر ملح البروم والكبريت والفوسفور. توجد ينابيع بترول في عجلون وعلى شواطئ البحر الميت. يوجد رمل ممتاز لصناعة الزجاج في الخليل وعلى ضفاف نهر النعامين، كما نصادف على ضفاف نهر المقطع صدف الموركس وهو نوع من الحلزون الذي كان يوفر في الغابر قاعدة الصباغ الأرجواني الفينيقي.

الوضع الراهن :

لا شيء أكثر صحة من قول مونتسكيو: «عندما يريد متوحشو لويزيان قطف أثمار يقطعون الشجرة من جذعها ويقطفون أثمارها، وهكذا تفعل الحكومة المستبدة». إذا أراد أحد درس تأثيرات حكومة عمياء بربرية على بلاد غنية، أنصحه بالتجول في فلسطين وسورية والعراق، وإذا أراد أحد أن يتحقق من الأثر الأخلاقي السيئ لهذه الحكومة نفسها

على شعب كبير ذكي نشيط، فإنني أقول له: اقرأ تاريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين وبعد ذلك العرب المعاصرين في ظل الحكم التركي. إن فلسطين بلاد زراعية من الطراز الأول، لأن تربتها عجيبة الخصوبة ومنتوجاتها ممتازة النوع يمكن بسهولة استصلاح ثمانية أعشار مساحة فلسطين الكلية. ولا يكاد يزرع منها سوى عشر واحد. إن شرق الأردن بائر أجرد، لا يسكن هذه الهضبة العجيبة سوى مائة ألف نسمة، وهي التي كانت تمون المدن الكبرى الثلاث: البتراء وجرش وعمان في زمن الرومان. يجب أن نحذف منها خمسين ألفاً في حوران لأن الدروز الذين يسكنون هذه الجبال ظلوا مستقلين تقريباً عن الأتراك، يزرعون بلادهم جيداً بما فيه الكفاية. وفي الواقع ينتج الدروز وحدهم سنوياً مائة وستين ألف طن من القمح ومائة وسبعين ألف طن من الشعير وتسع وثمانين ومائة ألف طن من الذرة وخمساً وتسعين ألف طن من الحبوب الأخرى تمثل بمجموعها أربعةً وثمانين مليون فرنك وما يتبقى من هضبة شرق الأردن البالغ أربعة أضعاف حوران والذي لا يقل خصوبة عنه لا ينتج ربع هذا الرقم. أما بقية المنتوجات الأخرى لهذا الجزء من فلسطين فقوامها حبوب الدخن والترمس والسمسم والفول والعدس والكروم الممتازة.

حوران ووادي الأردن :

إن خصوبة وادي الأردن عجيبة ومناخه أشد حرارة من الدلتا المصرية، والنهر الذي يرويه أكثر غريناً من النيل، ويمكن أن يعطي ثلاثة محاصيل في السنة، وتنمو فيه الزراعات الأكثر إنتاجية مثل اللوز والقطن والبن وقصب السكر بشكل مدهش، ومع ذلك قطعت هذه الناحية العجيبة من الشمال إلى الجنوب، من دون أن أصادف قرية واحدة آهلة، ولا نصف هكتار مفلوحاً، حتى ولا متراً واحد مروياً. الكل صحراء. تجري مياه نهر الأردن الساكن الحزين المخصب دون فائدة نحو البحر الميت. هذه هي اللوحة الأكثر تعبيراً عن الدمار الذي أحدثته الحكومة التركية في البلاد التي لا زالت خاضعة لها حتى الآن.

المدن العشر[36]:

يمتدح المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس[37] كثيراً خصوبة هذا الجزء من فلسطين المهمل تماماً في يومنا الحاضر. لقد كانت ترتفع حول بحيرة طبريا عشر مدن كثيرة

---

(36) - تطلق على مجموعة مدن عشر في كل من فلسطين وإيطاليا.

(37) - مؤرخ يهودي (37 . 95م) كتب عن تاريخ اليهود في القديم

الخيرات وكانت تمخرها في كل الاتجاهات أساطيل الباعة والصيادين التي لا تحصى سفنها. زرت هذه البحيرة الجميلة في شباط الأخير من سنة 1904 عدا مدينة طبريا الآهلة باليهود فلم أجد أي مزرعة على شواطئها الرائعة ويستعمل السائحون أربعة أو خمسة مراكب بائسة حلت محل الأساطيل في غابر الزمن.

يمتلك السلطان كل وادي الأردن وهو لا يريد استصلاحه ولا تأجيره، ولا بيعه. وسنقول فيما بعد، كيف تملك عبد الحميد هذه الأراضي. وإتماماً للمعنى، نضيف أن نهر الأردن وبحيرة طبريا كثيرا السمك ويتراوح وزن السمكة التي تصطاد غالباً بين 25 و30 كلغ. وتقدم سلسلة جبال غربي الأردن المثل على الجرود القفراء إذ ينقب الحطابون بطن الأرض ليجدوا الحطب وينتزعوا جذور الأشجار التي كانت تؤلف في الماضي الغابات وتختفي تحت ضربات فؤوس الفلاحين المعوزين يوماً فيوماً بعض أشجار الزيتون التي مازلنا نصادفها حول المزارع الفقير. يعلمنا الكتاب المقدس أن ستين مدينة قامت في سهل مرج ابن عامر حيث لا نكاد نجد اليوم سوى خمس وعشرين قرية. وتضيع في البحر كل الجداول والأنهار التي تجري في السهل الساحلي من نهر الليطاني وانتهاء بصحراء العريش من دون فائدة ومن دون أن تسقي هكتاراً واحداً من الأرض، لهذا السبب يزرع عشر الأراضي فقط من هذا السهل.

الصناعات المحلية

يعطي غرب الأردن المحاصيل ذاتها التي يعطيها الجانب الآخر من النهر تقريباً، على الرغم من أن الأشجار والنباتات الخاصة بالبلدان الحارة تنمو في شرق الأردن مثل الزيتون والبرتقال والحامض وقصب السكر، والأثمار من بطيخ وشمام كما توجد في الجزء الغربي من فلسطين بعض الصناعات الصغيرة التي لم تستطع تركيا أن تخنقها تماماً. لقد عرف صابون نابلس واللد وغزة والرملة إلخ.. في كل الشرق. وتبلغ قيمة الصادرات من هذه السلعة ثلاثة ملايين في السنة. ويمون أيضاً زجاج الخليل سوريا وقسماً من مصر على الرغم من المنافسة الأجنبية. وتصنع غزة والمجدل الحبال والأواني الفخارية. وبالرغم من كل هذا فإن الصادرات الزراعية والصناعية لغرب الأردن من المرافئ الأربعة: صور وحيفا ويافا وغزة لا تبلغ عشرة ملايين. نحن بعيدون جداً عن الأربعة والثمانين مليوناً التي تنتجها حوران. إلا أن إنتاج القبائل البدوية في هضبة بئر السبع والتي تعيش في شبه حالة استقلال، يبلغ وحده ثمانين ألف طن من الشعير وستين ألف طن من القمح

وأربعين ألف طن من الذرة وخمسين ألف طن من الحبوب الأخرى تساوي قيمتها جميعاً ثلاثين مليون من الفرنكات بالرغم من أن البلاد التي تسكنها هي أصغر بكثير من السهل الساحلي. وهكذا فإن هضبتي بئر السبع وحوران تغلان عشرة أضعاف ما يغله القسم الباقي من فلسطين لا لشيء إلا لأنهما شبه مستقلتين. من هنا نستطيع أن نصوغ المسلمة التالية: بقدر ما يخضع شعب للأتراك يشتد فقره وتقحل أرضه، وبالعكس من ذلك بقدر ما يستقل شعب يغني ويزدهر.

إحصائيات

إذا لم نعول إلا على سكان الريف، فليست الضفة الغربية أكثر سكاناً من الجزء الآخر من فلسطين بالرغم من كبر مساحتها وكثرة مجاري المياه التي تخترقها، وموقعها الجغرافي المتميز على البحر الأبيض المتوسط. لا يتعدى عدد الريفيين، من الليطاني حتى هضبة بئر السبع، مائة ألف نسمة مطلقاً. وإذا أضيف إليهم سكان المدن في الخليل وغزة ويافا والقدس ونابلس وحيفا وعكا وصور والناصرة وطبريا وصفد، يصل العدد إلى مائة وسبعين ألف نسمة ويجب إضافة ثلاثين ألف بدوي من الرحل في هضبة بئر السبع ليصبح العدد مئتي ألف نسمة. ولا نحصي ضمن هذا العدد اليهود الذين يبلغون مئتي ألفاً أيضاً، لأننا نعول على الذين يعيشون من الأرض فقط.

في عهد سليمان، كانت مدينة صور تأوي وحدها مليون إنسان، ويجب أن يتراوح عدد سكان كل من عكا وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة والقدس، استناداً إلى فلافيوس يوسف والمؤرخين العرب القدامى بين ثلاثين ألفاً وخمسين ألفاً. كان يوجد في فلسطين تحت سيطرة داود مليون وثلاثمائة ألف محارب يهودي استناداً إلى الكتاب المقدس. وحتى نضع النقاط على الحروف، يجب أن نعطي للآخرين من أبناء البلاد العدد نفسه، فيكون لدينا مليونان ونصف من الصالحين للخدمة العسكرية. إن تجنيد مليونين ونصف يرتكز على خمسة عشر مليوناً من المواطنين. هكذا، كانت فلسطين الممتدة ضمن الحدود الطبيعية التي وضعناها في أعلاه، توفر الغذاء لخمسة عشر مليوناً من البشر، يحكمهم ملوك وأمراء تحيط بهم بلاطات متألقة من العواصم الكبرى كالقدس وصور والبتراء وجرش ويعيشون بترف. أما اليوم فهي لا تكاد تكفي ثلاثمائة ألف بائس يعيشون حياة خاملة ويسكنون في أكواخ نتنة، لا يعرف لون ثيابهم تقريباً ولا يتناولون سوى وجبة طعام خبيثة واحدة في اليوم.

المعاصرون:

مع أن هؤلاء الثلاثمائة ألف تعيس يتكلمون لغة واحدة ولهم أصول واحدة وتقاليد تاريخية واحدة ويقطنون بلاداً واحدة ويرسفون في إغلال عبودية واحدة، على الرغم من هذا فهم بعيدون عن الاتفاق وأكثر بعد عن التفاهم. في الواقع من بين الثلاثمائة ألف نسمة يوجد خمسون ألفاً من الدروز وعشرة آلاف ماروني والباقي يتألف من المسلمين المغلوبين على أمرهم، كسكان المدن والفلاحين، ومن مسلمين لا مبالين وكالبدو الرحل الذين لا يعرفون أي شعائر دينية ولا ظاهرية ولا الصلاة الإسلامية.

كل معتنقي الأديان والمذاهب يتباغضون من دون أن يعرفوا لماذا؟ كل المقامات الدينية من بطرك ومطران وأسقف وأرشمندريت وخوارنة ومفتين.. إلخ إلخ.. يكره بعضهم بعضاً ويحثون الذين يطيعونهم على تقليدهم. وبسبب هذه الحالة، تضطهد عصابة من الأتراك والشركس تتراوح بين ماية وماية وخمسين، هؤلاء الثلاثمائة ألف مسكين من الناس، ويؤججون الخلاف فيما بينهم وبالتالي يحتقرونهم كلهم على السواء ويستغلونهم من دون رحمة. هذه هي حالة الشعب العربي في فلسطين وهي كذلك في بقية الولايات العربية في كل من سورية والعراق.

الأمن والعدالة في تركيا:

أما الحكومة التركية، إذا كان من الجائز أن يطلق هذا الاسم على جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم، فهي تكتفي فقط بألا تعمل شيئاً لتحسين وضع الفلاح، ولكنها تعمل بانتظام لتخريب هذا البلد التعيس تدريجياً. لا أمن ولا سلام ولا عدالة في تركيا. باستطاعتك أن تغتال أحدهم، فإذا ألقي القبض عليك يكفي أن «تدفع رشوة» حتى يطلق سراحك. مثلاً «إذا هربت من ناحية مجاورة فيرسلون الدرك للتفتيش عنك، ادفع لهم يتركوك آمناً ويقولوا أنهم لم يجدوك قط. وإذا طلبوك من ناحية التجأت إليها، يلعن (المسؤول) أنك لم تدخل أبداً إلى ناحيته إذا دفعت له. وإذا فاجأت لصاً متلبساً بجرمه ووضعته بين يدي السلطة، يرميه البوليس في السجن أمامك وحالما تخرج يتقاسم وإياه محصول أسلابه ويطلق سراحه. يتعهد اللص بتقديم مبلغ معين خلال الأسبوع إلى مختلف قطاع الطرق الذين يؤلفون «السلطة» لينعم بالسلام في طيب حمايتهم. هذا ما يحدث أيضاً مع قطاع الطرق الأخرى، ممتهني القتل والمهربين وناهبي البيوت والنصابين. وإذا أردت أن تثأر أو كان هناك رجل يزعجك، فما عليك إلا أن تشتري شاهدي زور يتهمانه

بأنه ارتكب جريمة قتل خيالية أو تكلم ضد السلطان. تملك السلطة المتعطشة دائماً لاستغلال الناس حق تبرئة هذا الرجل أو إدانته حسب ما يدفع أكثر أو أقل من خصمه. وفي حالة إطلاق سراحه سوف يكون هناك تعادل بين سجنه ومصاريفه دون أن يستطيع الاحتجاج على المفتري عليه.

الشرف والمصالح العامة

وهكذا في إمبراطورية السلطان، يتحكم الرجال الأقوياء والموظفون بالحياة والشرف والمنافع العامة جميعها في كل لحظة. أعرف أحد هؤلاء اللصوص، فهو ينشر الرعب في عشرين قرية من القرى المجاورة لقريته. ولا يحترم أياً من نساء أو فتيات الفلاحين التعساء الذين يرهبهم. لقد تبجح أمامي بأنه لم ينم أبداً لليلتين متتاليتين مع امرأة واحدة، يفعل هذا بموافقة الآباء والأزواج الذين يلزمهم بأن يرسلوا له بناتهم وزوجاتهم في يوم كذا وكذا. الويل للذي يجرؤ على الرفض فهو إما أن يقتل بالخفاء أو يرمى به في السجن بأي سبب وكما يحصل غالباً، تخطف امرأته بالقوة وعلاوة على ذلك يضرب من دون أن يستطيع تقديم شكوى. في يوم من الأيام تجرأ أحد هؤلاء التعساء على أن يرفض الخضوع لهذه الخسة. لكن منذ الصباح التالي ترك البلدة مع عائلته، لأنه رأى أنهم يريدون قتله، وأقام بعيداً تاركاً أراضيه التي استملكها رجل العصابة. تقدم بالشكوى التي جعلته يصرف كل ما تبقى معه كي يستمع إلى شكواه. ولكنه طرد وأمر بالسكوت لقد أردت إنصاف هذا الرجل المسكين ولكنني لم أنجح لأن مضطهده اشترى كل السلطات.

المظلومون :

يتوهم الأوروبيون عادة أنه لا يضطهد في تركيا سوى المسيحيين. إنهم على وهم، لأنه يساء إلى المسلمين أكثر من المسيحيين: يثور هؤلاء ضد المضايقات والتجاوزات لأنهم أوسع ثقافة من غيرهم وينادون لنجدتهم أوروبا المسيحية والمتمدنة، بينما لا يجرؤ المسلمون أبداً على رفع صوتهم لأنهم يعرفون جيداً بأن صرخاتهم لن تجلب لهم سوى الانتقام. إن مسلمي البلدان العربية خاصة لا يقلون عن المسيحيين شوقاً إلى الاستقلال في قرارة نفوسهم.

سأعود فيما بعد إلى هذا الموضوع وسأكتفي حالياً بتعداد بعض الحقائق التي تسند مزاعمي.

قتل ابن شيخ البدو في جوار مأدبا، منذ بضع سنوات، فلاحاً من تلك الناحية وألقي القبض عليه ونقل إلى القدس ليحاكم فيها. حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً ولكن أهله سارعوا بحمل عشرة آلاف فرنك، إلى بشارة حبيب ترجمان الحاكم، الذي احتفظ لنفسه بخمسة آلاف فرنك واستخدم الباقي لرشوة الموظفين والآخرين، حينئذ وقع طبيب البلدية تقريراً يثبت بأن المحكوم شديد الأوجاع يحتاج إلى عناية خاصة في أحد المصحات فنقل إلى مستشفى البلدية حيث كان يوجد هناك متوف أسلم الروح في الصباح التالي لدخول متمارضنا. في الليل أطلق سراح ابن شيخ البدو وأشيعت ضجة بأنه هو الذي توفي في المستشفى.

بسبب هذا الاستغلال يمتلك بشارة حبيب اليوم ثروة، تبلغ خمسة مائة ألف فرنك، يُعنى بإخفائها كيلا تلفت الانتباه، وهو المستخدم لقاء مائة فرنك شهرياً.

سعادة كاظم بك

ظهر، في آب وأيلول من عام 1902، وباء الكوليرا في مصر، فأجري الحجر الصحي لمدة اثني عشر يوماً على المسافرين القادمين من وادي النيل. وتقام في تلك الآونة سوق واسعة جداً تجمع قرابة مائة ألف إنسان، يضربون خيامهم في الصحراء في جوار يافا حول مرقد راؤوبين بن يعقوب.

يأتي المصريون كل عام، في مثل هذا العيد، بأعداد ضخمة سالكين طريق الصحراء عبر العريش وغزة، وبدل أن يمنع كاظم بك والي القدس السوق ويطبق القواعد الصحية تجاه المصريين فرض ضريبة تعسفية على الأشخاص والدواب من حمير وأحصنة وبغال وجمال وعلى البضائع ليتركها تمر دون الخضوع للحجر الصحي وللتطهير. لقد عاد هذا التدبير بمائتي ألف فرنك على سعادته وبمثلها على شركائه الذين أسهموا بأكثر وأقل في تحقيق هذا المردود وبعد هذه المناورة بأسبوع تفشت الكوليرا في فلسطين وسوريا واستمرت سنة كاملة وفتكت بعشرين ألف ضحية.

أثناء شيوع الوباء هذا، قدم كاظم بك إلى يافا لاتخاذ التدابير ضد الوباء هناك على حد زعمه فنظم لجنة لحث أفاضل الناس على التبرع بستين فرنك أو بخيمة لنجدة أهالي غزة الذين قاسوا الأمرين من الكوليرا. جمعت هذه اللجنة ألفي فرنك من الذهب ومائة خيمة احتفظ كاظم بك بالألفي فرنك وأرسل المائة خيمة إلى حاكم غزة الذي باع الواحدة بمائتي فرنك لأنها كانت مطلوبة جداً من قبل سكان هذه المنطقة الذين هربوا من

المدينة وذهبوا للإقامة على شاطئ البحر. أتى هذا البيع بربح يقدر بعشرين ألف فرنك وهكذا يكون كاظم بك قد قبض اثنين وعشرين ألف فرنك دفعة واحدة.

إذا اشتريت قطعة أرض في تركيا، تعطى سند ملكية رسمي. بعد أسبوع تقريباً، يحضر آخر مع سند ملكية رسمي وشرعي مماثل للذي معك. وسينازعك في حقوقك بالأرض التي دفعت ثمنها ومن الطبيعي أنك ستشكو للسلطة التي لا تستمع لكما إلا لتستثمركما وسيعطى الحق لصاحب أكبر عرض. لقد خلق كاظم بك مورداً كبيراً لدخوله بالتسويف اللامتناهي. وهناك دعويان من هذا النوع في يافا، منذ ثلاث سنوات واحدة بين السيد أمين ناصيف والشيخ أبو رباح والثانية بين السيد طاسو والسيد ميال.

شرف الخليفة التركي :

في أحد الأيام من سنة 1903م أراد بعض اليهود أن يثأر من شاب مسلم اتهموه بإهانة السلطان. وسطوا بضعة سحاتيت[38] فتوصلوا إلى ما يريدون مدعين بأنهم استرقوا السمع إليه فسجن. توسل أبو التعيس إليّ بواسطة أصدقاء يستخدمونه، فقبلت بأن أهتم بابنه. قمت بمسعى لصالحه لدى قاضي التحقيق ورجوته أن لا يعير هذا الافتراء المضحك اهتماما. أجابني قاضي التحقيق بتهذيب أنه يأسف لعدم استطاعته إدخاله السرور إلى قلبه «قال لي: أهان هذا الرجل جلالته العليا ولا أستطيع أن أظهر بمظهر اللامبالي عندما يتعلق الأمر بشرف الخليفة وإلا لسوف يكون سجلي أسود. أنت نفسك موظف وتعرف كم تعير حكومتنا من الاهتمام لهذه الحوادث الصغيرة». حيال هذا الجرم لم أكن لأستطيع أن أقول شيئاً. نصحت والد الشاب المسكين أن يجد وساطة ويقدم المال لقاضي التحقيق. ما إن بعثت إليه بخمسين فرنك بواسطة رجل لا أريد تسميته حتى أطلق سراح الابن في اليوم التالي.

في كانون الأول من سنة 1900 ب. م. عدت من القاهرة إلى القدس وبما أنه يلزم القادمين من مصر يومان للمراقبة الصحية، أقلنا المركب إلى بيروت ليخضع لها هناك. وبينما كنا في الحجر الصحي خارج المرفأ كلف حارسان بمراقبتنا لمنعنا من الاحتكاك بأهل المدينة. كان موظفا الصحة يحملان في عنقيهما لوحة نحاسية كبيرة يقرأ عليها بالتركية والفرنسية (حارس صحي) وكان قد سلح كل منهما بمسدس ملقم وسيف كبير كانا يذرعان المركب ذهاباً وإياباً. في أحد الأيام طلبت بهدوء إلى رئيسهما :

[38] - أي رشوا القاضي ببضعة سحاتيت، والسحتوت أصغر قطع العملة قيمة في زمن العثمانيين

ماذا سيحصل لي إذا حاولت الهرب؟

قال: سأطلق النار عليك وسأقتلك ولي الحق في ذلك.

أجبت: وإذا أعطيتك عشرين فرنكاً؟

أجاب: عندئذ سوف أتركك تخرج

صرخت: والآخران؟

أعلن بصراحة: كلنا متفقون.

العشور في تركيا[39]

أخيراً، في كانون الأول سنة 1903ب. م وفي كانون الثاني وشباط سنة 1904ب. م تفشى في فلسطين مرض معد شديد، فنفقت كل الماشية ولم يبق حيوان واحد للحراثة، وبدل مكافحة هذا الوباء فرضت الحكومة التركية ضريبة جديدة هي أربعة فرنكات على الرأس الواحد من جميع الحيوانات الأليفة. حصَّل الجباة ضعفي هذه الضريبة بالرغم من الكوليرا والقحط اللذين اجتاحا البلاد من قبل. كانت الضرائب في تركيا منذ القديم باهظة يضخمها الموظفون كثيراً ويجبونها مضاعفة ست مرات. تُضَمِّن الحكومة في كل سنة ضريبة عشور القرى إلى مزارعين محترفين في الأصل لا يجب أن يفرض هؤلاء إلا العشر في المحاصيل التي اشتروا عشورها، ولكن لتحصيل العشور يضطر هؤلاء إلى إفساد مختلف الموظفين، والمبالغ التي يصرفونها لهذه الغاية هي أضخم من الإنتاج الكلي لضريبة العشور. يذهب الجباة إلى الريف بحماية الدرك الذي أمروا بمديد المعونة إليهم فيخطفون من الفلاحين التعساء ثمانية أعشار محصولهم بعد أن يسوموهم كل أنواع العذاب مع نسائهم وبناتهم وإذا تجرأ هؤلاء الناس المساكين على الشكوى لا يصغى إليهم، وإن ألحوا يزجون في السجن ولا يستطيعون الخروج إلا بعد دفع الغرامة.

في هذه الظروف لا يزرع الفلاح ويحصد إلا ما يكفيه للمحافظة على رمقه والله يعلم مقدار جلده والنتيجة هي إقفار البلاد وخرابها وسواء أثمرت الأشجار أم لم تثمر فتقدير الضريبة واحد ويجبر المالك على دفعها كما لو كانت المواسم مقبلة. لهذا يقطع الفلاح الشجرة ليتخلص من هذه العبودية.

[39] - ورد في كتاب النظم الإسلامية نشأتها وتطورها للدكتور صبحي الصالح ص368 في تعريفه للعشور ما يلي: (تؤخذ في الإسلام على أنها ضرائب على بضائع التجار فتؤخذ العشر من بضائع التجار الكافرين إذا قدموا بها من دار الحرب إلى دار الإسلام ورخص لهم بذلك ولا يزيد الأخذ من مرة خلال السنة)

يوجد في تركيا، ضريبة خاصة على الماعز والخراف. يدفع الفلاح هذه الأتاوة في المقاطعة التي يسكن فيها عندما تمر قطعانه بعد ذلك في المقاطعة المجاورة سعياً وراء الكلأ. يطلب جباة الضرائب منه هناك الأتاوة وذلك، لأنه في المرة الأولى لم يكن قد أعطي وصلاً وإن أعطيه فهو مزور، وهذا سهل فالفلاح الذي كبل بالعبودية ردحاً من الزمن لا يعرف القراءة والكتابة على كل حال، إنه يجبر على الدفع ثانية حتى لو كان يحمل إفادة حسب القانون وينفذ التعيس ذلك ولا يجرؤ على الشكوى كي يتجنب ثأر ظالميه.

الرشوة والسرقة :

إذا قدم فلاح أو أي فرد آخر عريضة تتعلق بموضوع مدني أو إداري أو قضائي تقضي أوامر الوالي أو حاجب المحكمة بأن يطلب إليه دفع أربعين أو خمسين وربما مائة فرنك. ولكي يسمح له بتقديم هذا المستند للوالي أو لرئيس المحكمة يتطلب هؤلاء بدورهم مائتين أو خمسماية وربما ألف فرنك أو أكثر حسب الحالة، يدفع هذه المبالغ لإتمام المعاملة. كذلك بالنسبة للموظفين الآخرين الذين مر هذا المستند في أيديهم، لا يرفضون فقط أن يفعلوا شيئاً ولكن يهددون أيضاً بتمزيق المستند إذا لم «يدفع» لهم. على هذا النحو تصبح تكاليف العدالة والإدارة في تركيا مرتفعة جداً أو أكثر مما هي عليه من أي مكان آخر. هو ذا الأسلوب في جميع إدارات الدولة: لستم آمنين على رسائلكم وحوالاتكم في البريد ولا على بضائعكم في الجمرك. لهذا السبب نرى موظفين يتقاضون ثمانين أو مائة فرنك في الشهر يحيون حياة ترف تكلفهم اثني عشر ألف فرنك في السنة، ويجمعون خلال بضع سنوات ثروة تبلغ خمسماية ألف فرنك أو ما يزيد. هذه حالة كاظم بك الذي عين حديثاً والياً على القدس براتب يبلغ عشرين ألف فرنك في السنة بعد ما أقام فيها سنتين ونصف جمع مبلغ مليونين من الفرنكات.

علم الأمة العربية :

عموماً يُختار الموظفون الأتراك من بين جهلة الناس عديمي الضمير الذين يخطف السراب أبصارهم. أنهم وقحون مع الشعب أذلاء جبناء أمام رؤسائهم، وعلى كل حال ليس رؤساؤهم بأعلى منهم إلا بالرتبة. حتى أن الرجل الأكثر اعتباراً في البلاد لثروته وعلمه وثقافته يتعرض في كل لحظة لمضايقات هؤلاء اللصوص وتعسفهم. بسبب هذا النظام يترك كل الرجال الودعاء والمثقفين والمستقيمين في فلسطين وسوريا والعراق أرض الوطن

ويذهبون للتفتيش عن السلام والهدوء في ظلال العلم البريطاني الذي يرفرف على ضفاف النيل. هكذا، أصبحت مصر بالنسبة لعرب تركيا ملجأ ومدرسة. لأن كل الذين آثروا في التجارة والذين شغلوا المراكز الرفيعة في الإدارة البريطانية والمصرية، يعرفون اليوم كيف يتمنون المنافع التي لا تقدر لحكومة صالحة. وفي اليوم الذي سيرتفع به العلم القومي العربي في دمشق وبغداد سنجد فيهم مساعدين ممتازين لتنظيم وطننا العزيز والتعيس.

كيف نُحَسِّنُ بلداً ؟

بيد أنه يلزمنا القليل [من الجهد] لنجعل من فلسطين، في بضع سنوات فقط، بلداً عظيماً: إن إدارة صالحة وعدالة صارمة متجردة، وشرطة مستقيمة كافية، وقوانين حكيمة تتكيف مع طبيعة البلاد تكفي. ولكن كيف نستطيع الحصول على كل هذا؟ أعط الموظفين والقضاة رواتب معقولة، ادفعها لهم بانتظام، اكفل لهم ترقية عادلة تدريجية وإحالة على التقاعد كريمة وستحصل على ذلك. بهذه الطريقة صنع الإنكليز في مصر ما تراه اليوم؟ تعود فلسطين على السلطان كما درسناها بثلاثين مليون فرنك في العام، هذا المبلغ باهظ جداً بالنسبة لشعب يبلغ تعداده ثلاثماية ألف نسمة. يصرف منها ثلاثة ملايين فرنك على الإدارة المحلية ويذهب ما تبقى وهو سبع وعشرون مليون فرنك إلى الأستانة لتنفق فيها ويعرف الله كيف يتم ذلك؟ يمكننا، بنصف هذا المردود أي بخمسة عشر مليون فرنك، أن نضاعف رواتب المستخدمين أربع مرات، ونبني الطرقات ومشاريع الري ونشجع الزراعة وننهض بالصناعة المحلية وأخيراً نخلق فلسطين جديدة غنية جداً خلقاً لم تشهد له مثيلاً منذ أوج عزها. لم يكن مردود مصر السنوي مذكوراً في ظل الإدارة التركية، أما اليوم ففوائد الخزانة المصرية تفوق عوائد الإمبراطورية العثمانية.

منتوجات فلسطين :

يوفر الانحدار المتراوح بين ثلاثة وأربعين متراً فوق البحر وأربعماية متر تحت سطح البحر في وادي الأردن لهذا النهر مجرى سريعاً وبالتالي سهولة كبيرة في ري وتخصيب المساحة الواسعة التي يجتازها. وبقليل من التكاليف يمكن ري كل السهل الساحلي وهضبة شرقي الأردن أيضاً. يسقي بدو هضبة بئر السبع قطعانهم، غير المحدودة، من آبار مثل آبار «ملح» و«بئر السبع» المحفورة منذ عهد إبراهيم والقبائل البدوية في عصره. لقد طمر الأتراك بعضها بدل أن يحفروا غيرها لجعل هذه المنطقة أكثر خصوبة ومنعوا

العرب من إعادة فتحها، وينبت في فلسطين الأرز وكل الأشجار الحرجية، ويكفي منع الفلاحين من استئصال جذور الأشجار من باطن الأرض حتى تبعث الغابات القديمة من جديد. هكذا نجمل البلاد ونسهم في خصوبتها وغناها. تُطلب منتوجات فلسطين في كل مكان بفضل جودتها التي لا تضاهى. إن شعير بئر السبع، والسهل الساحلي، ووادي الأردن مرغوب جداً في إنكلترا من أجل صناعة البيرة، وتصل أولاً إلى لندن صادرات غزة. في كل سنة من شهر أيار وتحصل على أرفع الأسعار. لقد فضلت أوروبا كثيراً قمح حوران وشرقي الأردن جملة ومفرقاً، وذلك لصناعة النشاء والمعاجين الغذائية. وكذلك بالنسبة للمنتوجات الفلسطينية الأخرى: من برتقال وعسل يحمل طعم زهر برتقال يافا، وزيت نابلس وصابونه وكروم الخيل وبلسم جرش وعين جدي الشهيرة في القديم، إلخ...

جسر بين ثلاثة بحار:

من جهة أخرى تتمتع البلدان العربية الآسيوية، فلسطين، وسوريا، والعراق، والحجاز، بموقع جغرافي فريد في العالم، يشكل وحده مصدراً للغنى لا ينضب، لأنها تؤلف جسراً يصل بين ثلاثة بحار هي المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط ويصل بين ثلاث قارات هي أوروبا وآسيا وأفريقيا. فلسطين هي النقطة الأكثر أهمية وكما قيل هي المفتاح لهذا الجسر. إن من يستولي على هذا البلد يبسط سيطرته على كل البلاد الأخرى ويصبح الوكيل والممون للقارات الثلاث دفعة واحدة، وبالتالي يصبح سيد التجارة العالمية.

مناخ فلسطين:

في العالم كله يعد مناخ فلسطين الأكثر تنوعاً واعتدالاً في آن واحد. عندما يحل الجليد في الشتاء (بين كانون الأول وأيار)، في سفوح حرمون وحوران، بحرارة تتراوح معدلها بين −3، +8، يتمتع الشاطئ بحرارة لطيفة من صور حتى غزة. ويبقى ميزان الحرارة محافظاً على معدل يتراوح بين +14 و+20° في سهل مرج ابن عامر وتكون الحرارة أكثر دفئاً بقليل في وادي الأردن حيث يتراوح بين +18 و+20° في طبريا، وبين +20 و+24° في جرش. في الوقت الذي تتراوح فيه الحرارة على جبال اليهودية، وعلى هضبة شرق الأردن بين 8 و+16° في فصل الربيع إبان شهر نيسان وأيار إلى تشرين الثاني بين +18 و+24° عند سفح حرمون وحوران، وبين +16 و+26° في جبال اليهودية وعلى هضبة شرق الأردن وبين

+20 و+27° على الساحل وسهل مرج ابن عامر، وتبقى +50 أثناء النهار و+35 أثناء الليل في وادي الأردن. هكذا نستطيع أن نعيش طوال السنة في ظل حرارة ثابتة إذا تنقلنا قليلاً حسب الفصول. وتمتلك فلسطين أيضاً جواذب مميزة أخرى فضلاً عن الحسنات المناخية والصحية وفضلاً عن كثرة الينابيع المعدنية والحرارية التي تحتويها. وتنطوي فلسطين على المشاهد الطبيعية الجميلة الخلابة التي لا تضاهى بالإضافة إلى مقدسات مختلف الديانات الموحدة والذكريات التاريخية المودوعة فيها. لقد شعرت بفتنة البوسفور وجماله الساحر ولكني لم أشعر في القسطنطينية بالإحساس الذي غمرني به جلال رقاد الشمس مساء يوم من شهر كانون الأول 1899 في عين جدي على البحر الميت. قضيت عدة فصول شتوية في القاهرة ولكنها لا تساوي الأسبوعين اللذين قضيتهما على بحيرة طبريا في شهر شباط الأخير من سنة 1904، وأنصح الذين يحبون التأملات السوداوية الفاتنة بالذهاب لتمضية عشرة أيام من شهر آذار عندما تكون أشجار الليمون مزهرة.

بالتأكيد، ستزدحم شواطئ بحيرة طبريا الجميلة الضاحكة وضفاف البحر الميت المهيبة بالدارات الرائعة والفنادق الباذخة، من دون إزعاج الحكومة البربرية ومضايقاتها ومن دون الدمار والهموم المختلفة الأشكال التي يتعمدها الأتراك في البلاد، وسيأتي الأجانب كل عام بأعداد ضخمة لقضاء فصل الشتاء في الأراضي المقدسة حيث سينشرون الغنى والراحة عندما تزول هذه المكدرات.

إدارة فلسطين

قسمت فلسطين، كما درسناها، إلى ثلاث إدارات مختلفة: يتبع شرقي الأردن ولاية دمشق العامة. وأنيط ببيروت غرب الأردن الذي يحده خط مستقيم يمتد من مصب العوجا حتى نهر الأردن. ويتبع القسم الممتد ما وراء هذا الخط حتى بئر السبع ولاية القدس التي مثلت بحكومة عامة تتصل مباشرة بالقسطنطينية بسبب معضلة المقدسات. وبموجب معاهدة لندن لسنة 1840م يرتبط القسم المحصور بين بئر السبع وسيناء وقناة السويس بمصر.

تقسم منطقة شرق الأردن إلى إدارتين هما حوران والكرك وتقسم الأولى إلى خمس نواح أو مديريات هي: القنيطرة وبصرى ودرعا، والسويداء وعجلون. أما الثانية فتحتوي على ثلاث هي: السلط، ومعان والطفيلة. بينما تناط مديريتا حاصبيا وراشيا عند سفح حرمون بدمشق مباشرة. ثم إن منطقة غرب الأردن التابعة لبيروت تقسم إلى إدارتين:

نابلس وعكا، الأولى تضم ثلاث مديريات هي: جماعين وبني صعب وجنين والثانية تضم أربع مديريات هي: حيفا وطبريا وصفد والناصرة، أما صور ومرجعيون في أعلى الجليل فتولفان مديريتين تتصلان مباشرة ببيروت. وتقسم ولاية القدس إلى أربع إدارات هي: يافا وغزة والخليل وبئر السبع. إن الموظفين المنصبين على رأس مختلف هذه الإدارات أكانوا حكاماً عامين أم حكاماً أم نواب حكام، يتمتعون بعقلية واحدة تتبع الأهداف الثلاث: استغلال الشعب، وملء الجيوب، وإرسال المال إلى القسطنطينية لكي يرقوا أو بكل بساطة ليستمروا في مراكزهم المحترمة. ويجهل كل منهم ما يحدث عند جاره وأكثر من ذلك لا يعرف جغرافية المديرية التي يحكمها.

إن هذا يرينا كيف أن الإدارة، إذا جاز أن نطلق عليها هذا الاسم، مجزأة ومشتتة في هذه البلاد، وأي فوضى تسيطر عليها، إن اليهود الذين لا يعرفون إلا الصيد في الماء العكر يتواجدون إذن في الوسط الأكثر ملاءمة. من جهة يوجد الشقاق وعدم الانتظام والجهل والبؤس، ومن جهة أخرى: يوجد الاتحاد والمركزية الموجه بالفكرة الواحدة بناء على تصميم رسم سلفاً.

ثمة ثغرتان تضعفان السلطات القنصلية في فلسطين أمام الغزو اليهودي: بادئ ذي بدء عددها ليس كافياً، ثم إنها ليست أكثر مركزية من السلطات التركية؛ إذ تحتفظ كل من الدول الأوروبية بقنصلية عامة ببيروت، ولبعضها قنصليات في دمشق تتبع بيروت وتحتفظ فرنسا وألمانيا فقط بنائب قنصل في حيفا يتبع بيروت. لكل من هذه الدول الكبيرة نفسها قنصلية عامة في القدس ونائب قنصل في يافا. ونادراً ما يبقى ممثلو الأجانب أكثر من سنتين أو ثلاث في مناصبهم. ويتجول القليل منهم في دائرة اختصاصه ولا أعرف بينهم من زار كل فلسطين. ينشغل هؤلاء الموظفون عامة بنقلياتهم وترقياتهم إلى منصب أعلى. ويلوذون أيضاً بمكاتبهم معظم الوقت يصرفون الأعمال اليومية بوعي ونشاط يدافعون عن المصالح التجارية لأممهم ويدبجون تقارير عن أزمات قناصل الدول الأخرى وعن السلطة التركية. وعلى هذا النحو لا يعرف أي قنصل البلاد ولا يدرك الخطر اليهودي. وإنني متأكد بأن الحكام الأتراك والقناصل العامين لم يرفعوا إلى حكوماتهم تقارير يلفتون أنظارها إلى خطط اليهود وتنظيمهم وغزوهم لفلسطين.
أرسل السلطان أخيراً في كانون الثاني سنة 1904 ب م مفتشاً عاماً تركياً إلى سوريا وفلسطين ليدرس الوضع السياسي في هاتين المقاطعتين. في إحدى الأمسيات بينما كان يلعب «البكارا» عند كاظم بك، تحدث رجل أمن مصادفة عن مستعمرة إسرائيلية مجاورة

بعدما كان هذا الموظف العالي قد قضى ستة أشهر في بيروت والقدس من دون أن يهتم بمسألة اليهود. (آه هذه حقيقة! صرخ سعادة المفتش العام. يجب أن أدبج تقريراً عن الاستعمار الصهيوني في فلسطين، أرجوك إذاً أن تكتب لي على طرف ورقة ما تعرفه عن هذا الموضوع). لا يعرف رجل الأمن أشياء كثيرة لكنه كتب ما يعرفه، وكتب سعادة المفتش تقريره وعاد إلى القسطنطينية بعد أسبوع.

القناصل الأجانب:

هنالك في بيروت والقدس قناصل عامون، يدافعون عن مصالح الصهيونيين ويساعدونهم على التقدم لأنهم انخدعوا باليهود ولم يحسبوا حساباً للخطر الداهم. مع أن واجبهم الملح يكمن في مقاومة حركة إسرائيل في فلسطين وإضمار العداء لما يرمي إليه اليهود.

العرب الآسيويون:

أضف إلى ذلك أن العرب الآسيويين أكثر شعوب العالم هدوءاً وأسهلها انقياداً لأنه بالرغم من الفوضى الحكومية التي تسيطر على تركيا وقابلية شراء كل الإدارات وعدم كفاية الشرطة، فإن وجود الجرائم والجنح في البلدان العربية العثمانية أقل منه في أي مكان آخر. ومع أن العرب اعترتهم الأخطاء الملازمة للشعوب التي أفقرت وأرهقت بعبودية طويلة فإنهم مازالوا يحتفظون ببقايا الفضائل السامية التي تميزهم منذ زمن هارون الرشيد وصلاح الدين. ولن نتحدث عن الفوضى المزمنة في بيروت لأن لها أسباباً عميقة ومجهولة سوف نكشفها فيما بعد.

جواسيس موسى

بهذا الوصف اليسير، يستطيع القارئ أن يحكم على الجواسيس الذين أرسلهم (موسى) لزيارة فلسطين أنهم كانوا على حق عندما مدحوها بما يلي: (كنا في البلد الذي أرسلتنا إليه، الحق أن هذا بلد يجري فيه اللبن والعسل وهذه من ثماره). يقول الكتاب المقدس: (لقد أبدوا للعيان تيناً ورماناً وغصن كرمة مثقلاً بعناقيد العنب حملها اثنان بواسطة رافعة).

بما أن الجغرافية الاقتصادية لفلسطين وحالتها السياسية تشبهان إلى ما لا نهاية جغرافية سوريا وبلاد ما بين النهرين وحالتهم السياسية إذ أن كليهما إذا صح القول

تكونان الزبدة، فإننا نرجو القارئ أن يضفي على بقية البلدان العربية التأملات التي أضفيناها على وادي الأردن بغية فهم ما سوف يأتي وهو يدور حول أهمية حركة القومية العربية وموقعها بالنسبة للدول الأجنبية الكبرى والقوميات الأخرى في تركيا ...[40]

الاستعمار الألماني في فلسطين

هذا هو مخطط التوسع الجرماني حتى الأرخبيل عبر النمسا والبلقان ومقدونيا لتعبر ألمانيا من هناك إلى آسيا الصغرى وتخلق إمبراطورية ألمانية واسعة تمتد من بحر الشمال حتى الخليج الفارسي. على أيدي الألمان تغدو آسيا الصغرى في سنوات قليلة بلاد ألمانية تماماً يعمرها المهاجرون من يوزنمبرجوا أو بومرانيان الذين يطورونها بجرمنتها كما طوروا وجرمنوا القرى التي احتلوها في فلسطين.. وإن كان الانكليز أفضل من يدير المستعمرات فالألمان يصدرون المستوطنين الممتازين.. إن أكثر الشعوب قدرة على الاستعمار في العالم.

رأينا في حيفا ويافا مستعمرين ألماناً، أتوا فقراء منذ بضع سنوات يمتلكون حالياً عقارات تبلغ قيمتها مائتي أو ثلاثمائة ألف فرنك، تعود عليهم بعشرين أو خمسة وعشرين ألف فرنك في السنة. إن هؤلاء المستعمرين يتأقلمون بسهولة ويشتغلون كثيراً، وينتجون بضخامة ولا يكادون يصرفون شيئاً. وهم يرون المنفعة التي يجنيها الإمبراطور من إنماء هذه المستعمرات والحماية التي تمنحها حومة برلين. خاف اليهود من أن تصبح هذه المستعمرات عقبة مع الزمن في وجه تحقيق حلمهم. ولكي يمنعوها من التوسع أكثر فأكثر اشتروا جميع القرى المحيطة بها.

في الأساس لم يكن طموح ألمانيا أبداً التوجه نحو البلدان العربية بل نحو الأناضول، إن بعض المصالح في سوريا وفلسطين، كتعمير الكنائس ودور الأيتام والمستشفيات وتأسيس مصرف (دوتش بنك فلسطين) الناتجة عن مبادرة الإمبراطور، وبناء مستعمرتين زراعيتين إحداهما في حيفا والأخرى في يافا، والمطالبة بحماية رعاياها من البعثات الكاثوليكية، كل هذه خلقتها منذ بضع سنوات ليس بهدف احتلال هذا الجزء من تركيا فيما بعد، وإنما ليكون لديها ما تواجه به مطالب الآخرين ولتنتزع منهم تنازلات أخرى منتظرة في آسيا الصغرى[41].

(40) - يقظة الأمة العربية، ص47- 71.

(41) - يقظة الأمة العربية، ص 121.

رحلة جمال الدين القاسمي إلى فلسطين عام 1903

تعد رحلة علاّمة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي[42] إلى القدس عام 1903م أول رحلة يقوم بها رحالة عربي إلى القدس الشريف مستخدماً القطار وسيلة للنقل، ووصف المشاعر المقدسة في هذه المدينة وصفاً يرتقي إلى المصنفات الكلاسيكية الكبرى التي وضعت عن مدينة القدس خلال القرون الهجرية العشرة السابقة.

ولد العلاّمة الشيخ أبو الفرج محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل بن أبي بكر، المعروف بالقاسمي، نسبة إلى جده. في دمشق سنة ثلاث و ثمانين و مائتين و ألف، الموافق 1866م.

نشأ في بيت علم ودين، فوالده كان فقيهاً، عالماً، أديباً، أفاد منه الشيء الكثير وأخذ العلوم عن كثير من المشايخ فقد قرأ القرآن أولاً على الشيخ عبد الرحمن المصري ثم الكتابة وتجويد الخط على الشيخ محمود القوصي.

درس في المدرسة الظاهرية وتلقى علوم اللغة على شيخه الشيخ رشيد قزيها المعروف بابن سنان. ثم جوّد القرآن على شيخ قراء الشام الشيخ أحمد الحلواني. و قرأ على الشيخ سليم العطار شرح شذور الذهب، وابن عقيل، وجمع الجوامع، وتفسير البيضاوي، وسمع منه دروساً من صحيح البخاري، والموطأ، ومصابيح السنة، وأجازه شيخه إجازة عامة بجميع مروياته سنة 1301 هـ، 1884م ولما يبلغ القاسمي حينها الثامنة عشرة من عمره.

ومن شيوخه الشيخ بكري العطار قرأ عليه كثيراً من الكتب في علوم متنوعة وأجازه هذا الشيخ أيضاً سنة 1302 هـ، ومن شيوخه الشيخ محمد الخاني والشيخ حسن جبينه الشهير بالدسوقي وغيرهم من الشيوخ.

(42) - محمود مهدي الاستانبولي، شيخ الشام جمال الدين القاسمي، بيروت 1985. الزركلي، الأعلام، 135/2. مقدمة كتاب قواعد التحديث لظافر القاسمي، الشيخ القاسمي للدكتور نزار أباظة

دعا الشيخ القاسمي إلى العلم، ونبذ التعصب والتقليد، وتصفية العقيدة مما علق بها من أفكار وفلسفات واعتقادات دخيلة، كما دعا إلى نبذ التعصب والجمود، وفتح باب الاجتهاد لمن ملك القدرة على ذلك، وكثيراً ما كان يستشهد بأقوال الأئمة الأربعة للتدليل على أفكاره، فكان يقول: (إن من يطلع على كتب هؤلاء الأربعة يرفض التقليد، لأنهم أمروا تلامذتهم بالاجتهاد، وأن لا يجعلوا كلامهم حجة)، فكانت النتيجة أن اجتمعت عليه الجموع و لفقوا له تهمة الاجتهاد، وتأسيس مذهب جديد في الدين سموه (المذهب الجمالي) وشكلوا لذلك محكمة خاصة مثل أمامها مع لفيف من العلماء، كان ذلك سنة 1313هـ، الموافق سنة 1895م ثم أخلوا سبيله فكان أن انتشرت صيته وعلت مكانته بين الناس.

قول في كتابه الاستئناس [ص 44]: (وإن الحق ليس منحصراً في قول، ولا مذهب، وقد أنعم الله على الأمة بكثرة مجتهديها). وفى كتاب إرشاد الخلق [ص 4]:يقول: (وإن مراد الإصلاح العلمي بالاجتهاد ليس القيام بمذهب خاص والدعوة له على انفراد، وإنما المراد إنهاض رواد العلم، لتعرف المسائل بأدلتها).

ونظم من شعره ما يرد به على بعض الجاحدين الذين اتهموه ووشوا به إلى الوالي: [مجزوء الرمل]

زعم الناس بأن مذهبي يدعى الجمالي

واليه حينما أفتي الورى أعزو مقالي

لا وعمر الحق إني سلفي الانتحال

مذهبي ما في كتاب الله ربي المتعالي

ثم ما صح من الأخبار لا قيل وقال

أقتفي الحق ولا أرضى بآراء الرجال

وأرى التقليد جهلاً وعمى في كل حال

ترك القاسمي عدداً كبيراً من المؤلفات ذكر بعضها ولده ظافر القاسمي في مقدمة كتاب قواعد التحديث عند الترجمة لأبيه: منها مجموعة سماها (السفينة) يرجع تاريخها إلى عام (1299هـ) ضم فيها طرائف من مطالعاته في الأدب، والأخلاق، و التاريخ، والشعر، كما ذكر الدكتور نزار أباظة في كتابه عن القاسمي 113 عنواناً مابين مطبوع ومخطوط و

ما بين كتاب كبير يشتمل على مجلدات كثيرة ورسائل صغيرة قليلة الصفحات. ومن أشهر مؤلفاته رحمه الله محاسن التأويل وهو تفسير للقرآن الكريم، دلائل التوحيد، إصلاح المساجد من البدع والعوائد، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، شذرة من السيرة النبوية، رسالة الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس، كتاب المسح على الجوربين، تعطير المشام في مآثر دمشق الشام، حياة البخاري، شمس الجمال على منتخب كنز العمال، ميزان الجرح والتعديل، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب.

وكانت وفاته مساء السبت 23 جمادى الأولى سنة 1332 هـ، الموافق 1914/04/18م. ودفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق.

طاف القاسمي في بلاد الشام ومصر والحجار. وفي مصر اجتمع بالشيخ محمد عبده، المصلح المشهور، وربطته به علاقة المودة والتماثل الفكري. وقد دون رحلاته في مذكرات غير مطبوعه ومنها رحلته إلى القدس سنة 1321هـ/1903م. التي نشرتها جريدة الدستور الأردنية سنة 1981[43] تحت عنوان: (العلامة القاسمي يصف رحلته إلى بيت المقدس قبل ثمانين عاماً). وقد أعاد نشرها الدكتور كامل جميل العسلي في كتابه حول الرحالة العرب والمسلمين الذين زاروا مدينة القدس، عدها آخر الرحلات الكلاسيكية إلى هذه المدينة، وقد نشرنا الرحلة في أدناه بالعودة إلى نسخة جريدة الدستور المذكورة وقارناها بالنص الذي نشره الدكتور العسلي.

وتنطوي هذه الرحلة على معلومات مقتضبة عن مدن فلسطين التي مر بها وهي: القدس وبيت لحم والخليل ويافا، ووصف بعض ما رآه فيها، وهي كما قال كانت تعاني من قلة العلماء، ومرد ذلك هو ضعف الحركة العلمية بشكل عام في أواخر العصر العثماني، ليس في فلسطين وحدها بل في عموم بلاد الشام. وسبب الاقتصاد في عبارات هذه الرحلة طبيعة الشيخ القاسمي الناقمة على مظاهر التقليد الأعمى، فهو لم يشأ – وهو قادر على ذلك- أن يخط رحلته بإسهاب، وقد أشار للقراء إلى الكتب التي يمكن أن يأخذوا عنها معلوماتهم التاريخية والجغرافية المتعلقة بالموضوع.

[43] - العدد 4861، 1981/2/22، ص 14 و15.

العلاّمة القاسمي يصف رحلته إلى بيت المقدس

لم أزل كثير التشوق لزيارة تلك الأماكن المباركة منتظراً للفرصة حتى حانت، فشددنا ساعد الهمة، وأبرزناها من القول إلى الفعل، وذلك في أواخر شهر محرم فاتح سنة 1321، نيسان 1903م، ونوينا الذهاب من طريق البر.

ثم في صباح الأحد 29 محرم المذكور خرجنا من دارنا طلوع الشمس، بعد أن قرانا ورد المسافر، وجيء لنا بعربية فوقفت أمام حارتنا وهي زقاق العلامة المكتبي ظاهر باب الجابية، المجاور لجامع الزيتونة، فاستطرناها إلى محطة الميدان، وسار لوداعنا لفيف من الأهل والأصحاب.

في مزيريب

ثم تحرك بنا (وابور)[44] مزيريب[45] ولم يزل يجوب تلك البلاد الحورانية المخصبة المونقة، إلى أن وصلنا إلى قرية مزيريب قرب الظهر، وبعد أداء فريضة الظهر مقصورة مجموعة مع العصر قرب عين البجة تجولنا في أرجاء أخبية التجار ريثما يسافر «الوابور» الحجازي إلى عمان. وبعد العصر تحرك الوابور المذكور وسار إلى درعا فوصلنا قرب المغرب.

واتفق أن رافقنا من مزيريب إلى درعا أحد ضباط العسكرية فنوه بنا لدى قومندان العسكر المقيمة هناك، فأوفد إلينا القومندان من العسكر من نقل أمتعتنا إلى فركون مشير الخط الحجازي. وغب وضع أمتعتنا فيه تجولنا في تلك الفيحاء النضرة.

---

(44) - الوابور كلمة لاتينية مستخدمة في الفرنسية والانكليزية بمعنى بخار، وهي تعني الآلة البخارية سواء كانت قطاراً أو سفينة

(45) - مزريب محطة قديمة على طريق الحاج وهي إلى الغرب من مدينة درعا بنحو عشر كم، وقد اقيمت فيها محطة للقطار بعد ان كانت محطة للقوافل، وفيها قلعة عثمانية

في درعا

وكان طيَّر خبر قدومنا إلى قاضي درعا أحد وجهاء دمشق، وكان مرافقاً لنا في «الوابور» وحل ضيفاً عنده. ففي الحال أرسل القاضي لنا ثلاث دواب لطول المسافة ما بين المحطة والبلد. وكنا أدينا فرض المغرب ونافلته والورد عقبه. فامتطينا تلك الجياد، وتلقانا القاضي على بعد بالترحاب، وأنزلنا في داره، وبذل جهده في الإيناس والأكرام. وبعد أداء فريضة العشاء أعد لنا من التخوت والفرش أبدعها، فحمدنا المولى على ذلك، وتفاءلنا بالمسرة والرفاهية في هذه الرحلة من هذا العنوان. ثم عزم في الصباح علينا القاضي في المقام عنده بضعة أيام فأبينا. ثم ودعنا ضحوة النهار وسرنا إلى محطة «الوابور» ودعانا بعض ضباط العسكر، فأقمنا عندهم ريثما يتحرك الوابور. وبعد تناول الغداء عندهم حضر وقت الظهر، فجمعناه مع العصر، ثم ركبنا «الوابور» الحجازي، وطار بنا يجوب قرى حوران، إلى أن بلغ منتهاها، ثم السهل بعدها إلى الزرقاء، ثم إلى محطة عمان، فوقف هناك قبيل الغروب.

في عمان

وكان خرج لاستقبالنا من عمان بعض الخلان، وأحضر لنا الدواب فركبناها، وسرنا إلى عمان فوصلناها بعد الغروب بنحو ساعة. ووفد لزيارتنا في الصباح فقهاء الجراكسة هناك، ووجهاؤها، وأقمنا فيها عشرة أيام ننتظر فراغ أحد رفقائنا من علاقة تجارية له. وتجولنا في خلال هذه المدة في معظم أرجائها، وشاهدنا آثارها وخرائبها، المدهشة بقاياها، وبعض مقابرها الحجرية التي أخذت في الظهور في ناحيتها القبلية، من بيت هناك، وصعدنا إلى جبلها ورأينا رسوم تلك القمة والحصون والأسوار والأعمدة المنقضة فيه، وسرنا يوماً إلى مداخل سرداب تلك القاعة من جهة جنوب البلدة تحت طرف جبلها، وأبصرنا غرائب جمة، وآثار عمران سلفت مدهشة.

وقد قيض المولى لنا في عمان أحد الأخلاء الدمشقيين المقيمين ثمة لمأمورية، فبذل وسعه في الإكرام والإيناس الزائد، ورأينا من إقبال فقهاء الجراكسة ووجهائها المقيمين هناك ما لم نتأمله، فكانوا يتسابقون للاجتماع بالمحال التي نتنزه في فيحائها، ونقيم سحابة النهار في وارف أفيائها. ولم تفتر ولائمهم لأجلنا في الصباح والمساء، ولهم تأنق في تهيئة الشاي، واقتصاد في المعيشة غريب. ورام خطيب عمان أن يوكلني في خطبة الجمعة بها فأبيت عليه، كيلا يختلف الحال على المصلين، وظهر لي أن إبقاء ترتيبهم بخطيبهم

أولى. ودعانا أيضاً في خلال ذلك أحد ضباط العسكر المقيمين هناك لمأمورية الخط الحجازي، وكان مع رفقته ضارباً خباءه في قمة جبل عمان الشمالي، فذهبنا إليهم، وأشرفنا على تلك البطاح الفناء، وانتشقنا ذاك الهواء.

هذا ولم تخل بحمده تعالى مجامعنا عن مذاكرات علمية ولطائف أدبية، ومفاكهات تستروح إليها النفوس، واستصحاب كتب أشهى لدينا من منادمة العروس. هذا وتجارة البلدة آخذة في المزيد، كما أن عمرانها، لكثرة النازلين فيها، وتوالدهم، في تقدم أيضاً.

وذاكرت فقيههم في عادة حملهم السلاح، وشدّه بزنارهم، حضراً وسفراً، وإن الأولى بهم تركه حضراً، ولا سيما في الجماعة في المسجد، فقال: هذا من أخذ الحذر من العدو. فقلت: أما في وقت الخوف فمسلم، وأما في الأمان فلا معنى له! ثم علمت أنهم ماشون في هذا مع عوائدهم وأزيائهم. وشاهدتهم في دفنهم الموتى يختارون اللحد، ويتقدم فقيههم معيناً للحفار في المقبرة بلا مبالاة، ويصلون على موتاهم قرب المقبرة، ثم ينصرفون إلى تعزية أهل الميت في بيته، ويجلسون بضع دقائق، ولا يقف المعزي في محل كما جرت العادة بالشام، ويعلمون على الميت صغيراً أو كبيراً. ولهم تمهل حسن بعد أداء الجماعات في المسجد أصلاً. وقبل صلاة الجمعة يتحلقون في المسجد حول صف من القرآن، يقرؤون مناوبة، كل واحد ربعاً، وهكذا إلى الآذان. وقد كانت مدة إقامتنا في عمان عشرة أيام.

السلط

ثم مساء الخميس عاشر صفر الخير، بعد أداء فريضة العصر، توجهنا من عمان بقصد السلط فودعنا الأحباب وسرنا من الطريق الآخذ إليها، وشاهدنا ضواحيها المخصبة، وجبالها المملوءة بالكلأ، المفروشة بأصناف الزهور المتنوعة الأشكال. ولما أبصرت الخصب المدهش في بطاحها، علمت أن لذلك اتخذت قديماً عاصمة مملكة، وشيدت لها القلاع والحصون، وبسببه يضرب المثل بسمن البلقاء.

ومررنا في الطريق على عيون لطيفة، صادفنا عند إحداها المغرب، فتوضأنا ثمة وأدينا الفريضة. ثم أخذنا بعد ذلك في وهاد منخفضة، وجبال شامخة، إلى أن وصلنا بعونه تعالى نحو الساعة الرابعة ليلاً إلى السلط.

وكان خرج لاستقبالنا عند المساء أصحابنا هناك، وبقوا بعد الغروب حصة كبيرة، ولما استبطؤوا قدومنا عادوا إلى بيوتهم. وسبب تأخرنا عنهم، مع أنهم أرسلوا لنا الدواب من عندهم، وتحققوا وصولنا لطرفهم المغرب، أن دوابهم لما وصلت لعمان وقت الظهر،

سلط على المكاري بعض العسكر فاستاق دوابه منه، وعيي أن ينقذها منهم فما قدر. بل جلدوه على فخذه عدة جلدات، أخزاهم الله تعالى! وكان بعض ظلمة الضباط أمرهم إذا ظفروا بدواب أن يأتوا بها، ليحملوا عليها عند محطة عمان بعض أمتعة العساكر القادمة من الحج.

ولما بلغنا ذلك أرسلنا أحد الأحباب، لاستنقاذها، فسار من عمان إلى محطة الوابور وقت الظهيرة، وكلم مقدم العسكر هناك فسرحها، وأتى المكاري في صحبته، فعندئذ أخذنا في التأهب، وتأخر الوقت المنتظر قدومنا فيه للسلط. ومثل هذه العادة في تسخير الدواب قهراً عن أربابها مألوفة في دمشق أيضاً كثيراً، ولا زاجر ولا رادع، فإنا لله إنا إليه راجعون.

وكان نزولنا في السلط عند أخوال بني ضياء الدين سلمه الله تعالى، وعمره بالعلم والطاعة، حيث متجرهم مع العرب، ولهم هناك دار يقطنونها بالتناوب نحو نصف عام، ثم يعودون للشام.

وفي الصباح قدم لزيارتنا وجهاء السلط ولفيف من موظفي حكومتها، ثم أخذ يتوافد علينا من عرفنا قبل، ومن تعرف بنا هناك، ليلا ونهارا، وغصت مجالسنا بهم وزادت على مجتمعات عمان، وكان أحد رفقائي يقول لي: إن طالعنا طالع جمع شمل، وصفو وقت.

واستحسنت من منتزهات السلط عين الجادور، ففي أغلب الأوقات نستغرق لديها النهار إلى المساء، ومعنا كتبنا التي هي زاد أرواحنا. وكان يأتينا غداؤنا بحمده تعالى إليها، ويفد إلينا عند المساء بقية أصحابنا، ونقرأ عليهم مما معنا ويمضي الوقت في مسائل ولطائف. وهكذا قضينا عشرة أيام كانت مظهراً للأنس والسرور، بحمد الله الشكور، وانتزهنا يوماً جهة قبة الجادور بين حدائق العنب، وتجولنا في تلك الرياض الشماء.

وقد أخذ الآن عمران السلط في ازدياد وأصبحت تشاد فيها البيوت المرتفعة بنهضة عجيبة وأكثر أهلها من نابلس.

وادي شعيب

ثم عزمنا على السير منها إلى الأرض المقدسة، فخرج لوداعنا إلى منحدر عين الجادور في طرف الوادي جمع من الأصحاب، وسرنا على بركة الله تعالى قبيل المغرب بساعة مساء الأحد في 20 صفر الخير، حتى قطعنا حدائق السلط البديعة، في منفرج تلك

الجبال المخصبة، المتخلل بينها عيون عذبة جارية، وهي مقدار ساعة ونصف. ثمّ تخللنا مسالك بين جبال، فصرنا تارة في انخفاض، وآونة في انحدار، وسلكنا في واد يقال له وادي شعيب، إلى أن أنخنا على حافة نهر ذلك الوادي قبيل العشاء، وصليناها مع المغرب مجموعة جمع تأخير. ثم أحضرنا ما زودنا به من العشاء، وأحضر لنا المكارون من القصب والحطب، وأوقدوا لنا ناراً فأضاءت ما حول النهر عن أشجار من الدفل البديع المونق، مكلل بتيجان حمر بهيجة المنظر وبعد تناول الطعام أخذنا في الاضطجاع، ولم ينلنا برد أصلاً، بحمده تعالى، لأن ذلك الأسبوع زادت فيه الحرارة بحكمته تعالى، حتى إذا كانت الساعة التاسعة من الليل، وقرب ظهور القمر من رؤوس الجبال تحرك الركب للمسير فامتطينا متون الجياد، وسرنا في ذلك الوادي جانب النهر إلى أن قطعناه، وارتقينا على ظهر جبل، ومنه إلى جبال الغور الهائلة التي كان من الحكمة قطعها ليلاً، وإلا فليس الخبر عن هولها كالعيان، خصوصاً في مسالك منها على حرف الجبل في غاية الضيق، ومنها ما هو في غاية الانحدار مع التوعر، إلى أن وصلنا مع الفجر إلى منحدر جمعنا مع ذلك النهر في منزل يقال له (مشرع سارة)، فنزلنا وصلينا الصبح بغلس. وفي جنبة ذاك النهر بستان قدم لنا منه خيار، فأكلنا.

أريحا

ثم امتطينا الخيل وسرنا مجدين، وخضنا مراراً في ذلك المشرع، وجاوزناه إلى حافته الأخرى، وكان الطريق أسهل مما مر، حتى أشرفنا بعد طلوع الشمس على فيحاء واسعة، ولاح لنا من بعيد سواد أريحا، ولم نزل مجدين حتى أنزلنا أحد أخوال ولدي ضياء الدين - وكان معنا - عند بعض معارفه من العرب، وغب أن فرشوا لنا ما لديهم نمنا نحو ساعة. ثم جلسنا، وأحضروا لنا غداءنا، ودعونا للمقام عندهم فأبينا.

ثم ركبنا من عندهم ضحوة، وسار معنا خال ولدي [ضياء الدين] خطواً واسعاً، ثم أمرناه بالانصراف وودعناه، ووالينا المسير إلى أن وصلنا إلى نهر الشريعة، وعلونا على جسره الخشبي، وأردنا النفوذ منه، فإذا بابه مغلق، ولديه بواب لا يفتح إلا بجعل معلوم، فإن كان راكبا فعليه ثلاثة قروش، أو ماشيا فنصف قرش فدفعنا له ثلاث بشالك، وبلغنا أن ضمان هذا الجسر الخشبي ألف وعشرون ليرا عثمانية تضمنه الدولة في كل عام. وليس إذا أبوا إلا الخراج أو الضريبة على من يمر عليه. وفقوا لبنائه من قناطر حجرية

أسوةً بمن كان يبني من الأمراء الأقدمين كذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون. واشتهر أن أول من عمر هذا الجسر الملك الظاهر برقوق من أمراء الشراكسة بمصر فقال أحد الأدباء وقتئذ[46]. [من الوافر]

بنى سلطاننا برقوق جسرا	بأمر والأنام له مطيعة
مجازا في الحقيقة للبرايا	وأمراً بالسلوك على الشريعة

ونزلنا في دار حكومة مديريتها، ريثما يبرد الهواء ونؤدي الفرض، فصلينا الظهر وتناولنا الشاي بعد القيلولة، ثم صلينا العصر، وركبنا منها إلى خان[47] بين أريحا والقدس وهب الهواء عاصفاً، وبرد الجو، فاضطررنا إلى المبيت، لا سيما وفي المسافة إلى القدس بقية بعد، فصلينا المغرب في حجرة فيه واسعة، ونمنا فيه، ثم استيقظنا قبل الفجر فتوضأنا، وغب الوتر سرنا من ذلك الخان، إلى أن أسفر الوقت فنزلنا على جانب الطريق، وادينا الفجر، ثم ركبنا، الطريق أخذت بالمارة تقبل وتدبر منها إلى أن بدت أعلام قرية يقال له (العيزرية) ومنها لاحت مباني بيت المقدس من ضواحيه.

في بيت المقدس

ثم دخلنا المدينة من باب الأسباط ضحوة الثلاثاء في 22 من صفر الخير الموافق الخميس من أيار، فأنزلنا المكاري في خان هناك، وبعد أن وضعنا أمتعتنا في حجرة فيه أتينا إلى الحرم الشريف، فلا تسل عما هجم علينا من السرور المفرط، وانشراح الصدر، وبهجة النفس، وانتعاش الفؤاد، وحسبناه قطعة من الجنة قد دخلناه حامدين شاكرين لفضله، ونحن نكفكف الدمع فينهمر.

ثم وردنا الصخرة الشريفة، ورأينا آثارها ثم استقبلنا شخص من خدامها، وسألنا عن نزلنا، فقلنا: الآن أمتعتنا بالخان، فدلنا على الزاوية الداودية، وقال: هي منزل الفضلاء القادمين لهذه البلدة، ولها طعامية سلطانية، لذلك ذهبنا بعد العصر إليها، فاستقبلنا قيموها الكرام، وأصعدونا إلى غرفة فخيمة، ثم أدوا علينا في تناول العشاء

(46) - يقول القاياتي في نفحة البشام إن الجسر الذي بناه برقوق هو جسر بنات يعقوب وفي هذا الجسر القول التالي للسيدة عائشة الباعونية الدمشقية المتوفاة سنة 922 (الكواكب السائرة، 1/ 287 . 292). وباعون قرية من قرى عجلون في الأردن

(47) - نعتقد أنه «الخان الأحمر»

والمنام فامتثلنا، وشاهدنا منهم غاية الترحاب والإيناس، ورغبوا أن نكون نزلاءهم مدة مقامنا فأبينا، رغبة في أن يكون نزولنا في الحرم نفسه.

وفي يوم الأربعاء طافوا بنا في الحرم، فتقاطرت علينا أرباب الحجرات في صحن الحرم، وحول الصخرة، كل يرغب أن نأخذ حجرته إن شئنا، ثم دلنا شخص على حجرة داخل الحرم الأقصى في قبليه، جهة منبره الأيمن، جانب مقصورة الحديد، فآثرتها على كل حجرة لقربها من الحرم، الذي هو البغية من الرحلة، وتيسر بيت للطهارة فيها، ولإشراف برّانيها على ما حول الحرم من المباني والبطاح الفيحاء، ولقد زارني من لا أشك في صلاحه وقال لي: أبى الله إلا أن تكونوا في حرمه، وأضياف بيته، فأبكاني سرورا، وسجدت لله شكرا.

ثم راجعت تاريخ أنس الجليل، فرأيته ذكر أن منزلنا المذكور كان في الأصل زاوية، ونص عبارته في مبحث ما في بيت المقدس من المدارس والمشاهد بجوار المسجد الأقصى: «الزاوية الختنية»[48] بجوار المسجد الأقصى، خلف المنبر، وقفها الملك صلاح الدين تغمده الله برحمته على رجل من أهل الصلاح، وهو الشيخ الأجل الزاهد العابد المجاهد جلال الدين محمد بن أحمد الشاشي، المجاور في البيت المقدس ثم من بعده على من يحذو حذوه. ولما زرت المكتبة الخالدية في جوار الحرم[49]، طالعت بعضاً من نفائس كتبها، وترددت إليها كثيراً، واستعرت منها الشفاء للقاضي عياض، عليه سماعات كثير من المحدثين، وهو مقابل على نسخة مقابلة على نسخة المؤلف، فشرعت في مقابلة نسخة لي عليه في الحجر المذكورة، وكان يساعدني في المقابلة من كان راحلاً معي من دمشق إلى انتهاء الرحلة المذكورة الشيخ عبد اللطيف بن حسين بن محمد الشهير بالصفدي من أهالي دمشق، وأحياناً رفيقنا الثالث الشيخ ياسين بن الحاج رشيد الفرا الدمشقي، وفقهما الله تعالى بخدمة العلم الشريف هما وذريتهما.

ثم طلب مني مجاور الحرم قراءة درس عام فأبيت من دخول العجب عياذا بالله، فتحبط الرحلة. وشكوا إلي فقد العلماء من تلك الديار المباركة، فاسترجعت وتحوقلت[50]. ودعانا في مدة إقامتنا بعض التجار المياسير، وبعض أهل الأدب لداره والإقامة عنده، فأجبت الدعوة دون المقام، ضنّاً على حوار الحرم الشريف.

(48) - معاهد العلم للعسلي، ص 100.

(49) - معاهد العلم للعسلي، ص 379.

(50) - أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون ولاحول ولاقوة إلا بالله

المكتبة الخالدية :

وفي أثناء ترددي على المكتبة الخالدية، طلب مني أربابها الكرام أبياتاً يأثرونها في دفترهم الذي فيه يأثرون من كل قادم يتوسمون فيه الفضل، فاعتذرت بأني لست من أولئك الرجال، فألحوا، فكتبت على عجل هذه الأبيات، واختلستها رغماً عن مهماتي في تلك الأوقات، فقلت مشيراً إلى آداب الزيارة، والمجاورة في الحرم، وفضله وفضل الصخرة، وتطرقت لحجرتنا التي نزلنا بها فقلت:

أيها الزائر بيت المقدس ... يبتغيه بعد شق الأنفس

أحمد المولى بما أولى إذا ... ما بدت أعلام نور القدس

وأقم في الحرم الأسمى على ... طاعة والذكر وقت الغلس

وابتهل لله في جنح الدجى ... واسل دمعك كالمبتئس

وتجرد فيه عن كل الذي ... يظلم القلب كلهو المجلس

وإذا ما شئت تجوالا فسرِ ... لبسنا مكتبة واقتبس

كتب آل الخالدي أنعم بها ... مورداً للفضل منه فاحتسي

غرسوا في القدس فخراً باهراً ... ورثوه عن كرام المغرس

فجزاهم ربنا خير الجزا ... ما سرى ركب لأرض القدس

وبعد عصر يوم الأحد في 27 صفر سار بنا أحد فضلاء دمشق المقيمين هناك في مأمورية إلى مقام يقال إن قبر السيدة مريم عليها السلام فيه، وهو في كنيسة تسمى الجثمانية[51].

طور زيتا

ثم في صباح الاثنين 28 صفر ذهب بي أحد الأحباب المقدسيين إلى طور زيتا، فصعدت إليه، وأراني غالب مزاراته، ومنها مصعد السيد عيسى عليه السلام، على ما يرونه، وهو صخرة فيها أثر قدم داخل قبة، وجلسنا في الزاوية العلمية في جواره طلبا للرحمة، وقدمت كؤوس المرطبات، ثم انحدرنا منه. وبعد عصر ذلك اليوم سار بنا رفيقنا المذكور إلى كنيسة القيامة الشهيرة، فتقدمنا أحد بوابيها المسلمين، وأرانا جهاتها العلوية

(51) - الصحيح: الجسمانية

والسفلية، موضعاً موضعاً. ثم انعطف بنا رفيقنا إلى الخانقاه الصلاحية، وصعدنا إليها، واحتفل بنا قيمها، وجلسنا ثمة برهة، وأرانا غرفها وطباقها العلوية.

ثم في صباح الثلاثاء ذهب بنا رفيقنا المذكور إلى نواحي البلدة، وأرانا غرائب أماكنها، ومنها دار مطبعة للاتين[52] مهمة جداً، مشتملة على دار حدادة وطحن بأدواتها، ويديرها وابور بخاري. فاحتفل بنا قيموها. هذا وفي كل ذلك ننقلب إلى حجرتنا في الأقصى بسرعة، بحيث لم تفتنا بحمده تعالى في مدة إقامتنا الصلاة أول الوقت فيه، إلا ما كان وقت المغرب أحياناً، لوجودنا في دعوة بعض المحبين.

ثم في يوم الثلاثاء المذكور زارنا قبيل العصر في حجرتنا أحد وجهاء القدس، وغب أداء العصر نادى بمن يأتي بمفتاح الأقصى التحتاني، المنحدر في درج أمام أبواب المسجد، فدخلنا وصلينا فيه ركعتين تحية المسجد، ثم انقلب بنا إلى محل البراق غربي المسجد، فانحدرنا في درج إليه، إلى موضع الحلقة، وصلينا ركعتين تحية المسجد أيضاً. ثم ذهب بنا من باب المسجد، المعروف بباب المارية، في أواخر الجهة الغربية من صحن المسجد. وقد ذكر صاحب أنس الجليل أن موقتي الحرم ذهبوا إلى أن هذا الباب هو الذي دخل منه النبي ﷺ ليلة الإسراء. ثم تجولنا خارج السور، وأشرفنا على عين سلوان، وتلك المناظر المباركة، وكنا في دعوة أحد الصلحاء ليلتئذ.

بدء الرحلة إلى الخليل

ثم صباح الأربعاء سلخ صفر، عقدنا النية على المسير إلى بلدة الخليل عليه السلام، وبينما نحن في التهيؤ لاستئجار عربة، وإذا أحد محبينا قادم لزيارتنا، وقد هيأ لنا عربة تنتظرنا، فحمدنا المولى على هذا التيسير، وسرنا في الحال من حجرتنا في الأقصى، وركبنا العربة من باب العمود قبيل الظهر، ولا زلنا حتى وصلنا بيت لحم، فدخلنا للمكان المشهور بولادة السيد عيسى عليه الصلاة والسلام فيه، وأرانا قيمه محل الولادة، والنخلة، وما جاورهما، وتجولنا في أنحاء ذاك المكان، وأحببت أن أصلي ركعتين عند محل الولادة، اتباعاً لما ورد في قصة المعراج.

ثم خرجنا منه إلى جامع البلد، فصلينا الظهر جماعة، واشترينا من بعض التجار ثمة بعض قطع صدفية، أعددناها هدية للأولاد والعيال. وقد انفردت هذه القرية بدقة الصنعة في التفنن بالقطع الصدفية، بما يدهش الألباب، ثم سرنا متوكلين عليه تعالى في

(52) - مطبعة عريقة أسسها الآباء الفرنسيسكان مجهزة بأحدث الآلات انشئت سنة 1847.

ذاك الطريق البهيج، وقد راقني منه وادي بيت جالا، المملوء بشجر الزيتون، ووقفنا في بعض المحلات لإراحة الدواب، ومنها لدى عيون عذبة، كعين عروب، وعندها صلينا العصر، ثم عين الدورة.

وأبصرنا في الطريق البركة التي فيها نبع ماء يساق للحرم الأقصى الشريف، وقرية حلحول التي يقال إن بها قبر سيدنا يونس بن متى، ثم تبدت لنا أعلام مدينة الخليل عليه السلام قرب المغرب، فسرنا توا إلى الجامع الشريف، ودخلنا رباطاً في جواره، توضأنا فيه.

ثم دخلنا الجامع، وغب صلاة المغرب والنافلة جاءنا أحد الطلبة فيه وسلم علينا، وجال بنا في أنحائه، لزيارة تلك المقامات الجليلة. ثم بعد زيارة الجميع عليهم الصلاة والسلام، استندنا إلى المنبر، فتحلق لدينا من أهالي المسجد ثلة، وسألني بعض الطلبة هناك عن بعض مسائل، وغب الجواب طلب مني قراءة درس في الصباح فاعتذرت بأنا على جناح السفر، ومقامنا قليل. وغب أداء العشاء سار بنا أمام الحرم الحنفي وخطيبه، وأنزلنا في داره ظاهر البلدة، على غاية من الرفاهية، فحمدنا الباري تعالى على ما ألهم.

العودة إلى بيت المقدس

وصباح الخميس دعينا لتناول الغداء عند أحد الوجهاء ثمة، ثم أعدنا الكرة إلى الجامع الشريف، وصلينا الظهر هناك، وبعده اجتمعنا بقاضي البلدة فيه، فرحب ودعانا لطول المقام فاعتذرت بأن رفقتنا في نيتها بعد الغداء العود إلى البيت المقدس، فألح هو ومن نزلنا عنده إلحاحاً زائداً، فأبينا. وفي نحو الساعة الرابعة من النهار ودعنا الأحباب، وركبنا العجلة، وسرنا على بركة الله تعالى، ووافينا بيت المقدس بعد الغروب، وصلينا المغرب في الأقصى الشريف. وفي تلك الليلة رأيت كأني في قصر عال صعدت إليه مع بعض فضلاء دمشق، فلما جلسنا فيه أبصرت فرشاً عديدة، فرام بعض إخواننا أن يفرش لنا على بعض شرفات ذلك القصر، فقال له ذلك الفاضل ما معناه: حسبك يا أخي، فما فوق منزلكم إلا منزل السلطان. واتفق أن رأى تلك الليلة أيضاً بعض رفقائنا قائلاً يقول لنا: تقبل الله زيارتكم. فرجونا أن تكون هذه الرؤيا من المبشرات.

هذا ولما كان مقصدي تقييد زمن هذه الرحلة في هذا الدفتر، لتكون تذكاراً لي ولمن يتشوف من وقتها من أهلي، اقتصر على هذه الكلمات، وأضربت صفحاً عن تاريخ البلاد التي مررت عليها، وذكر جغرافيتها، وحالها قديماً وحديثاً، خشية الطول، والخروج عن

الموضوع. ومن أراد الوقوف على شأن البيت المقدس، فعليه بأنس الجليل، وكتاب الروضتين لأبي شامة فإنه تطرق لكثير من مهمات آثاره، لا سيما من نثر مثل القاضي الفاضل، والعماد، كاتبي الحضرة الصلاحية. وكنت أراجع لجغرافية ما مررنا عليه من الجبال والبلاد والقرى كتاب الجغرافية العمومية، وكتاب تاريخ المملكة السورية، وكتاب دليل الزوار، ففيها من تحقيق الكتابين لبعض شؤون ذلك ما يزداد به إحاطة، ولسهولة الوقوف على هذه الكتب بوساطة طبعها وانتشارها، اكتفينا بالإحالة عليها.

إلى يافا

ثم في صباح السبت 3 ربيع الأول عزمنا على مبارحة البيت المقدس، فقدم لوداعنا يومه وقبله لفيف ممن صادقنا هناك. وبعد ارتفاع الشمس ودعنا حرم الأقصى بركعتي السفر، ثم ركعتين يمين الصخرة، وابتهلنا إلى المولى في دعوات جمة، ومنها أن يغفر لنا ما فرطنا من التقصير في قمام هذا المسجد الجليل. ثم خرجنا من روض ذاك الحرم الشريف، ونحن نكفكف الدمع وينهمل: [من الطويل]

ولما قضى التوديع فينا قضاءه ... خرجت ولكن لا تسل كيف مخرجي

ثم سرنا إلى «محطة الوابور» بعربة ركبناها من باب الخليل فألفينا هناك جمعاً من صلحاء الحرم، واختيار القدس، وفدوا لوداعنا أيضاً، فشكرنا سعيهم. ثم تحرك «الوابور» ضحوة النهار المذكور، وجاب في بطاح جميلة المنظر، حتى وصل يافا قبيل الظهر.

وصادفنا في «الوابور» أحد فقهاء قرية اللد ركب منها قاصداً يافا أيضاً، فترافقنا، ونزلنا جميعاً في دار مفتي يافا، العلامة المفضال، والشاعر البليغ، السيد الشيخ علي أفندي أبي المواهب؛ ابن الأستاذ الكبير الشهير الذكر، الشيخ حسين الدجاني، فأجل وفادتنا، وسررنا بمحاورته العلمية، ومطارحته الأدبية، واطلعنا على جملة من تأليفاته اللطيفة، وشعره الفائق.

المفتي الشاعر

ثم في صباح الأحد بعد تناول الشاي دعانا المفتي المنوه به وأفاضل بني عمه إلى متنزه لهم في قرية بيت دجن، فركبنا العربات، وسرنا في طريق تحف به حدائق ناضرة، والخيل تشق عباب الرمل، وبينما نحن سائرون إذا إنسان يستوقف سائق العربة ويطالبه برسم المرور، فقال لنا المفتي: هذا ونظراؤه من جباة المكوس، ممن يصدق عليهم قوله

تعالى: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾[53] ثم قص لي أن في عهد نور الدين الشهيد، كان صدر أمره الصارم بمنع الخمر، فقال بعض الفضلاء يخاطبه ويعظه: [من الكامل]

عطلت كاسات الخمور تعففا　　　وعليك كاسات المكوس تدور

تدعى بنور الدين فاحذر في غد　　　تدعى ظلام الدين ما لك نور

قال: فأبطل الرسوم المكوسية من وقتئذ. ثم وصلنا لذاك المتنزه إلا رفع فألفينا لديه قصراً شاهقاً، تحف به رياض بديعة وللبصر في جوانبه مجال، ولا يحجب فيحاءه جبال ولا تلال. وهناك مكنة كازية تسحب الماء وترفعه من بئر فيه، وتدير ناعورة لسقي أراضيه. فقضينا سحابة ذلك النهار ثَمَّ في مباحث علمية، ونوادر تاريخية، ومطارحات أدبية.

وكان المفتي المنوه به اصطحب لأجلنا جملة كتب من مكتبته. ومنها مجموعة أشعاره، فتصفحتها فألفيتها كلها غررا، وراقني من مقاطيعه قوله: [من الطويل]

ولما تجلى نور فرق جبينه　　　وراح بقد كالرديني يخطر

تذكرت بدر التم في عنق الدجى　　　وغصن النقا والشيء بالشيء يذكر

وفي يوم الاثنين سار بنا أحد أدباء يافا إلى متنزه للألمان، ضم صنوفاً من الطيور الغريبة، والحيوانات العجيبة. وترددنا إلى جامعها الكبير مراراً، وإلى مسجد في جوار دار المفتي مطل على البحر أحياناً.

العودة

ثم عزمنا على المسير من يافا نهار الثلاثاء 6 ربيع، فجمعنا الظهر والعصر تقديما في دار المفتي، وسار معنا إلى الميناء، وركبنا الزورق، ولطف المولى، وله الحمد، حيث لم يكن في البحر تموج زائد، والمسافة إلى الوابور كانت نحوا من ثماني دقائق. ثم ارتقينا إلى الوابور. وبدأ الدوار يأخذ بنا، فأشير إلينا بالاضطجاع. ثم سار من ميناء يافا الساعة التاسعة من النهار، ولم يزل يشق عباب البحر إلى أن وافينا بعناية الله وفضله ولطفه ثغر بيروت، بعد طلوع الشمس بأقل من ساعة، واجتمعنا يومئذ بأخلائنا الفضلاء هناك، ودعينا للإقامة بها، وعزم علينا فأبينا، خشية من أن يطول بنا المقام، والنفس نزعت إلى

(53) - سورة الأعراف، الآية 86.

الأوطان، وأخبر بعض رفقائنا محرر «الثمرات»[54] بالقصيدة التي طلبت مني في القدس المار ذكرها، وكان وفد لزيارتنا، وأركبنا عربة لقصد بعض أعزائنا، فاستملاها ونشرها في «الثمرات» في عدد 1433، وتطرق لمرورنا بالثغر، ثم عزمنا على المسير من بيروت نهار الخميس، فامتطينا الوابور، ثم وافينا دمشق مساء الخميس على حين غفلة، وتمت الرحلة أربعين ليلة. والحمد لله أولاً وآخراً. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(54) - هو حسن السندوبي المحقق والمؤرخ المشهور، وجريدة الثمرات التي كان هو صاحبها ورئيس تحريرها مشهورة.

يوسف الحكيم قاضياً

في القدس ويافا عامي 1910 و1911م

سجل القاضي يوسف الحكيم أخبار مذكراته ورحلاته في فلسطين خلال عامي 1910 و1911م أثناء تسلمه مهام منصبه قاضياً في القدس ثم في يافا.

وتمتاز مذكراته بسرد تفاصيل من الحياة الاجتماعية في هاتين المدينتين ورصداً لبعض التحولات التي طرأت عليهما مع تزايد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين. ولذلك يكتسب نصه أهمية خاصة من بين النصوص العربية التي تطرقت لفلسطين في ذلك الزمن.

ويوسف الحكيم من مواليد اللاذقية على الساحل السوري درس في المعهد الأمريكي وبالمكتب الإعدادي الحكومي في مدينته. وفي سنة 1904 عين قاضياً. وتولى القضاء بالقدس ويافا وطرابلس. وفي سنة 1913 عين أميناً عاماً لحكومة جبل لبنان المستقل إدارياً. واستقال سنة 1915 بعد عزم الحكومة إلغاء استقلال جبل لبنان. وبعد استقلال سورية تولى يوسف الحكيم الوزارة عدة مرات. وقد سجل الحكيم مذكراته ورحلاته وقدّم لها سنة 1964، ونشر الكتاب الذي تضمنها بعنوان (سوريا والعهد العثماني) في سنة 1966م وصدر عن المطبعة الكاثوليكية ببيروت، وفي التسعينات صدرت طبعة ثانية من الكتاب عن دار النهار البيروتية.

وقد خصص الفصل الأول من الكتاب للقدس الشريف التي زارها للمرة الأولى مرة سنة 1910 ليباشر مهام وظيفته فيها عضواً في المحكمة البدائية. كما خصص الفصل الثاني لمدينة يافا التي انتقل إليها لفترة وجيرة، ثم خصص الجزء الثالث للقدس التي عاد إليها مجدداً.

وصل الحكيم عن طريق البحر من اللاذقية إلى يافا ومنها ركب القطار إلى القدس[55] وباشر عمله في 9 كانون الثاني سنة 1910.

(55) - افتتحت السكة الحديدية بين يافا والقدس سنة 1892.

ويمتاز وصفه بحشده الكثير من المعلومات ودقته في سرد التفاصيل وخلوه من الحشو. ولاحظ أن القدس، على الرغم من وجود عائلات عريقة بها، تسودها حياة ديموقراطية بفضل التعليم وانتشار المدارس. وقال إن قدوم الحجاج والسياح للقدس من مختلف أقطار العالم كان في مقدمة الأسباب لرقي الحياة الاجتماعية وعاملاً قويا في رفع الحياة الاقتصادية.

واهتم المؤلف بالطوائف المسيحية في القدس ولاحظ بارتياح أن المودة والإخاء كانا يسودان بين المواطنين من مسلمين ومسيحيين. ولاحظ أيضاً تعدد المدارس الحكومية والأجنبية التابعة لمختلف البلدان الأوروبية بالإضافة إلى مدارس الرهبان. وقال إن النابهين من الطلاب أتموا التحصيل العالي في جامعات اسطنبول وبيروت.

وقدَّر عدد المسيحيين في القدس من مختلف الطوائف بأربعين ألفاً.. أكثرهم من الروم الأرثوذكس، وقال إن أكثرية الأماكن المقدسة في القدس وكل فلسطين كانت بيد البطريركية الأرثوذكسية. ثم تحدث عن كنائس القدس والمشاحنات التي كانت تجري بين الطوائف المختلفة لأتفه الأسباب، وخاصة أيام الاحتفالات. ولاحظ أن أكثر الزائرين كانوا من الروس الأتقياء. وتحدث عن الأديرة والكنائس والمؤسسات والمدارس الأجنبية التي انتشرت خارج السور ومنها دير الروس وكنيستهم في جبل الطور والبناية الفخمة التي أقامها الألمان فوق الجبل وأعدت لنزول الإمبراطور غليوم والأسرة المالكة[56] ثم وصف المؤسسة الروسية المعروفة بالمسكوبية في الموقع المعروف باسم الميدان إلى الشمال الغربي من القدس، - ومبانيها هي أول المباني الحديثة التي شيدت خارج السور حوالي سنة 1856 - فقال إنها معدة لاستقبال الزوار الروس ويديرها رهبان وراهبات من الروس أنفسهم ويحيط ببنائها الفخم وكنيستها الكبرى حدائق وكروم زيتون على التلال والأودية. وأعجب الحكيم بالنظام السائد بين سكان المؤسسة والزوار الروس وبجوقة المرتلين في الكنيسة.

وتناول المؤلف بعد ذلك الخلاف القائم بين البطريركية الأرثوذكسية وبين أبناء الطائفة الأرثوذكسية، وهو خلاف ازدادت حدته بعد إعلان الدستور العثماني سنة 1908. وتحدث عن نشاط الشباب العرب، (وكان من أبرزهم يوسف العيسى الصحفي المعروف) في المطالبة باشتراك العرب في المناصب الدينية وإدارة الأديرة والأوقاف ورفع شأن المدارس الأرثوذكسية.

---

(56) - هي بناية أوغُسطا فكتوريا أو المطلع (أم الطلعة) التي بناها الألمان سنة 1905 وأهدوها للإمبراطور والإمبراطورة بمناسبة عيد زواجهما الفضي اتخذها الإنجليز 1918 مقراً للحكم، وفيها الآن مستشفى تابع لوكالة غوث اللاجئين

وتحدث الحكيم بعد ذلك بإيجاز عن المسجد الأقصى ومكانته عند المسلمين، وعن الاحتفال بزيارة مقام النبي موسى، والحادث الذي عكَّر صفو الاحتفال بسبب الحفريات التي أجرتها بعثة أثرية بريطانية سراً في الحرم في تلك السنة (1910) والتي بلغت مسامع المشتركين في موكب النبي موسى فانفجرت المظاهرات والهتافات العدائية ضد أولياء الأمور.

وأخيراً تناول المؤلف الطائفة اليهودية وقال إنها تنقسم إلى سفراد (شرقيين) واسكناج (غربيين). ولاحظ أنه عطف على الشرقيين من هؤلاء «أغنياؤهم المقيمون في أوروبا، وفي مقدمتهم البارون روتشيلد فأسس لهم على نفقته الخاصة المدارس المسماة أليانس (الحلف)». وقال إن السكناج كانوا يتدفقون على القدس وكل فلسطين، واستوطن بعضهم في ضواحي القدس خارج السور. وظلوا محتفظين بجنسياتهم للاستفادة من الامتيازات الأجنبية وندد بالامتيازات الأجنبية التي جعلت الأجانب مقدمين على العثمانيين في ديارهم، وهي الامتيازات التي منحها سلاطين آل عثمان للدول الأوروبية.. وكان من مظاهر هذه الامتيازات دوائر البريد التي كانت تفتحها هذه الدول في المدن العثمانية، ومن جملتها القدس، استقلالاً عن البريد العثماني. وكان بريد القنصلية النمساوية أكثرها رواجاً وشهرةً.

وسرد في الفصل المخصص لمدينة يافا تفاصيل نادرة من حياتها الاجتماعية، وأشار إلى تزايد الهجرة اليهودية غير المحصورة بعدد بسبب استغلال الأجواء الديمقراطية التي شاعت في عهد حكومة الاتحاد والترقي والتي استغلها اليهود لزيادة الهجرة إلى فلسطين. وقد بدت يافا مدينة حديثة فيها طبقة متعلمة راقية وتنقسم إلى حزبين سياسيين متنافسين، وعلى الرغم من أنها تابعة للقدس إلا أنها كانت تستحق أن تكون متصرفية خاصة.

ولعل أهم ما يمكن ملاحظته من نص الحكيم عن القدس ويافا في ذلك الزمن سعي الحكومة لبسط القانون ورغبتها في تحديث البلاد العثمانية على قدم المساواة.

سوريا والعهد العثماني

الفصل الأول

القدس

مباشرة الوظيفة :

غادرت اللاذقية، على ظهر باخرة إيطالية رست نهاراً كاملاً في مرفأ بيروت، أم المدن الساحلية في سورية اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، ثم سارت ليلاً ورست صباحاً أمام حيفا.

تجوّلت في البلدة الصغيرة القديمة، وأهم ما شاهدته فيها ميناؤها الجميل، المبشر بمستقبل زاهر يجعلها مدينة كبيرة وجبل الكرمل الثابت حارساً لها.

وصلت الباخرة في اليوم التالي إلى يافا، حيث ركبت القطار إلى القدس، فباشرت مهام وظيفتي في التاسع من كانون الثاني 1910م عضواً في المحكمة البدائية، الحائزة أيضاً صلاحية محكمة الاستئناف بالنسبة إلى محاكم الأقضية وصلاحية محكمة الجنايات في اللواء.

عهد إليّ رئيس المحكمة جمال بك، وهو يعرفني شخصياً مذ كان نائباً عاماً في اللاذقية، بإملاء قرارات المحكمة على الكاتب. وكانت القرارات التي تصدر في القضايا الجنائية والجنح الهامة تكتب في غرفة المذاكرة قبل تفهيمها، لما في ذلك من ضمان لعميق التدقيق قبل البت في الدعوى، وكنت قد ألفت هذه المهمة منذ كنت كاتباً وعضواً ملازماً في محكمة اللاذقية.

لما اضطر الرئيس المشار إليه إلى دخول المستشفى لمرض ألم بصحته، عهد إلي بمهام الرئاسة. وقد امتدت مهمتي هذه ثلاثة أشهر كسبت خلالها تقدير أخواني القضاة والمساعدين وثقة المحامين والمتقاضين. ومن حسن الحظ أن جميع الأحكام التي صدرت في تلك المدة وطلب ذوو العلاقة نقضها قد اقترنت بتصديق محكمة التمييز.

مدينة القدس وحياتها الاجتماعية :

تعلو مدينة القدس نحو ثمانمائة متر عن ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتأخذ قسطها من كل فصل من فصول السنة الأربعة، وقد بنيت على تلال متقاربة الارتفاع وسط سلسلة جبال تتخللها الأودية، مما جعل مناظرها الطبيعية خلابة بالإضافة إلى قدسيتها وآثارها التاريخية ومؤسساتها الحديثة. ولا ينقص ضمان رفاهية الفقراء من سكانها سوى الماء القراح، فهو قليل في الصيف لأن الاعتماد قائم في الغالب على آبار مياه المطر نظراً إلى قلة الينابيع في الأراضي المحيطة بها، ومن لا يحوي مسكنه بئر ماء يضطر إلى شراء حاجته بثمن زهيد من باعة ينقلونه من آبار الجوامع والمساجد وأهمها آبار المسجد الأقصى.

تسود القدس حياة ديمقراطية، على الرغم من وجود عائلات أرستقراطية عريقة في الحسب والثراء والقدم، كآل الحسيني والخالدي والداؤدي والنشاشيبي وجار الله وغيرهم، وذلك بفضل انتشار المدارس الحكومية والأجنبية المختصة بمتنوع العلوم والفنون. وقد ضمت العدد الكبير من الأوساط الشعبية، مما جعل الشعب قسمين لا ثالث لهما، قسم متعلم راقٍ وآخر غير متعلم، أسوةً بمعظم المدن السورية.

إن قدوم الحجاج والسياح من مختلف أقطار العالم إلى القدس لزيارة المقامات المقدسة ومشاهدة الآثار القديمة، كان في مقدمة الأسباب الرئيسة لرقي الحياة الاجتماعية وعاملاً قوياً في رفع الحالة الاقتصادية، حتى كاد عدد غير قليل من الرجال والشبان يقوم بمهام الترجمة والدلالة للسياح الأوربيين والأميركيين في القدس وسائر أنحاء فلسطين.

ومن نتائج هذا الرقي، بالإضافة إلى الشعور القومي العربي النبيل، أن ساد الإخاء والمودة بين المواطنين من مسلمين ومسيحيين. فهم يتبادلون العواطف في كل مناسبة ولا سيما في الأعياد والمواسم على كثرتها، حتى ليعسر على المرء التفريق بينهم لولا بعض الحالات المتعلقة بالألبسة والأسماء الموروثة التي اختص بها فريق من دون آخر.

كان نائبا القدس في مجلس المبعوثين، سعيد بك الحسيني وروحي بك الخالدي، يتمتعان بثقة جميع المواطنين على اختلاف طبقاتهم. ومن عالي مزاياهما التي يرددها الناس أنه لم يبدر منهما في وقت ما أي تدخل في شؤون القضاء.

الثقافة :

تعددت المدارس والمعاهد العلمية في القدس، من حكومية وطنية وأجنبية، وهذه تشمل الألمانية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية، بدرجات ابتدائية وإعدادية،

ومدرسة صناعة يقوم على إدارتها جمعية خيرية ألمانية. أما الكلية الروسية، فكانت في بلدة الناصرة، وقد تخرج منها أساتذة ومديرون لمدارس البعثة القيصرية في كثير من مدن فلسطين وسورية.

والجدير بالذكر، أن النابهين من خريجي مدارس القدس لم يكتفوا بالتحصيل الإعدادي، بل أتموا التحصيل العالي في جامعات اسطنبول وبيروت.

هذا عدا مدارس الرهبان في الأديرة، وأهمها مدرسة الصلاحية لطائفة الروم الكاثوليك، وقد تخرج منها علماء بارزون أحرز الكثيرون منهم مرتبة الأسقف والمطران والبطريرك في سورية ولبنان.

ولم تحرم الإناث من نعمة التحصيل في المدارس المختصة بهم، من حكومية وخاصة، وأهمها مدارس الراهبات الفرنسية، إلى جانب المدارس الألمانية والإنكليزية.

الطوائف المسيحية :

يبلغ عدد المسيحيين في القدس أربعين ألفاً، تنطبق عليهم الحياة الاجتماعية التي سبق وصفها وهم موزعون مذهبياً على الوجه التالي: روم أرثوذكس (معظمهم عرب) ولاتين وأرمن وسريان وأقباط وأحباش وإنجيليين وموارنة وروم كاثوليك. فالروم الأرثوذكس أكثرهم عدداً ويليهم اللاتين ثم من ذكر بعدهم على الترتيب.

ولكل من الطوائف الخمس الأولى كنيسة حول الساحة المحيطة بالقبر المقدس ويطلق على مجموعها كنيسة القيامة، ويتناوب على حراسة القبر المقدس ليل نهار رهبان أرثوذكس. وحين تقيم إحدى الطوائف الأربعة الباقية طقوسها الكنسية حول القبر المقدس، يقف راهب من رهبانها إلى جانب الراهب الأرثوذكسي في أوقات محددة بنظام متفق عليه بين الرئاسات العليا لهذه الطوائف، بإشراف الحكومة. أما حراسة الباب الخارجي، فهي من قديم الزمن بيد آل نسيبه، من كرام العائلات المسلمة، يتوارثونها خلفاً عن سلف.

إن أكثرية الأماكن المقدسة في القدس وكل فلسطين هي بيد البطريركية الأرثوذكسية ويليها البطريركية اللاتينية فالأرمنية، على الترتيب السالف الذكر، وكل منها متمسك بالقديم من حقوقه المكتسبة، لا يسمح لغيره بالتجاوز عليها.

انشق ذات يوم ستار أيقونة السيدة مريم العذراء في كنيسة بيت لحم، لسبب بسيط لم تعرف حقيقته وقد يكون لها علاقة بالقدم. فأسرع ممثلو هذه الطوائف لوصل شقتي الستار وكاد التسابق بينهم ينقلب إلى نزاع واشتباك، لولا أن تدخلت الحكومة في الأمر

وأخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة بوساطة لجنة حظر عليها أن تقبل أي تدخل من الطوائف المذكورة ولو كان من قبيل عرض الإبرة والخيط، خشية حصول سابقة يتولد منها حق الأولية لطائفة دون سواها.

إن أخشى ما كانت تخشاه الحكومة، أن يقع في أثناء احتفالات أسبوع الآلام وسبت النور وعيد الفصح، تصادم بين أفراد ينتسبون إلى قوميات أوروبية مختلفة. لذلك لم تكتف بيقظة موظفي الشرطة والأمن العام، بل كانت تمدهم بسريات من الجنود النظامية بقيادة أحسن ضباطها، لإلقاء الرهبة في نفوس الطائشين ودرء كل ما يمكن أن يطرأ على اطمئنان المصلين والزائرين من شغب. وكان الحاكم الإداري وقائد الفرقة يحضران بأنفسهما بعض تلك الاحتفالات. فيتصلان في نهاية كل منها بالعاصمة برقياً مطمئنين عن استتباب الأمن والسلام.

كان قناصل روسيا واليونان من بين ذوي المقامات السياسية الأجنبية، يأتون مع حاشيتهم إلى كنيسة القيامة بموكب رسمي للاشتراك في الاحتفالات الدينية الأرثوذكسية، بمقابل حضور قناصل فرنسا بموكب رسمي أيضاً الاحتفالات اللاتينية.

والجدير بالذكر، أن أكثر الزائرين هم الروس الأتقياء وقد يبلغ عددهم عشرة آلاف زائر في موسم عيد الفصح، فتعج بهم الكنيسة على رحبها دون أن يسمع لأحدهم صوت.

للأحباش كنيسة كبرى في دير ملاصق لكنيسة القيامة، ويوجد بالقرب منها للألمان الإنجيليين كنيسة حديثة متقنة، وللموازنة كنيسة ضمن دير داخل المدينة. وبديهي أن تكون دور البطريركيات الأرثوذكسية واللاتينية والأرمنية ودور أساقفة باقي الطوائف المسيحية ضمن المدينة أيضاً.

أما خارج المدينة القديمة المحاطة بالسور، فحافل بالأديرة والكنائس والمؤسسات والمدارس الأجنبية من مختلف القوميات الأوروبية والأميركية. وفي جبل الطور، القريب من المدينة، دير وكنيسة للروس يتوسط ساحتها قاعدة جرس يرى من أعلاها البحر المتوسط غرباً ونهر الأردن والبحر الميت شرقاً. وقد بنى الألمان في هذا الجبل بناية فخمة أعدت لنزول الإمبراطور غليوم والأسرة المالكة وعظماء الألمان حين زيارتهم القدس.

المؤسسة الروسية:

بعد ظهر يوم الجمعة، ذهبت بصحبة الزميل الصديق. علي بك جار الله للنزهة في حديقة المؤسسة الروسية المعروفة «بالمسكوبية» وهي مؤسسة معدة لاستقبال الزوار

الروس في الأعياد والمواسم، يديرها رهبان وراهبات من الروس أنفسهم، يحيط ببنائها الفخم وكنيستها الكبرى حدائق وكروم زيتون على التلال والأودية، يتألف من مجموع ذلك مناظر رائعة يرى منها جبل الطور والأبنية التاريخية البارزة بقببها ومآذنها وقواعد أجراسها، مما يضمن لكل زائر راحته وانشراحه مهما كان مثقلاً بالأتعاب فكراً وجسماً.

تظل أبواب هذه الحديقة مفتوحة للزائرين من عصر كل يوم، حتى ساعة بعد غروب الشمس، ويوجد في باحاتها مقاعد لمن أراد الجلوس من المتنزهين. وقد لفت رفيقي الكريم نظري إلى الانتظام السائد بين سكان المؤسسة والزوار الروس، حين أقبلوا قبيل الغروب يستقون من حنفية ماء واحدة وبيد كل منهم إبريق من الومينيوم. فكانوا يفدون جماعات متتابعة نحو الماء مع فاصلة دقيقة أو دقيقتين بين كل جماعة مؤلفة من عشرين أو ثلاثين نفساً، دون أن يخل أحدهم بالنظام أو يسمع له صوت، خلافاً لتسابق نقلة الماء بالأجور من أمكنة معينة في المدينة إلى بيوت معظم سكانها تسابقاً يقترن في الغالب بتزاحم وتنازع ممقوتين.

أما الكنيسة الكبرى، فقد امتازت بجوقة مرتليها الروس، مما حفز الكثيرين من مختلف الطوائف وعشاق الأنغام للإقبال على سماعها وكأنهم أمام مسابقة موسيقية من دون أية آلة من آلاتها، كما تميزت بمظاهر التقى والصلاح البارزين في المصلين الروس المنصرفين بجميع حواسهم إلى استماع القداس من بدايته حتى نهايته من دون أن يلتفت أحدهم يميناً أو شمالاً.

الاشتراكية الإنجيلية:

بين متعدد الطوائف المسيحية، على اختلاف مذاهبها وقومياتها وتزاحمها، على رعاية الأماكن المقدسة والأثرية واستثمارها لمصلحة المحتاجين ونشر التعليم والتربية الفضلى بين الرهبان والمواطنين، ظهرت حديثاً في القدس جمعية مسيحية اشتراكية قام بتأسيسها أميركان إنجيليون على الأسس الواردة في أعمال الرسل، وشاركهم فيها فلسطينيون تجاوز عددهم آنئذٍ المائة بين رجال ونساء وأولاد، يضعون ما يجمعه كبارهم من ثمرة جهود التدريس وبيع المصنوعات المحلية إلى الزوار في صندوق مشترك وينفقون منه حسب حاجة كل منهم. وقد عرفوا بدماثة الخلق وحسن المعاشرة وأنشؤوا مدرسةً ابتدائية للذكور والإناث، تعلم العربية والإنكليزية، إلى جانب أبناء أعضاء الجمعية، عدداً غير قليل من أبناء كرام العائلات الإسلامية والمسيحية، من دون شرط الانضواء تحت راية الاشتراكية.

قام أفراد هذه الجمعية بأعمال حرة متنوعة، فكان منهم مدير المدرسة والمعلم والمعلمة ومنهم الصانع والبائع في مخازن معدة لمصنوعات صدفية وخشبية يرغب في اقتنائها السياح وزوار الأماكن المقدسة.

لقد حضرت إحدى حفلاتهم العائلية بصحبة الزميل الوجيه علي بك جار الله، صديقهم القديم، فأعجبنا بما ساد جو الاجتماع من روح المحبة والوداعة والأنس والمرح وعالي التهذيب.

الخلاف بين البطريركية الأرثوذكسية وأبنائها العرب :

الخلاف الأرثوذكسي، في البطريركية الأورشليمية من الناحية المدنية بين أبنائها وبين القائمين على إدارتها من الروم واليونان، وكلهم عثماني أرثوذكسي وإن اختلفت قوميتهم، قديم العهد، من دون أن يترك البطريرك السياسي العظيم داميانوس ومن سبقه من البطاركة مجالاً لظهور أي أثر له، إلى أن أعلنت الحرية والدستور في المملكة العثمانية (1908م). حينئذ نشط فريق من الشبان العرب، كان من أبرزهم الأستاذ يوسف العيسى الصحفي المعروف وأعلنوا مطاليبهم العديدة ويمكن إجمالها في ثلاثة:

أولاً، أن يكون مطران عربي واحد على الأقل بين الاثني عشر مطراناً يونانياً المقيم بعضهم في الأبرشيات والأكثرية في المقر البطريركي.

ثانياً، أن يشترك العرب في إدارة الأديرة والأوقاف وهي كثيرة وغنية بقدر إيرادها السنوي بأربعين ألفاً من الليرات العثمانية.

ثالثاً، رفع شأن المدارس الأرثوذكسية وإحداث كلية أسوةً بالطوائف الغربية. بينما يصرح البطريرك وحاشيته اليونانية باستعدادهم لإرسال تلامذة من العرب إلى المدارس اللاهوتية في أثينا أو في خالكي، إحدى جزر البوسفور، تمهيداً لترقيتهم إلى مرتبة الأسقفية، ويعدون بإصلاح إدارة الأوقاف والمدارس، ولكنهم لم يحققوا شيئاً يذكر من هذه الدعوة.

والحقيقة أن جماعة الإكليروس اليوناني الذين ألفوا منهم أخوية القبر المقدس ازدادوا احتفاظاً بفكرتهم القومية، حين رأوا نجاح الكنيسة الأنطاكية باعتلاء مطارنتها ورهبانها العرب السدة البطريركية ومعظم الأبرشيات التي كانت بيد إخوانهم اليونانيين. لذلك عمد فريق من العرب إلى مقاطعة البطريركية أو ينالوا مطاليبهم واعتمدوا في نشرها جريدة «فلسطين» في يافا وجريدة «الإنصاف» في القدس، بينما اعتمدت طباعة

الرهبان اليونان جريدة «القدس» الواسعة الانتشار للدفاع عن خطتهم وصدق حراستهم الأماكن المقدسة وعطف البطريرك على جميع فقراء الملة، من عرب ويونان على السواء، وإسكانهم مجاناً في بيوت الوقف.

وبديهي أن تظل الغلبة للبطريركية، بفضل مركزها الديني وكرمها الحاتمي وحسن صلاتها بالحكام والموظفين في مختلف الدوائر ومبادلتها رابطة الأخوة مع البطريركية المسكونية في العاصمة وأركانها من روحيين وعلمانيين. ولا ينكر أن عدداً كبيراً من الشباب العربي من مختلف الأديان والمذاهب، في القدس وملحقاتها، كان بكل عواطفه إلى جانب العرب الأرثوذكسيين، متمنياً لهم النجاح في سعيهم، حتى أن رئيس المحكمة جمال بك كان جد صريح في مناصرتهم. فقطع الزيارات والمناسبات الاجتماعية مع خصومهم ونال بسبب ذلك انتقاداً مريراً من المتصرف وغيره من القضاة والوجهاء، الحريصين على بقاء القضاء بعيداً عن كل تحزب لجهة من الجهات المتنازعة. على أن النائب العام جلال زهدي بك ومعظم القضاة ظلوا محافظين على حيادهم بإزاء الفريقين.

كان من العادة المستحبة في القدس أن يبعث البطريرك في عيد الفصح المجيد، إلى الأصدقاء من المسلمين وكبار الموظفين، هدية من البيض المسلوق والقداس (الخبز المصلى عليه في الكنيسة). وقد جاءني الرئيس جمال بك قائلاً إنه لم يقبل الهدية الواردة إليه من هذا القبيل ودعاني إلى الاقتداء به. فرفضت طلبه قائلاً إني بحكم الوظيفة، على الحياد بين الفريقين المتنازعين وبمقتضى التدين والاجتماع أقبل هدية البطريرك على بساطتها كبركة من رئيس الكنيسة.

والحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان، أن البطريركية الأورشليمية، لو استطاعت تنظيم موازنتها السنوية فيما يتعلق بإدارة الأوقاف وغيرها، وأسست المدارس الكافية لسد حاجة أبنائها، وعلمت العرب منهم اليونانية واليونانيين العربية لضمان الإخاء بينهم، ورفعت مستوى الكنيسة فوق السياسة والقومية، لكانت قبلة أنظار الجميع في شتى الأمور الدينية والمدنية.

المسجد الأقصى ومقام النبي موسى :

هو ثالث الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ومهوى أفئدة العرب خاصة والمسلمين عامةً، يقصده الزوار والسياح من أقطار العالم ويجتمع فيه لأداء صلاة الجمعة كل أسبوع وصلاة العيد والأوقات الخمسة، جماهير المؤمنين وتظل أبوابه مفتوحة طول النهار وبعض الليل وتغلق بعد صلاة العشاء لتفتح قبل الفجر.

يقوم على رأس إدارة المسجد الأقصى شيخ جليل من علماء القدس يسمى شيخ الحرم وتشرف على إدارته مديرية الأوقاف الإسلامية.

لا يسمح لليهود دخول المسجد الأقصى مطلقاً، غير أن المتدينين منهم يقضون كل نهار سبت أمام جدار من جدرانه الخارجية يسمى حائط المبكى يبكون فيه مجدهم الزائل ويرجون من الله أن لا يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وأن يرأف بهم ويعيد الملك لإسرائيل.

يحتفل المسلمون في القدس والقادمون إليها من سائر فلسطين والبلدان العربية والإسلامية بزيارة مقام النبي موسى، شرقي القدس، على مسافة نهار مشياً على الأقدام، بأهازيج وأدعية وابتهالات وراء رايات وأعلام موشاة بآيات كريمة وأحاديث شريفة، في الأسبوع نفسه الذي يحتفل فيه المسيحيون بعيد الفصح المجيد، حين تكون فلسطين ولا سيما مدينة القدس قبلة الزوار من جميع أقطار العالم.

وفي نيسان عام 1910، سار الموكب العظيم كسابق العرف يوم الجمعة من المسجد الأقصى إلى مقام النبي موسى، على أن يعود في نهاية الأسبوع بنفس الاحتفالات، وقبل عودته، طرأ على مسامع من في القدس ما لم يكن في الحسبان، مما يجده القارئ في البحث التالي.

التنقيب عن الآثار في الحرم الشريف :

قبل أن يعود موكب النبي موسى إلى القدس، شاع خبر قيام بعثة أثرية بريطانية سراً بحفريات في حرم المسجد الأقصى وتحت قبة الصخرة المشرفة، حيث كان يدخل عمال البعثة الفنيون، بعد سابق الاتفاق مع شيخ الحرم، حوالي الساعة العاشرة ليلاً، حين تكون الأبواب الخارجية مغلقة ويحفرون مدة أربع أو خمس ساعات، يعيدون بعدها سطح الأرض إلى حالته الأصلية. وقد ثابرت اللجنة على عملها الليلي شهراً من الزمن، إلى أن ظفرت بضالتها المنشودة وهي سيف وأواني ذهبية يرجع تاريخها إلى عهد الملك سليمان الحكيم.

وشاع في الوقت نفسه أن الوزارة العثمانية هي التي أجازت لهذه اللجنة القيام بمهمتها الأثرية واتخذت الحكومة المحلية التدابير المقتضية لإتمامها سراً، بعد الإيعاز إلى مديرية الأوقاف وشيخ الحرم.

ولما كان لكل معارضة في ظل الحكم الدستوري شأن يجعلها تغتنم الفرص لإثارة الشعب ضد القائمين على الحكم، ولا سيما إذا كان هنالك ما يمس المشاعر الدينية، لذلك انتشرت الإشاعة في المدينة بسرعة البرق ووصلت إلى مسامع موكب النبي موسى،

فانقلب فور عودته إلى القدس إلى تظاهرات وهتافات عدائية عارمة على أولياء الأمر صغاراً وكباراً.

ولكن الحكومة، التي تجلى موقفها بعزم رئيسها عزمي بك وحزم قائد الدرك والأمن العام السامي بك وحسن تدبيرهما، تمكنت من الحيلولة دون تفاقم الشر واضطراب حبل الأمن. فأحالت شيخ الحرم وغيره من صغار الموظفين إلى لجنة التحقيق، الذي لم ينته إلا بعد أن استقر الهدوء وعادت السكينة إلى المدينة وعاد كل شيء إلا الآثار المكتشفة إلى مجراه الطبيعي. وكما أثار هذا الحادث هجوم المعارضة في المجلس النيابي، أثار أيضاً حفيظة المتعصبين للدين ضد أولياء الأمور وضد البعثة الأثرية ومتبوعتها بريطانيا العظمى ولكن من دون جدوى، لأن الحكومة القائمة لم يعسر عليها إفهام الشعب أن التنقيب عن كل هذه الآثار قد ينفع البلاد من الوجهات العلمية والثقافية والاقتصادية من دون أن يكون له أي مساس بالشعائر الدينية.

اليهود في القدس :

اليهود قسمان، سفراد واسكناج. فالأول يشمل المواطنين والمقيمين في البلاد العربية وفي فرنسا وإسبانيا، والثاني يضم المقيمين في ألمانيا والنمسا وروسيا وبعض المدن الأوروبية الأخرى وأميركا الشمالية، وقد هاجروا إلى تلك البلاد هجرة تجارية واستوطنوها وأحرزوا فيها ثراء بارزاً، وهم أكثرية اليهود ودعامة الصهيونية.

لم يتجاوز عدد اليهود السفراد الذين يعيشون في فلسطين من قديم الزمن عشرين ألفاً، منهم خمسة آلاف أو ستة آلاف مقيم في القدس. ولما كانوا في الغالب فقراء، عطف عليهم أغنياؤهم المقيمون في أوروبا، وفي مقدمتهم البارون روتشيلد، فأسس لهم على نفقته الخاصة المدارس المسماة «اليانس» (الحلف) وكان يشرف على إدارتها وإدارة شؤون اليهود بإزاء الحكومة السيد عنتابي.

وقد جاء فلسطين من القسم الثاني إسكناج عدد كبير واستوطن بعضهم في ضواحي القدس خارج السور وفي يافا وبعض القرى المجاورة لها ولحيفا وظلوا محتفظين بجنسياتهم للاستفادة من الامتيازات الأجنبية فكان منهم في القدس تجار وصرافون ومديرو فنادق وأساتذة مدارس وأطباء وأرباب مهن حرة، كالخياطة وغيرها. وكان بينهم وبين إخوانهم السفراد تناظر وتزاحم لم تخف آثاره عن معاشريهم، وقد ظهر أن رجال الدين من الإسكناج هم أشد تمسكاً بدينهم وقوميتهم من زملائهم السفراد.

أخبرني زميلي القاضي يومتوب آمون أفندي أن اليهود المواطنين قدموا له بيتاً لسكنه وراتباً لقاء تدريسه التركية في مدرستهم الخاصة، ولولا ذلك لما استطاع البقاء في الوظيفة براتبها المتواضع بإزاء الغلاء المتصاعد. والحقيقة أن قومه يرون في وجود أمثاله من أحسن رجالهم في دوائر الحكومة ضماناً لمساعدتهم في قضاء حاجاتهم الحكومية عند الاقتضاء.

لقد ظهر أن تعاون اليهود العالمي في الأمور الاقتصادية قد زاد المتاجر اليهودية في القدس نشاطاً مكنها من مزاحمة غيرها رغم محافظة جميع اليهود على الاستراحة أيام السبت وإغلاق مخازنهم إغلاقاً يلفت نظر كل مار في أسواق القدس.

ومما يجدر ذكره، أن أهل القدس الودعاء كانوا يبادلون مواطنيهم اليهود عواطف المودة والإخاء، من دون أن يخطر لهم ببال (وهم في عام 1910) أنه سيأتي يوم يقصيهم فيه عن ديارهم اليهود النازحون من شتى أقطار العالم فيصبح أصحاب البلاد لاجئين في الأقطار العربية، على أن العرب أباة الضيم لن ينسوا هذه المأساة صنيعة الاستعمار، وهم جادون في سبيل عودة الحق إلى نصابه عاجلاً أو آجلاً[57].

الشعور الوطني والنفوذ الأجنبي:

لا شك في أن أكثر ما يحز في نفوس العثمانيين ألماً وشكوى هو ما يرونه من امتياز الأجنبي عليهم في عقر دارهم، بفضل الامتيازات الأجنبية التي نالتها الدول الأوروبية منحاً من سلاطين آل عثمان ثم تمسكت بها كحق من حقوقها الأساسية.

ومن جملة هذه الامتيازات، أنه كان لكل دولة من تلك الدول الأجنبية دوائر بريد لها ما لدوائر بريد الحكومة المحلية من حقوق. وقد فاق بريد القنصلية النمساوية في القدس، التي كان يديرها رجل يهودي، غيرها رواجاً وشهرة.

شاء مدير البريد العثماني أمين بك، المعروف بغيرته على مهام وظيفته وجده ونشاطه ومزيد إخلاصه في العمل، أن يزاحم البريد النمساوي ويتوفق عليه ببيع الطوابع البريدية. فلجأ إلى سمسار يهودي واتفق معه على أن يعطيه أربعين بالمئة من قيمة الطوابع العثمانية التي يقوم بتصريفها بيعاً إلى الناس، فبلغ ثمن ما صرفه هذا اليهودي في نهاية الشهر من طوابع ما يعادل مبيع سنة بكاملها. فانشرح صدر المدير، ظاناً أنه قام بفتح جديد سيكافأ عليه من مرجعه الذي رفع الأمر إليه. ولكن لم يطل انتظاره حتى صعق للجواب الذي ورده وملخصه أن السمسار اليهودي كان يوزع ما أخذه من أمين بك من

(57) – هذا الاستدراك كتبه الحكيم عندما حرر مذكراته عام 1964م

طوابع على الباعة في أمهات مدن سورية متنازلاً لهم عن نصف عمولته، فكانت النتيجة هبوط تصريف الطوابع من صناديق دوائر هذه المدن هبوطاً أفقد صواب القائمين عليها، إلى أن تنبهت الوزارة للأمر فوجهت إلى مدير القدس برقية لوم وتعنيف لعدم خصه الطوابع التي سلمها للسمسار بسمة الاستعمال في فلسطين من دون سواها.

إذا كانت هذه الحادثة قد دلت على سلامة قلب مدير البريد العثماني وقلة خبرته اللازمة لتوقي الأخطار التي قد تأتي عن السماسرة وغيرهم، فإن الشكوى من الامتيازات الأجنبية والسياسة التي أوجدتها وحافظت عليها لما يردده كل وطني مفكر في نفسه ومع أخوانه ومواطنيه، من دون أن تؤثر على شعوره بالإخاء الإنساني نحو الغرباء المستوطنين والزوار والسياح على اختلاف جنسياتهم الأجنبية القادمين إلى القدس وفلسطين، حيث يلقون أحسن المعاملة والاعتبار من الشعب والحكومة معاً، كما شاهدت ذلك بنفسي مدة وجودي في تلك الديار العزيزة.

تأسيس محكمة الاستئناف:

كانت محكمة بيروت الاستئنافية مرجعاً لاستئناف الأحكام التي تصدرها محكمة القدس بصفتها البدائية، ولما تبين لوزارة العدل كثرة الدعاوي في لواء القدس، المستقل عن الولاية، استصدرت قانوناً بتأسيس محكمة استئناف فيه تكون مرجعاً استئنافياً لمحاكم البداية في مركز القدس وأقضيتها ولمحكمة لواء نابلس البدائية.

ومن الجدير بالذكر، أن قضاء الناصرة، الواقع ضمن حدود متصرفية عكا التابعة لولاية بيروت، كان ملحقاً بمتصرفية القدس المستقلة، نزولاً عند طلب الدول الأوروبية تسهيلاً لمعاملات رعاياها حين يزورون الأماكن المقدسة. وبعد أن تسلم الاتحاديون الحكم في أثر إعلان الدستور، أعيد ربط قضاء الناصرة بمتصرفية عكا رعايةً لمصلحة أهله.

الفصل الثاني

يافا

نبذة عن أهميتها:

إن مدينة يافا، الممتدة على ساحل البحر المتوسط، تحيط بها بساتين وحراج مثمرة لا يرى الناظر نهاية لها، يتمتع المقيم فيها بدفء الشتاء وجمال الربيع والخريف ويحتمل

حر الصيف بفضل النسيم العليل الذي يحمل إليها شيئاً يسيراً من رطوبة ماء البحر والحدائق، كان عدد سكانها سنة 1910م، بين مواطنين وغرباء، وجل هؤلاء من اليهود والمهاجرين، يزيد عن سبعين ألفاً[58] من عثمانيين عرب وأجانب، عدا عشرات ألوف الزوار والسياح الذين يمرون بها في طريقهم إلى القدس الشريف وما وراءها. فمدينة يافا أكبر من أكثر مراكز الألوية وبعض مراكز الولايات في الدولة العثمانية.

أما أهميتها الاقتصادية، فيكفي دليلاً عليها أنها الميناء الوحيد للقدس، تربط بينهما سكة حديد، تجارتها واسعة وحاصلاتها وفيرة، يشحن من برتقالها المشهور سنوياً أكثر من مليوني صندوق إلى إنكلترا وحدها، وهي كثيرة العلاقات الاقتصادية بلواء نابلس، التابع إدارياً لولاية بيروت. لذلك كان من حق يافا أن تكون مركز متصرفية، لولا أن الحاكم في مرجعها القدس، يحمل لقب المتصرف المستقل المرتبط مباشرة بوزارة الداخلية. بيد أن الحكومة العثمانية قدرت أهميتها، فجعلت فيها محكمة مختصة برؤية القضايا التجارية، بالإضافة إلى المحكمة المكلفة برؤية الدعاوى الحقوقية والجزائية. ولم تكن شُعَبُ الإدارة أقل مما توجد في أي لواء، فضلاً عن كونها مركز قيادة لواء من الجيش النظامي.

اضطراب الأمن :

يصادف فصل الربيع مواسم الأعياد الدينية لدى جميع الطوائف وإقبال الحجاج والزوار من جميع أقطار العالم إلى القدس بطريق يافا. لذلك كانت الحكومة تصرف قصارى جهدها لتأمين راحتهم وقمع كل بادرة قد تخل بالأمن العام.

وفي أيار سنة 1910م، تولت القدس دهشة لأخبار اختلال الأمن في يافا إثر اغتيال رجل معروف بحسن السيرة يدعى سليمان الحيفاوي، بيد رجل من ذوي النفوذ لم تستطع قوى الشرطة والضابطة الظفر به لالتجائه إلى بساتين (بيارات) الليمون والبرتقال الكثيفة الأشجار، حيث يتعذر الاهتداء إلى من يختبئ فيها إلا إذا بذلت جهود جدية، فذعر سكان يافا وزوارها لهذا الحدث، الذي تلاه بشكل متواصل إطلاق العيارات النارية، من البساتين المحيطة بالمدينة من جهاتها الثلاث على البيوت المجاورة، مما اضطر سكانها إلى إحكام قفل أبوابها ونوافذها بعوارض حديد.

ارتفعت شكوى الأهلين والأجانب معاً من فقدان الأمن في يافا، وندت الصحف بضعف الحكومة المحلية بإزاء استمرار الحوادث المزعجة وأخذ كل من رجال الأمن

(58) ـ بمن فيهم سكان تل أبيب

والقضاء يلقي على الآخر تبعة اشتداد الأزمة، إلى أن وردت الأوامر البرقية من وزارتي الداخلية والعدلية إلى متصرف القدس بأن يعقد اجتماعاً مع رؤساء العدلية وقادة الأمن العام لإقرار التدابير الواجب اتخاذها، قبل تفاقم الشر. فأجمعت كلمتهم على وجوب إقالة النائب العام فوراً وإسناد وظيفته إلى يوسف الحكيم، أحد قضاة محكمة القدس. وبعد ثلاثة أيام من اتخاذ هذا القرار، أبلغتني وزارة العدل صدور الإرادة السنية بتعييني نائباً عاماً في يافا وضرورة مباشرتي مهامها بما أمكن من السرعة وتلطفت علي ببيان استعدادها لتقدير ما تراه من جهودي في وظيفتي الجديدة.

بدء العمل :

جئت يافا في أول حزيران 1910م، فوجدتها على الحالة الموصوفة في البحث السابق. فعقدت اجتماعاً في مكتبي مع رئيس الشرطة والأمن العام فوزي بك وقائد الدرك البيكباشي [مقدم] عبد الرحمن بك. وبعد تبادل وجهات النظر، اتفقنا على أن يرفق كل تقرير يقدم منهما بجرم مشهود، فيما يتعلق باستعمال السلاح وإطلاق النار ولو في الهواء، يجب أن يرفق ببيان إلقاء القبض على المجرم، ووعدتهما أن أسوقه فوراً إلى المحكمة لمحاكمته وجاهياً وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها من دون إبطاء.

ولما كان إطلاق النار لمجرد إقلاق الراحة العامة معدوداً بمقتضى قانون العقوبات من المخالفات قباحةً، التي لا يجوز فيها توقيف الظنين أثناء التحقيق ما لم يرافقها جرم أشد، وكان الحكم فيها لا يقبل من طرق المراجعة سوى التمييز، وكان هذا الطريق كثير النفقات لا يسلكه المحكوم عليه بعقوبات خفيفة إلا نادراً، وكان مجرد صوت الطلقات النارية، في مقدمة موجبات قلق الأهلين، لاعتقادهم بأن وراءها مصادمات بين المخاصمين أو بينهم وبين قوى الأمن العام، لذلك كله اتخذت التدبير الآتي:

تسلمت في اليوم الثاني من ذلك الاجتماع عشرة ضبوط تتعلق بمخالفات إطلاق السلاح الناري في الهواء لمجرد إقلاق الراحة العامة، مع وجود مقترفيها تحت نظارة الضابطة. فأحلت كل الضبوط بالانفراد إلى المحكمة لإجراء محاكمة المخالفين فوراً، فحكم على كل منهم بالحبس مدة تتراوح بين ثلاثة أيام، الحد الأدنى، وأسبوع، الحد الأعلى المنصوص عليه قانوناً، بالإضافة إلى غرامة لا تتجاوز الليرة العثمانية، مع مصادرة الأسلحة ونفقات المحاكمة. وبعد أن افهموا الحكم وأعلنوا صرف نظرهم عن طلب التمييز، أرسلوا إلى السجن ولم يطلق سراحهم إلا بعد تنفيذ الأحكام بكامل محتوياتها.

وقد صدرت أحكام أخرى على هذا الوجه في اليومين المتعاقبين، فانقطعت بعدها الطلقات النارية في المدينة والبساتين المجاورة، فعاد الهدوء وسكن روع الأهلين وعادوا إلى أعمالهم ومتاجرهم مطمئنين.

شهد شاهد زوراً أثناء المحاكمة في دعوى من نوع الجنحة، وكانت العادة المتبعة آنئذ أن يحكم عليهم فوراً حكماً قابلاً للاستئناف، فيؤجل تنفيذ العقوبة، من دون أن يكون هنالك مجال لتوقيف شاهد الزور. فعمدت إلى تدبير آخر، وهو أني طلبت من المحكمة إعطائي صورةً عن شهادته بما حوته من متناقضات، وأقمت عليه الدعوى لدى قاضي التحقيق، فأوقفه فوراً ثم قرر سوقه إلى المحكمة، حيث جرت محاكمته وهو موقوف. فكان لهذا التدبير وما سبقه من تدابير، كسرعة ملاحقة المجرمين وتنفيذ الأحكام، الأثر المنتظر من معنى وجود الحكومة الحازمة والقضاء العادل، في نظر كل من تدفعه نفسه الأمّارة بالسوء إلى اقتراف الجريمة والفرار قبل أن تصل إليه يد العدالة.

أصبحت هذه التدابير السريعة، على بساطتها، حديث الخاصة والعامة من الناس.

وقبل مرور أسبوع على مباشرتي الوظيفة، زار يافا متصرف القدس الهمام عزمي بك، فهنأ النائب العام على النجاح الذي أحرزه في إعادة الأمن إلى نصابه ومما قال له: (إني وإخوانك في القدس كنا على ثقة من نجاحك بعد أسبوع أو أسبوعين من مباشرتك الوظيفة، لا بعد ثلاثة أيام كما وفقت إليه، فثق بأن جهودك لن تبقى بدون تقدير ومكافأة). ثم دعاه لتناول الطعام معه في فندق هاردنج وعاد في اليوم التالي إلى القدس، تاركاً تشجيعه في نفس النائب العام أجمل أثر.

إلقاء القبض على قاتل الحيفاوي :

على إثر مطاردة القاتل من قبل قوى الأمن العام، غادر يافا وفلسطين فاراً إلى بور سعيد، فطلبت حكومة القدس من الوزارة مخابرة حكومة مصر للقبض عليه وإرساله محفوظاً إلى يافا. ولما طال عبثاً انتظار نتيجة هذه المخابرة الرسمية، بواسطة المفوض السامي العثماني الموجود في القاهرة، خطر لي أن أقوم بتدبير عدلي بحت لا صلة له بالطرق السياسية. فطلبت من قاضي التحقيق إخراج صورة مصدقة عن أدلة إثبات الجريمة ومذكرة التوقيف غير الموقت، وضممتهما إلى كتاب أخاطب به سعادة محافظ بور سعيد راجياً أن يأمر بإلقاء القبض على الجاني وإرساله محفوظاً إلى يافا، على أن تدفع إلى الخفير الذي يرافقه جميع النفقات فور وصولهما إلي. وقبل مرور أسبوع على كتابي،

جاءني صباح يوم وأنا في مكتبي ضابط مصري يحمل إليَّ جواب المحافظ، متضمناً إرساله الجاني وبيان نفقات السفر خمس عشرة ليرة عثمانية، فدفعتها في الحال من نفقات ملاحقة الجرائم وأرفقته بكتاب شكر باسم الحق العام إلى سعادة المحافظ الهمام، وعرضت واقع الحال بكتاب إلى مرجعي في القدس. فشكرني على هذا التدبير العدلي الموفق بدلاً من الطريق الدبلوماسي المعقد.

على أثر النتيجة،زال كل قلق من أفكار الشعب وساد الهدوء التام في المدينة. وزارني وجهاؤها وقناصل الدول الأجنبية يشكرونني على استتباب الأمن والراحة، فأجبتهم، مستغرباً شكرهم، بأني لم أقم وإخواني رجال الأمن العام بأكثر مما يفرضه علينا واجب الوظيفة.

نبل وجيه فرنسي :

طلب ذات يوم رجل قروي، موقوف في سجن يافا، إطلاق سراحه، فأجيب إلى طلبه بإجماع رأي النائب العام وقاضي التحقيق ورئيس المحكمة، الذي كان له آنئذٍ حق الموافقة على قرار إخلاء السبيل أو رده.

وفور إطلاق سراحه، جاءني بصحبة أحد الوجهاء يشكرانني على ما قمت به في سبيل إطلاق السراح، وخطر لي في الحال أن كثيرين من أرباب الوجاهة والزعامة يغتنمون الفرص لجعل ذوي المصلحة مدينين لزعامتهم ووجاهتهم. فرأيت من الحيطة، منعاً لمثل هذا التدخل، أن أجيب المطلق سراحه بالكلمة التالية: (لا حاجة للشكر يا رجل، فأنت مدين للعدالة والقانون دون سواهما، فاذهب بسلام).

لم يكن الوجيه راضياً عن جوابي، لأني لم أشر فيه إلى اهتمامه بشأن القروي المسكين. وقد بلغني بعد ذلك أن الوجيه المومأ إليه التحق بعائلته المصطافة في رام الله مع أمثالها الوجهاء، وبينهم مسيو بورتاليس، من نبلاء الفرنسيين المستوطنين يافا المتآلفين مع أهلها الكرام وعاداتهم ولغتهم العربية.

وبينما كانوا يتحدثون عن التحول السريع الذي طرأ على يافا، من فوضى في الأمن العام، إلى هدوء تام، بعد قدوم النائب العام الجديد، نقل إليهم الوجيه السابق الذكر إطلاق سراح القروي، أحد أخصائه، منتقداً الجواب الجاف الذي صدر عن النائب العام. فما كان من النبيل الفرنسي إلا الرد على الانتقاد قائلاً: (إن البلد بحاجة إلى موظفين من هذا الطراز، يعرفون واجباتهم ويعرّفون المساكين من الأهالي حقوقهم). وطلب من مدير

الفندق أن يقدم، على حسابه الخاص، كؤوس الشمبانيا لجميع الحاضرين فشربوا معه نخب النائب العام. وبعد انتقالي من يافا إلى القدس، كما يأتي إيضاحه في الفصل الثالث، زارني هذا النبيل مهنئاً وتوثقت عرى الصداقة بيننا على الرغم من كبير الفرق بيننا من جهة السن، حين أكدت له أن معظم رجال الدولة في العهد الدستوري يقومون بواجباتهم خير قيام، مشجعين الشباب أمثالي لاقتفاء أثرهم.

ثقة الأجانب بالحكومة :

حين قدم إلى يافا رئيس محكمة القدس جمال بك والمدعي العام جلال بك في يوم الجمعة، لمجرد النزهة، أخبراني، استناداً إلى معلومات تلقياها من أصدقائهما، إن قناصل يافا كتبوا إلى مراجعهم في القدس يثنون على التحول البارز في يافا من القلق والفوضى إلى الهدوء والاطمئنان.

وزارني في مكتبي ذات يوم الوجيه الفرنس روك، الترجمان الفخري لقنصلية فرنسا، وبلغني ثقة القنصل مسيو بيرالدي بالحكومة المحلية بعدما رآه أخيراً من تحول اقترن بالغيرة والجد والانتظام في مختلف دوائرها. وبناء على هذه الثقة، عزم القنصل على التنازل عن حقوقه في الاحتفاظ بالسجناء المغاربة الحائزين الحماية الفرنسية، راجياً قبولهم، في سجن الحكومة، فأشرت إليه بمراجعة رئيس الحكومة المحلية بهذا الشأن. وقد اقترنت المراجعة بقبول الرئيس المشار إليه وإعلان الشكر على هذه النتيجة التي خففت عنه الكثير من المعاملات والمخابرات في هذا الشأن والتي تعد من جملة الوسائل المؤدية إلى تخفيف وطأة الامتيازات الأجنبية.

تلقيت ذات يوم برقيةً من المدعي العام في القدس تتضمن أن أحد المتهمين بالجناية استطاع الفرار إلى يافا للإبحار منها إلى بلد أجنبي، ويوجب عليَّ أن أبذل أقصى الجهود للحيلولة دون سفره ولإعادته تحت الحراسة إلى القدس. ولما علمت من رئيس الشرطة أن المتهم ركب الباخرة الفرنسية التي تتأهب للسفر، استدعيت الصديق روك المذكور راجياً مساعدته في قضاء المهمة. فطلب مني صورة الاتهام ومذكرة التوقيف، ولما كان محقاً في طلبه تعهدت له بالحصول عليها من القدس خلال يومين، راجياً سرعة تحقيق طلبي قبل سفر الباخرة وفوات الفرصة. فأسرع إلى القنصل الذي تلطف وجاء بنفسه إلى وكالة البواخر، ولما كانت الباخرة على أهبة السفر، أمر القنصل بأن يرفع العلم فوراً إشارة إلى ضرورة توقفها. ثم ركب زورق الوكالة مع ترجمانه إلى

الباخرة، حيث استلما من ربانها المتهم وعادا به إليَّ، فأرسلته في الحال تحت حراسة الضابطة العدلية إلى القدس وطلبت من المدعي العام صور الاتهام والتوقيف، فأجابني إلى طلبي شاكراً. وهكذا تسهل المعاملات، إذا اقترنت بالنزاهة وتبادل الثقة بين ذوي الشأن.

المساواة في الملاحقة بين الوطني والأجنبي :

وقع ذات ليلة شجار بين عدة شباب من طبقة واحدة، انتهى بهم إلى المضاربة. فأسرعت الشرطة واحتجزت بعضهم قيد النظارة وأتت بهم في الغد مع ضبط تحقيق إلى النيابة العامة. ولما رأيت أن ترك الآخرين أحراراً قد بني على اعتبارهم من التبعة الأجنبية، استدعيت رئيس الشرطة فوزي بك وأوضحت له ضرورة القبض على الفريقين معاً حين يكونون متلبسين بالجرم المشهود، من دون أن تؤثر في ذلك الامتيازات الأجنبية، على أن تؤخذ بعين الاعتبار بعد تسليمهم إلى القضاء والتحقيق معهم. وشرحت له وطأة تلك الامتيازات على الوطنيين، فإذا كان إلغاؤها يخرج عن صلاحيتنا. فأقل ما يترتب علينا هو حسن معاملتنا العثمانيين فلا يشعرون بالفارق بينهم وبين الأجنبي، فقبل رأيي وعزم على العمل بموجبه.

وبعد أيام، زارني السيد نصري فيعاني، معاون القنصل البريطاني، سائلاً عما إذا كانت خطتي بإزاء الامتيازات الأجنبية هي نفس الخطة التي سار ويسير عليها زملائي في القدس.

فأجبته: (حين يقع حادث يتعلق بأجنبي، تستطيعون الوقوف على خطتي عملياً، دون أن يترتب عليَّ إيضاحها سلفاً). وأردفت قائلاً: (لا تنسَ، يا سيد فيعاني، أن إخوتك المقيمين معك في نفس المدينة عثمانيون فتصور وقوع حادث بين أحدهم وأحد الأجانب تساوى فيه موقفهما، فهل ترضى بأن تقبض الشرطة أخاك من دون خصمه؟).

فأجاب: (كلاً ولكن كيف العمل والامتيازات الأجنبية قائمة)؟ فتابعت كلامي قائلاً: (إن البحث في إلغاء الامتيازات الأجنبية وتعديلها يخرج عن نطاق وظيفتي، التي توجب عليَّ أخذ هذه الامتيازات بعين الاعتبار. ولكني سوف أجعل العثماني لا يشعر بها، بفضل حسن معاملة ضابطة الأمن. كما توجبه القوانين التي نعمل على حسن تطبيقها، متوخين العدالة والمساواة بين الجميع واعتبار الفرد، مهما صغر شأنه، بريئاً إلى أن تثبت عليه

الجريمة أو تستدعي احتجازه [توقيفه]). فشكرني الترجمان على أجوبتي، مؤكداً أن حضرة القنصل سيكون جد مسرور حين يطلعه عليها. هكذا سرت في وظيفتي من دون أن ألقى أي اعتراض أو شكوى عليّ من أحد.

ضحية الجهل:

كان العامل الملاّ (الذي يقتني (الضرف) وهو الظرف من جلد الضأن ينقل بها الماء بالأجرة إلى طالبه) يملأ ضرفه ذات يوم من بئر الجامع. فطلب منه عامل آخر أن يتنحى له عن دوره، فرده، فحلّفه بالنبي، فأصر على تمنعه عن إجابة طلبه، فدفعه الطالب وحل محله فوق البئر. وفي صباح اليوم التالي، ذهب الأول إلى أحد المشايخ وقص عليه ما جرى بينه وبين زميله وأضاف إلى ذلك أنه حين دفعه زميله عن فوهة البئر، شتمه في سره وشتم النبي معه، من دون أن ينطق ببنت شفة. ولكنه بعد أن عاد مساء إلى بيته، تذكر ما فرط منه في سره وخشي عقاب الآخرة واستغفر ربه نادماً، ومع ذلك لم يستطع النوم من تبكيت الضمير وسأل الشيخ قائلاً: (هل يقبل الله توبتي؟) فأجابه الشيخ: (لقد اقترفت إثماً كبيراً لا تحلك التوبة من جريرته). فغادره العامل حزيناً وذهب إلى شيخ آخر عسى أن يجد منه ما يؤمله من رحمة الباري تعالى بعد ندامته. فلم يكن الشيخ الثاني أرأف بحاله من الأول، بل ذهب إلى القاضي الشرعي ونقل إليه الخبر، فأمر الشرطة بجلبه. ولدى استجوابه، أقر بكل ما وقع منه وما فكر به، فاستدعى القاضي الشيخ الأول، فشهد بما سمعه من فم العامل الملاّ، فحكم القاضي عليه بالكفر وبطلاقه من زوجه وساقه إلى المحكمة الجزائية فقامت بالتحقيق، فكان على ما سبق ذكره.

ولما كان جرائم الفضاحة اللسانية، وهي إطالة اللسان بحق الأنبياء العظام يعاقب عليها آنئذ بالاعتقال المؤقت في إحدى القلاع ويعود البت فيها إلى اللجنة المختصة في وزارة العدل، رفعت إليها إضبارة التحقيق، فكانت حمداً لله العلي العظيم أعدل وأعقل من القاضي الشرعي ومحكمة الجزاء، فصدر أمرها بإطلاق سراح الظنين الموقوف اكتفاء بالمدة التي قضاها في السجن.

وفي 22 أيار 1911م، صدر تعديل قانوني يتضمن تحديد عقوبة من يجرؤ على اقتراف الفضاحة اللسانية علناً بحق الأنبياء العظام بالحبس من ثلاثة أشهر إلى ثلاث سنوات.

معرفة القاضي لغة المتقاضين:

لما كان التحقيق والمحاكمة في فلسطين يجريان باللغة العربية، لغة الشعب، كما هي الحال في ولايتي سورية وبيروت، وكان جهل القاضي في بلد عربي، هذه اللغة، لما يحول دون إنجاز القضايا الكثيرة المعروضة لديه بالسرعة المقتضاة، وكان قاضي المحكمة الشرعية في يافا يجهل العربية، فضلاً عما عرف عنه من ضعف الفطنة والذكاء، مما جعله ألعوبة بين مساعديه وأوجب تراكم الدعاوى لديه، لذلك رأيت من مقتضى الإخلاص لفت نظر وزارة العدلية إلى هذا الأمر بموجب لائحة مفصلة رفعتها بواسطة المدعي العام في القدس.

بعد أسبوعين من تاريخ العريضة السالفة الذكر، قدم يافا مفتش العدلية ضيا بك ومعاونه الماس بك، فقاما بمهامهما خلال ثلاثة أيام ورفعا تقريرهما. فكان من نتيجته نقل القاضي الشرعي إلى مثل وظيفته في الأناضول وترفيع رئيس محكمة البداية صادق بك عضواً في محكمة الاستئناف بدمشق وتعيين خلف لكل منهما من رجال القانون العرب. وفي ذلك دليل على إصغاء الوزارة في العهد الدستوري إلى ما كان يعرض عليها في سبيل الإصلاح العام من دون أن تجد في اقتراحي تعصباً للغتي العربية. وقد اطلعت بعد زمن على تقرير المفتشين المشار إليهما. فوجدت فيه من الثناء والإطراء وحسن الشهادة بحق النائب العام فوق ما كان يؤمله أو يستحقه.

الحزبية:

كان في يافا حزبان رئيسان، يسعى كل منهما لتأييد نفوذه لدى الشعب والحكومة، يتزعم أحدهما آل الدجاني وعمر أفندي البيطار، رئيس البلدية، ويتزعم الآخر حافظ بك السعيد والسادة صادق ومحمد علي والشيخ الصاوي والمحامي راغب الإمام. ومن المؤسف أن يؤدي اختلاف الحزبين إلى التقاطع في علاقاتهما الاجتماعية، على الرغم من اتصاف أركانهما بالثقافة العالية والوجاهة البارزة في حياتهم.

أما الحكومة، بمختلف دوائرها الإدارية والقضائية، عدا بعض الموظفين فكانت محافظةً على الحياد النزيه بين الفريقين.

ذات يوم من أيام رمضان المبارك، دخل خنزير يعتني بتربيته صاحبه قنصل إسبانيا منزل فضيلة المفتي توفيق أفندي الدجاني، فغضب أخصاؤه وخدمه من ترك هذا الحيوان النجس طليقاً، فقتله أحدهم فوراً. وغضب القنصل بدوره وشكا الأمر إلى الحكومة،

ونقلت الخبر جريدة تصدر في يافا لصاحبها اليهودي الدكتور مويال، وهو صديق حميم للحزب الثاني ومروج له دعايته. ولكن الجريدة ذكرت عنوان الخبر بصورة مسيئة إلى الذوق والأدب.

وفي منتصف الليل، أيقظني خادم الفندق من نومي بناء على إشارة قائم المقام علي آصف بك، الذي كان ينتظرني في بهو الفندق. فنهضت حالاً وجئت إليه، وكان إلى جانبه قائد الجيش النظامي اللواء عبد الرحيم باشا، الذي جاء يخبر رئيس الحكومة بأن الشعب في هياج بسبب تطاول الجريدة على مفتي الإسلام وبأن تظاهرة كبيرة قادمة تطلب من قائم المقام أن يأمر حالاً بتوقيف صاحب الجريدة اليهودي وحماته اليافيين، مهما علا مقامهم الاجتماعي.

ولما رأيت قائم المقام مضطرباً من هذا الخبر ومتحيراً في أمره، لمعرفته أن حماة صاحب الجريدة اليافيين هم أركان الحزب الثاني، المعارض لأركان الحزب القائم على رأس التظاهرة الشعبية، رجوت منه أن يهدئ من روعه ويأمرني حين وصول طليعة المتظاهرين، بأن أخاطبهم بلغتهم العربية مترجماً ما هو مفروض أن يكون قد قاله لي بلغته التركية، وأن يجيب اللواء على كلام سعادته بأنه مستعد لتنفيذ كل ما يأمر به، فوافقاني على اقتراحي. وعلى الأثر، وصلت طليعة المتظاهرين، فإذا هي نحو خمسين ذاتاً يتقدمهم رئيس البلدية عمر البيطار وعبد الله الدجاني، فكررا ما سبق أن قاله اللواء عن هياج الشعب ومطالبته بتوقيف مويال وحماته فوراً.

وبعد أن أصغيت هنيهةً إلى كلام الحاكم الإداري، ترجمته بصوت جهوري قائلاً: (أن الحكومة في يافا تشاطر الشعب، العزيز على قلبها، شديد استيائه مما نشرته الجريدة بالعنوان الخالي من كل تهذيب وذوق والدال على نفس إمارة بالسوء، وهي ستقيم الدعوى الجزائية غداً على الجريدة وصاحبها وحماتها لإنزال العقوبة التي يفرضها القانون على كل مجرم. ولكن الحكومة لا تسمح بأن يقوم الشعب بأدنى تظاهرة في هذا السبيل، لكي لا يقال إنها لم تكن لتفكر بملاحقتهم لولا التظاهرة. إن الحكومة تعرف واجباتها ولا تقل عنكم غيرةً على الدين ورجاله وعلى الآداب العامة وسترون غداً، لا بعد غد، عملها وتؤمنون بأنها تهتم قبل كل شيء بصيانة الأمن العام والهدوء والسكينة من أي خلل، ولا سيما في هذا الشهر المبارك. فعليكم، أنتم الوجهاء، إفهام الشعب ذلك ليعود إلى منازله هادئاً مطمئناً، واثقاً من سهر الحكومة على إقامة العدل ومطاردة كل مجرم، بل كل مسيء إلى أمن البلد الأمين. وعليكم أنتم زعماء الشعب، أن تحضروا غداً صباحاً إلى مكتب النائب العام، للإدلاء بما عندكم من إثبات بحق كل من أسهم في الجريمة).

وما أن أتممت كلامي حتى نظر قائم المقام إلى اللواء نظرة الآمر، فأجابه بعد أن رفع يده على رأسه إشارةً للتعظيم: (أني مستعد، يا سعادة الحاكم، لتنفيذ كل ما تأمرون به في سبيل المحافظة على الأمن العام).

فانصرف الجمهور شاكرين اهتمام الحكومة بالأمر وعاد السكون والهدوء إلى المدينة. خلافاً لما كان يأمله زعماء التظاهرة من توسط اللواء الطيب القلب وانشرح صدر الحاكم لهذه النتيجة وقضى ليلته ناعم البال.

وصباح الغد، أرسل إلي الحاكم الإداري كتاباً رسمياً يطلب فيه إقامة دعوى الحق العام، فأقمتها لدى قاضي التحقيق. ولكن زعماء التظاهرة أحجموا عن المراجعة والملاحقة، علماً منهم بخفة العقوبة المترتبة قانوناً على ما اقترفته الجريدة وصعوبة إثبات تدخل حماتها الوجهاء في نشر الخبر وسوء نيتهم، ولم يكن هدفهم من التظاهرة سوى إثارة الشعب ليحملوا قائم المقام، بواسطة قائد الجيش النظامي، على اتخاذ تدبير إداري عاجل لاعتقال زعماء الحزب المعارض لهم فيقال: باتوا في السجن ولو ليلةً واحدة، حطاً من منزلتهم الشعبية. بيد أن واجب الحكومة وحيادها بين الفريقين المتناظرين في كل شيء أوجب عليها سلوك الطريق السوي من دون سواه.

الحياة الاجتماعية والسكان:

كان في يافا طبقة راقية، تعود إلى أسر قديمة العهد في يافا أو ممن استوطنوها لأعمال اقتصادية. ومن أركانها، بالإضافة إلى عمدة الحزبين المتعارضين المشار إليهما في البحث السابق، آل عاشور ونابلسي ودباس وخوري وكساب وروك وآلونو وبيروتي وصايغ وفيعاني ومنطورة وظريفة وعرقتنجي وجلاد وتماري، وقد أحرزوا من حضارتهم وثقافتهم مركزاً مرموقاً في المجتمع. أما عامة الشعب فكانت محرومة في الغالب من الثقافة ومن كل تقدم في الحياة الاجتماعية. ينطبق هذا التقسيم على مسيحيي يافا أيضاً وهم أقلية إلا أن الطبقة الدنيا منهم تتمتع بقسط يسير من الثقافة.

ومما لفت نظري أن عدد اليهود والأجانب مجتمعين يقرب من عدد الوطنيين. أما الأجانب، فمنهم نحو ألفين من شمالي إفريقيا، وجلهم من المغرب والجزائر، يتمتعون بحماية فرنسية ويستخدمون حراساً أمناء في بساتين يافا وضواحيها. ومنهم فرنسيون وإيطاليون وغيرهم من مختلف الجنسيات الأوروبية والآسيوية، يقومون بمهام تجارية ومدرسية وقد امتزجوا مع اليافيين وأصبح بعضهم كالمواطن الأصلي لا يفترق عنه في شيء، كالسيدين بورتاليس وفيليبر المتمتعين بمركز اجتماعي بارز.

وأما اليهود، فمنهم مواطنون أصليون لا يتجاوز عددهم ثلاثة أو أربعة آلاف، ومنهم الغرباء وعددهم غير معروف بالضبط، لعدم وجود دائرة إحصاء لدى الحكومة، ولكنه يقدر بثلاثين ألفاً في يافا والقدس المجاورة لها، ومنهم المهاجرون من روسيا ورومانيا وألمانيا والنمسا والمجر ومن اليمن والعراق وبعض الولايات العثمانية وشمالي إفريقيا، مما يدل على أن فكرة الهجرة إلى فلسطين كانت هدف يهود العالم، يغذيها كبارهم بمختلف الصور. وقد ظهر كما يقول الخبراء من اليافيين، إن عدد اليهود المهاجرين إلى يافا قد زاد في العهد الدستوري مما كان عليه في العهد الحميدي بفضل حماية القانون الأساسي حق كل فرد منهم، بالإضافة إلى الامتيازات الأجنبية التي ظلت مرعية في بداية الحرب العالمية الأولى.

وفاء اليافيين:

قبل أن أختم هذا الفصل المتعلق بمدينة يافا، يترتب عليَّ أن أشيد بمكارم أخلاق أهلها وأشير إلى وفائهم ومروءتهم بذكر حادثة واحدة من حوادث عديدة سوف أنشرها في كتاب خاص، مقتصر على نوادر اجتماعية لا علاقة لها بالسياسة والإدارة.

سافر السيد إبراهيم الياس وزوجته من اللاذقية لزيارة الأماكن المقدسة، ونزلا من الباخرة إلى ميناء يافا ودخلا دائرة الجمرك وخرجا منها بسلام، سالكين الطريق الطويلة الضيقة، يرافقهما حمال أخذ على كتفه حقيبتي ثيابهما، قاصدين أحد الفنادق.

وأثناء الطريق قالت الزوجة لزوجها: (ليتنا قمنا بهذه الزيارة حين كان نسيبنا فلان هنا). فسمعها رجل تجاوز الستين من العمر، يوحي ظاهره وحديثه الوقار والاحترام. فتقدم منهما سائلاً عن (فلان) وعن عافيته وأخباره، فأجابته: (أنا عمة والدته، وهو بتمام العافية والتوفيق في وظيفته الجديدة بلبنان، وجئت وزوجي لأول مرة لزيارة القدس، بعد أن نستريح قليلاً في يافا). ظل الرجل يحدثهما حتى وصلوا إلى الطريق المعبدة، فنادى الحوذي الذي استلم الحقيبتين ووضعهما أمامه، ورافق الرجل الزائرين في العربة قائلاً للحوذي: (إلى حي العجمي). ولما وصل بهم إلى المحل المقصود، دفع له أجرته وقرع باب المنزل، ففتحته الخادمة وتناولت الحقيبتين. ولما دخلوا المنزل، قالت السيدة للرجل: (يا سيدي، لا أرى ما يدل على كون هذا البيت فندقاً). فأجابها: (هو (بانسيون) يؤمن راحة المسافرين أكثر مما يؤمنها الفندق).

وبعد تناول الغداء، رافقهما الرجل في نزهة بين ضواحي المدينة، وعاد بهما إلى

(البانسيون) حيث باتا بكل راحة واطمئنان. وقبل أن يغادراه صباحاً سألا صاحبه عن الأجور المستحقة عليهما، فأجابهما: (سأقدم قائمة الحساب في المحطة)، وسار معهما إليها ولما أركبهما القطار، ودعهما قائلاً: (كنتم في ضيافة نسيبكم فلان فحين ترونه قولوا له يسلم عليك كثيراً صديقك قسطه الخوري).

هذا هو الرجل، المعروف عنه في يافا وجميع فلسطين، إنه رجل الوفاء والشهامة يصرف جهوده في سبيل وطنه وأصدقائه لا تفارقه الابتسامة ولا يدع النكتة تفوته في كل مناسبة، يقوم بتكريم شيخين لا يعرفهما على الوجه السالف الذكر، لمجرد سماعه باسم صديق له يرد في حديثهما لبعضهما البعض. هذا مثال حي لنبل الطبقة الراقية في يافا وقد تساءلت حين أدفع بذكرياتي للطبع: (هل بقي في العالم من أمثال ذلك الصديق الوفي الوجيه السيد قسطنطين من آل الخوري الكرام، المدعو تحبباً العم قسطه الخوري؟).

الفصل الثالث

العودة إلى القدس

في مطلع تشرين الأول 1910، تلقيت برقيةً من وزارة العدل تنبئ بتعييني قاضياً في محكمة القدس الاستئنافية الجديدة. وبوجوب إسراعي إليها للقيام بمهام المدعي العام وكالةً، ريثما يعين الأصيل، فلم أتوان عن تلبية الأمر.

شعرت، حين عودتي إلى القدس، بنشاط وارتياح وسررت لوجودي في محكمة الاستئناف مع جهابذة العلم والقانون، الرئيس إبراهيم حقي بك والأعضاء عوني بك الخالدي، خريج معهد الحقوق في الأستانة، والفقيه العلامة الياس بك طراد والحقوقي اللامع الأستاذ عوني اسحق والجزائي المدقق أنطوان بك شلهوب. وهؤلاء الثلاثة من أبرز محامي بيروت، قبلوا الوظيفة مؤقتاً ليتمكنوا من عودتهم لممارسة المحاماة، بعد أن صدر قانون يحصر ممارستها بخريجي معاهد الحقوق وبمن وجد قاضياً استئنافياً مدة سنة أو قاضياً بدائياً مدة أربع سنوات.

وفي فترة وجودي قائماً بمهمام المدعي العام الاستئنافي بالوكالة، تمكنت من ترفيع رفيقي القديم رباح أفندي قربة، معاون مأمور التنفيذ في اللاذقية، إلى سلك القضاة. فعين، بموجب قرار اللجنة العدلية وموافقة الوزراء، مستنطقاً في يافا. فكان موفقاً في

إيفاء الوظيفة حقها وفي كل ما أسند إليه بعدها من وظائف أهلته لرئاسة محكمة البداية في اللاذقية وظل معروفاً بحزمه ونزاهته وصدق وطنيته.

جناية في الحرم الشريف :

كان السياح القادمون لزيارة الأماكن المقدسة ورؤية الآثار القديمة يلقون، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، كل إكرام وعناية من أهل القدس وملحقاتها ومن جميع موظفي الحكومة. وكان يرافقهم في تجوالهم تراجمة من أهل القدس يتقنون اللغات الأجنبية من فرنسية وإنكليزية وروسية وألمانية وإسبانية وغيرها. ولما دخل فريق من السياح الأميركيين الحرم الشريف، نزل ثلاثة أشخاص منهم، بينهم آنسة، الغرفة الصغيرة الكائنة تحت الصخرة الشريفة، وكان فيها آنئذ رجل أفغاني يقيم فرض صلاة العصر.

فحين شاهد الآنسة بحذائها، لم يستطع الصبر، فأخرج من جيبه سكيناً وطعنها بها طعنةً أوقعتها أرضاً. فقبض رفيقاها يدي الجاني وحضر أفراد الشرطة على الأثر، فقادوه إلى قاضي التحقيق حيث أقر باقترافه الجريمة دفاعاً عن حرمة الأماكن المقدسة التي وطئها السياح بأحذيتهم.

قامت القدس وقعدت لهذه الجريمة يومين كاملين، ثم هدأت الحالة بفضل التدابير التي اتخذتها الحكومة لضمان اطمئنان السياح.

كرر الجاني اعترافه أثناء المحاكمة وفي نهايتها أجمعت آراء القضاة الخمسة على تجريمه ولكنهم اختلفوا فيما يتعلق بالأسباب والظروف التي رافقت الجرم، أهي مخففة للعقوبة أم مشددة. فكان رئيس المحكمة وأحد الأعضاء يريان تخفيفها إلى حدها الأدنى، وهو ثلاث سنوات في سجن الأشغال الشاقة، بينما يرى عضوان آخران تشديدها إلى الحد الأقصى وهو خمسة عشر عاماً. وبعد أن اشتد الجدال بينهم حرصاً من كل منهم على العدالة، انبرى أصغرهم معلناً رأيه بأن تكون العقوبة خمس سنوات، لما في أسباب الجريمة ونتائجها من مستلزمات التخفيف والتشديد. فقبلوا اقتراحه وصدر الحكم بإجماع الآراء وكان له حسن الأثر في نظر الحكومة والشعب والسياح معاً.

السفر إلى العاصمة :

عند قدوم مدعي العام الأصيل، ثابرت على معاونته في معظم الأوقات، إلا حين يستدعي نصاب المحكمة وجودي بين قضاتها. ولما لم يبق مانع من استعمال إجازتي

السنوية، وهي شهر كامل، عزمت على قضائها في العاصمة بعد أن أسعدني الحظ برفيق ممتاز هو آصف بك، رئيس محكمة القدس البدائية.

غادرنا القدس معاً بالقطار إلى يافا ومنها بالباخرة إلى بور سعيد، فنزلنا إليها باكراً وتجولنا فيها، إلى أن حلّ ميعاد سفر القطار إلى القاهرة، فوصلناها ظهراً. وفي صباح اليوم الثاني، ركبنا القطار إلى الإسكندرية وكانت قد وصلتها الباخرة نفسها، فعدنا إليها مساءً بسرور ونشاط، ولّدهما في أنفسنا رؤية ابن عمي جبرائيل في القاهرة، حيث رافقنا في زيارة متاحفها وحدائقها ومصر الجديدة (هليوبوليس)، وكانت آنئذ (1911م) في بدء تأسيسها، ثم مشاهدة ابن خالي الرفيق القديم موسى إبراهيم وقرينته الفاضلة في الإسكندرية، حيث تناولنا طعام الغداء في منزلهما العامر تلبية لدعوتهما وإلحافهما. والحق أن مما زاد في سروري هو انشراح رفيق السفر لجزيل الاحترام وإطراؤه الأقرباء.

غادرنا ميناء الإسكندرية على ظهر الباخرة وكان الطقس جميلاً. وفي اليوم الثاني، واجهنا أزمير، ميناء الأناضول الكبير، ثم جزيرة ساقز (شيو) فجزيرة مدللي (متلين) فمضيق جناق قلعة (الدردنيل) إلى بحر مرمرة. وبعد أن اجتازت الباخرة الجزر الصغيرة اللطيفة في مرمرة، أبرقت العيون وأسارير الوجوه برؤية العاصمة الجميلة، بكل ما حبتها الطبيعة من موقع لا يضاهيه حسناً وروعة أي مكان آخر في العالم، ومن أمن وحرية ضمنهما سكان العاصمة المشهورين برفيع التهذيب ولطف المعاشرة، بالإضافة إلى حسن تطبيق القانون الأساسي تحت إشراف حكومة الاتحاد والترقي، فضلاً عما في القسطنطينية من آثار قديمة وذكريات تتجدد نشوتها كلما تكررت زيارتها.

في العاصمة :

نزلت بإرشاد رفيقي آصف بك في فندق «المسرة» في إسطنبول، وهو قريب من الباب العالي ومعظم النظارات. وغير بعيد عن مطعم علي أفندي، وكلا الفندق والمطعم يرتادهما عادةً موظفو الدولة وكبار المتقاعدين لنظافتهما مع ما تستلزمه أوضاعهما الشرقية الراقية من اعتدال في الأسعار بخلاف أمثالهما في بك أو على (بيرا).

قمت في اليوم الثاني من وصولي إلى العاصمة بزيارة صديقي الكبير، معاون رأس المدعين العامين لدى محكمة التمييز العليا، ثم تشرفنا بزيارة أستاذي خيري بك، ناظر الأوقاف، فكان كل منهما على عهدي به من اللطف والالتفات وعظيم النفس والأخلاق، ولا تبدل المناصب العالية من تواضعه وعطفه على الصغير، وقد شجعاني، بصراحتهما المحببة،

على تكرار زيارتهما. وحين تلطف مظهر بك بزيارتي في الفندق، دعاني إلى تناول العشاء معه في مطعم «طوقاتليان» الشهير في بك أوغلي، فامتثلت أمره شاكراً نبيل عاطفته.

لقد ساعدني الحظ بلقاء أصدقاء قدماء، من زوار العاصمة أو المقيمين فيها، فكنت أقضي معهم معظم أوقات فراغي من زيارة الدوائر الرسمية إرواءً لفضول الشباب المنطلق دوماً إلى الإمام.

من العاصمة إلى القدس:

بعد أن ودعت صديقي آصف بك، الذي أراد أن يقضي كامل إجازته بين أهله وخلانه في العاصمة، غادرتها قاصداً مقر عملي، على باخرة فرنسية فيها متصرف القدس الجديد. جودت بك، منقولاً من منصبه السابق، متصرفية طرابلس، وهو كهل لا تفارق الابتسامة وجهه مع رصانة السن والمقام.

ولما وصلت بنا الباخرة إلى ميناء طرابلس، جاء بعض وجهائها، وكانوا على علم بسفر متصرفهم السابق إلى مركز وظيفته الجديدة الرفيعة الشأن، فأحاطوا به مهنئين، وقد لفت نظري من بينهم شيخ جليل كللت المهابة جمال وجهه وطلاوة حديثه، فأخذ يعبر بفصيح بيانه عن شعور إخوانه وما يكنونه من عاطف الإجلال لعطوفة جودت بك، الذي عرف بعضنا ببعض، فإذا أنا أمام العالم التقي الورع الشيخ عبد الفتاح أفندي الزعبي، الجزيل الاحترام، فكان هذا الاجتماع بدء تعشقي طرابلس قبل أن أراها.

لدى وصولنا إلى محطة القدس، وجدناها حافلة بالعساكر النظامية ورجال الأمن العام ومزدانة بالوجهاء من كبار الموظفين والأهلين، الذين قدموا لاستقبال المتصرف الجديد.

عدت في اليوم التالي إلى العمل مع زملائي القضاة ردحاً من الزمن. وما لبث أن تلقيت برقية من الوزارة تنبئ بتعييني نائباً عاماً في طرابلس الشام، فكررت الحمد لله تعالى والشكر لرعاية أولياء الأمور وبادلت الرؤساء والزملاء وجميع الأصدقاء الأوفياء مقتضيات الوداع، حافظاً لكل منهم ما يجب علي من جميل الذكر.

جئت أولاً موطني اللاذقية، حاملاً أدعية غبطة البطريرك داميانوس الجزيل الاحترام وهديته المباركة، وهي وسام القبر المقدس لوالدتي، التي ربتني، وصليبين من ذهب مذخرين بعود الصليب لشقيقتيَّ زلفا وأدما، ومسبحة كهرباء لشقيقي الأمين، فكان فرحهم بلقائي بعد غياب سنة ونصف عظيماً جداً.

وبعد أن قضيت معهم ومع الأقرباء والأصدقاء أياماً معدودة، سافرت إلى طرابلس، مقر وظيفتي الجديدة، متكلاً دوماً على الله ورضا الوالدين ودعاء أختي الأعزاء.

رشيد نخلة منفياً في القدس عام 1913م

حلت نقمة جمال باشا على الأديب والشاعر والسياسي اللبناني رشيد نخلة فحلَّ هو وجماعة من أعيان لبنان في العام 1913م منفياً في القدس[59]، بسبب ما كان يخشاه من شعوره القومي العربي.

ولد رشيد نخله في 6 شباط 1873 وتعلم في مدرسة عين زحلتا ثم في مدرسة سوق الغرب الأميركية. باشر الوظائف كاتب تحرير قائممقامية بلاد الشوف، على عهد الأمير مصطفى أرسلان، في زمن المتصرف نعّوم باشا، ثم في الجندية اللبنانية، فمدير العرقوب الشمالي 1907م خلفاً لوالده، وقائم مقام جزّين 1911م. ثم تولى مديرية دير القمر الممتازة 1914م. وفي 1918 تعين رئيس القلم العربي، ومدير معارف لبنان، فمدير الأوقاف والأديان والمصالح العامة في الجبل، وهذه الوظيفة أنشئت خصيصاً له، وألغيت لما انفصل عنها. سنة 1920 عين مفتشاً للأمن العام وفي سنة 1925 عين محافظاً لصور وبقي في المحافظة خمسة أعوام الى أن أحيل سنة 1930 إلى التقاعد[60]. ومن مؤلفاته: «كتاب المنفى»[61] الذي تحدث فيه عن إقامته في القدس التي كانت تعيش ظروفاً انتقالية صعبة، ورصد في نصه المقتضب بعضاً من أوجه النشاط الثقافي والاجتماعي فيها.

وقد نشر العلاَّمة المرحوم مصطفى مراد الدباغ مقتطفات من كتاب المنفى المذكور في القسم الثاني من الجزء العاشر من موسوعة بلادنا فلسطين. كما قام الدكتور كامل

---

(59) - كانت القدس تستخدم كمنفى إبان حكم المماليك، وقد نفى إليها سلاطينهم العديد من الأمراء الذين كانوا يخشونهم، بعض الشيء، من دون أن يشعروا بأنهم يشكلون خطراً جدياً عليهم، أي أنها كانت منفى لأولئك الذين أراد السلاطين أن يرأفوا بهم، وذلك لقرب المدينة واعتدال جوها. وقد نالت القدس على يد أولئك الأمراء المنفيين الذين كانت تجري عليهم رواتب تقاعدية خيراً كثيراً. إذ أقام هؤلاء العديد من المدارس والمنشآت الكبيرة التي ازدهت فيها القدس في العصر المملوكي وبعده

(60) - د. ميشال خليل جحا، أعلام الشعر العامي في لبنان، دار العودة، دار الثقافة، بيروت

(61) - صدر في بيروت، سنة 1956.

العسلي بإعادة نشر هذه المقتطفات نقلاً عن الدباغ. وقد عدنا إلى الأصل وقمنا باقتطاف ما كتبه الشاعر رشيد نخلة عن القدس وفلسطين في مذكراته التي نشرت في بيروت عام 1956م مستفيدين من ملاحظات العلاّمتين الجليلين الدباغ والعسلي.

كتاب المنفى

بعد أن استقرّ بنا الأمر، في القدس، علما أنّه لا يُراد بنا، وراء ذلك، إلا وجودنا بعيدين من لبنان، وأنّنا أصبحنا (تحت المراقبة)، كما كان يقال في لغة تلك الأيام، ليس لنا أن نخرج، حتى إلى ضواحي المدينة، إلا بإذن من مدير الشرطة.

أمّا في لبنان فقد كانت أخبار السوء تُذاع عنّا في كل مكان. فقيل في بيروت إنّني والأمير فائق شهاب، ومصطفى بك عماد، قد شنُقنا، يوم وصولنا إلى القدس. وقيل في الجبل إنّني قضيت نحبي في الطريق، من سمّ وُضع لي في أكلة، إلى غير هذه الشائعات التي أطلقها مطلقوها، غفر الله لهم، تشفيّاً بنا، وكيداً لنا، فكان أهلنا على قلق لا يُوصف، إذ أنّ رسائلنا من القدس لم تبلغ لبنان إلا بعد أيام طويلة. (فالمراقبة) التركية القديمة معناها مراقبة حقاً، ومعناها، أيضاً، عقوبة حقاً!

وكان مدير الشرطة يقبل علينا في الفندق كلّ مساء، يسأل عنا، واحداً واحداً، ولكن على غاية اللطف والبشاشة. لطف تركي، وبشاشة تركية! فتكون عينك مقرورة، وأذنك في نعيم. أمّا القلب فله أن يقوم ويقعد من شدّة الحذر، وفرط القلق، ما يشاء...

ولقد عيّن مديراً للشرطة، في القدس، بعد أربعة أشهر من وجودنا في المنفى، تركي أسمه شاكر بك أرطوغرول، وكان آية في الرّفق بنا. فقال فيه الأمير فائق شهاب:

(هذا رجل عجيب. فهو إمّا أن يكون أدهى بني قومه في إخفاء ما لا يُبدي. وإمّا أن يكون في قلبه وجع من جمال باشا!).

ولقد صدقت نبوءة الأمير فائق، بعد ذلك بقليل. ففي بعض الأيام رأينا أرطوغرول بك يُسار به من بيته، وهو مكبّل بالحديد. ثمّ علمنا أنه أحيل إلى المحاكمة في الدّيوان العرفيّ، في عالية، حيث حكم عليه بالموت!

أصدقائي في المنفى

أما الأخوان الذين آنسوا طرفي، وأضاؤوا ليالي همّي، فإنّ من الحقّ أن يُشاد بأسمائهم، ويُشدى بذكرهم في هذه الفصول، وفاءً لودادهم، واعترافاً بجميلهم. وهم كثر، خرج فريق منهم من هذه الدّنيا، رحمهم الله، وبقي فريق فيها قرّة للعيون، وهناءً للقلوب، حفظهم الله.

وإنّني أذكرُ منهم في هذا الفصل المرحوم الشيخ علي الرّيماوي، وهو الشاعر الذي جمع في شعره جلال الفصاحة إلى خفّة الدعابة. وكان آية في الظرف، وحلاوة الحديث، وحضور الذّهن، عدا الوفاء، ولطف الشمائل.

والأستاذ إسعاف بك النشاشيبي، الأديب العربيّ المنقطع النظير في فقه اللغة، ومعرفة سنن العرب في الكلام. وهو غاية في الحفظ، بل خزانة من لحم ودم، تتضايق بألف كتاب في البلاغة، والأحاديث، والسير، وعلوم العربية. أما مجلسة فنشر الزهر، وأما وفاؤه فوفاء القطر.

والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي، الرئيس السابق للمجمع العلمي العربي في دمشق. والشيخ من تيجان علماء اللغة في هذا الوقت. ذكور لدقائقها، وعيّ لشواردها، يكاد لا تفوته شاردة، ولا واردة، وهو يحبّ النكتة في المجلس الذي فيه تُرفع الكلفة، فيتزحزح عن وقار العلم، ويسمع عشراؤه منه، حينئذٍ، أحاديث، ولطائف، أخفّ من قطر الندى. كان يجيئني في الزيارة، والى جانبه النشاشيبي، فأحسّ أن الدنيا قد أقبلت علي بالسرور، وبالنعيم!.

والأستاذ السيد محمد حبيب العبيدي، واحد الموصل في العلم، ومفتيها، ونائبها اليوم في البرلمان العراقي. وللعلامة العبيدي شعر في قمّة البلاغة، ومحفوظ من أفحل القول، وحديث بين الرزانة والملاحة، يأخذ بمجامع القلب. وله وفاء. وله إيثار. وقد كان في القدس، يومئذ، متطوعاً في (هيأة العلم النبوي). فلما عقدت أواصر الصداقة بيننا، وفتحت السرائر، وجدت الصديق العبيدي من أبغض خلق الله لتركي مسود على عربي، ومن أشدهم حذراً لجمال باشا، وخوفاً من الدّخول في صحبته. ذلك على أن جمال باشا كان يبذل له كثيراً من اللطف والبشاشة.

والأستاذ خليل السكاكيني، الكاتب اللغوي، المحقق، وصاحب المتعات في علم اللسان. وهو الذي ناظر الأمير شكيب ارسلان في جريدة (السياسة) المصرية عام 1923، في قضية تطور اللغة في الألفاظ والأساليب. وناهيك بمن يتلاقى وأمير البيان في حلبة ميدان!

ومدحت بك، وكان، يومئذ، متصرفاً للقدس. وهو تركي، ابن بيت عريق في السؤدد، في (إزمير). ولقد وثّقت له عهدي، وأعطيته صفقة يدي، لباطن نقيّ، وموثق صحيح، ورعاية جميلة. وكان مدحت بك من أحفلهم في حكومة القدس بزيارة لبناني له، شرط أن لا يتظاهر زائره بما لا تنطوي عليه ضلوعه.... ولقد ظلّت رسائل الوداد تجري بيني وبين مدحت بك حتى انقطعت رسائله عني، فبتّ لا أعرف ما فعلت به الأيام.

والمرحوم حنا أفندي بطاطو، الوجيه المقدسي المعروف، وكان يأدب لنا في كل أسبوع، ونجتمع عنده في أطيب سمر، وأشهى حديث، ونتمتع بحلو شمائله. لقي نحبه، رحمه الله، بعد ذلك في دمشق، وقد جاءها على طلب من جمال باشا، في تهمة حاكها بعض الجواسيس.

فأنت ترى، أيها القارئ، بعد أن طلعت عليك هذه السماء من مصابيح الوفاء، أن أيامي في المنفى لم تكن كلها ظلمات، وأن جمال باشا كان يستأهل، بعد هذا، أن تُنسى أذيّته، وتُشكر يده، وقديماً قال أبو فراس:

وبعضُ الظالمين، وإن تناهى ... شهيُّ الظلم، مغتفر الذنوب!

الأمير فيصل في القدس

بعد مضيّ نحو من أربعة أشهر على مقامنا بالمنفى، سيّر جمال باشا جيشاً عظيماً لفتح ترعة السويس، وذلك في 14 من شهر كانون الثاني سنة 1914. وكان لذلك في القدس يوم مشهود. فما مضت أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بانتصار الزحف العثماني. فأقامت الحكومة معالم الزينة، وخرج الناس إلى الشوارع من السرور والاغتباط. وما هي حتى أدرك أهل المعرفة أن الانتصار مزعوم، وأن الجيش قد لقي ناراً إنكليزية حامية، نكص لها على أعقابه. ثم ذاع، بعد ذلك، أن جمال باشا قد مكر بالجنود العرب في حرب (الترعة)، وذلك أنه جعل فصائلهم في المقدمة، عرضةً للرصاص، ورداً للخطر عن الجنود الترك. وبلغت هذه الشائعة جمالاً، وكان قد دخل المدينة في الليل، عائداً من الوقعة. فلما طلع الصباح وجد الناس، في كلّ مكان، مناشير تحمل توقيع الباشا، وقد جاء فيها ما هذا معناه: إن الشائعة كاذبة من أساسها، وأن القصد منها التفريق بين العناصر العثمانية، وأن الذي يجرؤ على ترويجها يعاقب بالإعدام - أي: لا أقل ولا أكثر!!

فساد القدس ذعر لا يُوصف، وانبثّ الجواسيس يترصدون الناس، ويعدون أنفاسهم.

وكانت الثورة العربية التي استوقدها، بعدئذ، المغفور له الملك حسين بن علي لم تشتعل نارها، وكان المغفور له الملك فيصل لا يزال في مستهل شأنه، لم تنهض له هذه الشهرة العريضة بعد. ففي بعض الأيام، وكان ذلك قبل حرب (الترعة) بقليل، دقّت البشائر في القدس أنّ الشريف فيصلاً بن الحسين قد تقدّم للجهاد طوعاً، وأنه في الطريق إلى القدس، ليوافي فيها جمال باشا. فقامت المدينة وقعدت لبشرى قدوم الأمير العربي الشاب، ونزوله بين ظهرانيها. فلما كان صباح اليوم الذي عينته حكومة القدس موعداً لوصول قطار الشريف، خفّت جماهير الناس إلى المحطة يترقصون من الفرح، ويهزجون باسم فيصل.

ولكن انتظارهم كان عبثاً، فإن ذلك النهار مضى، وجاء الليل، وانتصف، والقطار لما يصل. وفي صباح اليوم التالي وصل الشريف بغتة. فقيل في الجماهير أن جمال باشا قد أرادها هكذا، وأنه لا يطيق أن يرى عرقاً عربياً فيه نبض، وأن الشريف الشاب لم يتقدم للجهاد عن طوع، وأنه جيء به إقصاءً له عن الحجاز. فأوجس الرجل من تلك الأقاويل خيفةً، وأطلق أعوانه يطمسون القال والقيل بالتي هي أحسن، وبغير التي هي أحسن!!

أما المرحوم فيصل فقد كان، مدة إقامته بالقدس، منكمش النفس، كئيباً، قلقاً. رأيته، أول مرة، في (فندق مرقس). فقدمني إليه السيد العبيدي، وراعني منه، وراء الكآبة والانقباض، وقار، وذكاء، ودعة، وحلاوة نفس تأخذ بالقلب. فقلتُ للسيد العبيدي، بعد أن انقلبنا عن مجلس فيصل، رحمه الله.

(لعمرك، لا أدري كيف وقع هذا الحمل في يد الذئب...).

رحلة جرجي زيدان إلى فلسطين عام 1913

في عام 1913م قام الصحفي والكاتب الموسوعي العربي جرجي زيدان برحلة إلى فلسطين شاءت الأقدار أن تكون رحلته الأخيرة قبل وفاته، فوضع نصاً نشره على حلقات في مجلة الهلال القاهرية، حول مختلف أوضاع فلسطين في تلك الحقبة الانتقالية الخطيرة.

وجرجي زيدان أشهر من أن يعرَّف، ولد في بيروت سنة 1861م وتعلم فيها، ثم رحل إلى مصر أواخر القرن الماضي فأصدر مجلة الهلال سنة 1892م، وألف العديد من الكتب المهمة منها (تاريخ التمدن الإسلامي) في خمسة أجزاء 1902 إلى 1907 و(تاريخ آداب اللغة العربية) (4 أجزاء . 1911) كما كتب سلسلة من الروايات التاريخية الشهيرة. وقد توفي عام 1914م أي بعد رحلته إلى فلسطين بعام واحد.

جاء جرجي زيدان إلى فلسطين بالسكة الحديدية من يافا وكان في المدينة في شهر آب 1913 فأقام له أهلها حفل تكريم ألقى فيه الشيخ علي الريماوي[62] قصيدة قال فيها: [مجزوء الكامل]

زيدان يا ربَّ الفضائل واليراعة واللسانْ
يهنيك هذا المهرجان فأنت زين المهرجانْ
ملأت فضائلك الزمان فراح يحمدك الزمانْ
في الشرق لاح هلالك الزاهي فضاء المغربانْ

إلى أن قال:

[62] - علي بن محمد الريماوي 1277 . 1337هـ/ 1860 . 1919م شاعر فلسطيني من بيت ريما. درس في الأزهر ثم درّس الفقه في مدينة روضة المعارف واشتغل بالصحافة في جريدتي القدس الشريف والمصباح. (بلادنا فلسطين 22/10 ص 372 . 373).

العلم والوطن العزيز هما لعمري الجامعانْ

والـدين لله العلـيّ فـإنّ وقـت العلـم حـانْ

يجب التفاهم والتعارف والتقارب والحنانْ[63]

نشر زيدان رحلته على شكل نص متكامل على حلقات في المجلد الثاني والعشرين (1913 ـ 1914) من مجلة (الهلال) ابتداءً من الجزء الأول، ولم يختر شكل اليوميات التي درج الرحالة على إتباعه، فقد قسم نصه إلى فقرات تخص كل فقرة أكثر من مكان في فلسطين، فهو إذن لم يتحدث عن كل مدينة أو منطقة على حدة، ولو أنه خصص جزءاً مهماً من رحلته للحديث عن القدس.

ففي الجزء الأول تحدث عن تاريخ فلسطين بما فيها القدس، وفي الجزء الثاني عن آثار القدس، وواصل ذلك في الجزئين الثالث والرابع. ثم تحدث عن الأوضاع الاجتماعية والدينية، ثم تحدث عن النشاط الصهيوني في فلسطين وخصوصاً في يافا أي تل أبيب، وكذلك في القدس، وقد تنبأ منذ ذلك الوقت بأن الأمور إن سارت على ما هي عليه فإن اليهود سوف يسيطرون على فلسطين. وبعد ذلك تحدث عن أحوال فلسطين العلمية.

ويلاحظ أن جرجي زيدان، شأنه شأن باقي المثقفين العرب في ذلك الزمن كان خاضعاً لوجهة النظر الدينية المتعلقة بتاريخ فلسطين والعالم، وهي رؤية مأخوذة عن المناهج الدراسية التي كان المتعلمون العرب، وخصوصاً المسيحيين منهم، يتلقونها في المدارس التبشيرية التي تعلموا فيها. وهذه الملاحظة أيضاً تقال عن الرحالة المسلمين الذين تلقوا معارفهم من شيوخ ذلك الزمن، حيث كانت تسيطر عليهم أيضاً الإسرائيليات التي كان التعليم الصوفي يشدد عليها.

ولكن أهمية رحلة زيدان تكمن في أنها الرحلة الأولى لصحفي عربي موسوعي يعاين أوضاع البلاد عن كثب، ويضع يده على مواطن الضعف والوهن وينبه إلى الخطر الصهيوني الذي كان واضحاً أمامه بجلاء، وهو بذلك يحذو حذو نجيب عازوري، الذي كان أول من نبه إلى هذا الخطر الذي كان يتهدد فلسطين خصوصاً والأمة العربية بشكل عام. وقد لمس مكمن المقاومة الحقيقية لهذا المشروع الصهيوني وهو سلوك طريق العلم والتحصيل ومنافسة اليهود في التنظيم والتعليم والنشاط.

(63) ـ عن الدباغ، المصدر السابق ص 373.

فلسطين تاريخها وآثارها
وسائر أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية
من رحلة لصاحب الهلال هذا العام [1913]

أولاً ـ فذلكة تاريخية

تشتمل فلسطين على وادي الأردن وما يليه نحو الغرب إلى شواطئ البحر المتوسط. وأشهر مدنها بيت المقدس والخليل (حبرون) ونابلس ويافا وغزة وغيرها. وقد اختلفت حدودها باختلاف الدول مما لا محل له هنا. وهي من أقدم ممالك التمدن الشرقي القديم. وقد تقلبت على أطوار تاريخية مختلفة واشتركت في كثير من الأحوال السياسية التي انتابت مصر وفينيقية. ويقسم تاريخها إلى أعصر تبدأ قبل التاريخ وتنتهي بدخولها في سيادة العثمانيين ولا تزال.

1 - أحوالها قبل التاريخ

يؤخذ من بعض آثارها البنائية أنها قضت بضعة آلاف سنة في أثناء العصر الحجري، ومن آثار هذا العصر أطلالٌ قديمة على مقربة من بيت المقدس شمالاً تعرف بقبور بني إسرائيل. ومن أمثالها كثير في بقايا فلسطين القديمة.

وأما سكان فلسطين القديمة فأقدم من ذكرهم التاريخ الحويون والفرزيون واليبوسيون والعمالقة والمديانيون والأميميون والزوزميون والرفائيون وغيرهم ممن ذكرتهم التوراة. وإنما نعرف من أحوالهم ما جاء عرضاً في بعض النصوص إلا العمالقة فقد بينا ماهيتهم في كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام (صفحة 38 ج1).

ولما جاء الإسرائيليون فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وجدوا فيها أناساً طوال القامات في جوار الخليل (حبرون) سموهم الرفائيين. ومعهم الحثيون وهم أمة

ضخمة كان لها شأن عظيم في ذلك العهد حاربها الفراعنة وتغلبوا عليها. وقد عثر النقابون على آثارها في سوريا وآسيا الصغرى. وجاء في التوراة أن العبرانيين طاردوا هذه الأمم ولم يبق منهم إلا بقية في غزة وأشدود وغات.

وبالجملة فالأمم التي عمرت فلسطين قبل التاريخ قلما نعرف شيئاً عن أصولها، ولكن أكثرهم من الساميين بينهم قبائل من العرب نزحوا إليها من أقدم أزمنة التاريخ. ولعل بعضهم جاءها من عهد حمورابي، فمن بعده إلى الأنباط قبيل التاريخ المسيحي. والمظنون أن الساميين القدماء تغلبوا على الفلسطينيين الأصليين[64] بأسلحة من البرونز كانوا قد توصلوا إلى استخدامها، وكان الفلسطينيون لا يعرفون غير الأدوات الحجرية فغلبوهم على ما في أيديهم. ولم يبق إلى زمن موسى غير الرفائيين [العماليق].

ويظهر من تدبر أحوال فلسطين القديمة وتفحص آثارها أنه حدثت فيها نهضة عمرانية قبل موسى ببضعة قرون، أي نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد. إذ عثروا على آثار من بقايا ذلك العصر بينها أدوات خزفية ليست من الآثار الوطنية. وكان الباحثون في شك من أمرها. ثم تبين لهم أنها تشبه أدوات عثروا عليها مؤخراً في أنقاض جزائر بحر إيجة ولاسيما كريد [كريت]. فاستدلوا بذلك وبغيره على نزول الكريديين بلاد فلسطين نحو القرن العشرين قبل الميلاد وأنهم نقلوا تمدنهم إليها.

وكان الاعتقاد الشائع أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا أحرف الهجاء كما بينا ذلك في [مجلة] (الهلال) غير مرة، لكن الاكتشافات الأخيرة في كريد وضعت شكاً في ذلك، لأنهم وقفوا هناك على نقوش بقلم كالقلم الفينيقي، أقدم مما وقفوا عليه بفينيقية بعدة قرون[65].

وعلى كل حال، فالراجح أن التمدن الفلسطيني القديم جاءها من جزائر اليونان مع النازحين إليها من أهلها، ومازال اليونان ينزحون من جزائرهم إلى شواطئ البحر المتوسط من أقدم أزمنة التاريخ حتى الآن. وإذا كانوا قد جاؤوها فاتحين فهو أقدم فتح غربي في بلاد الشرق[66].

---

(64) - هذه مغالطة تاريخية لأن الكنعانيين والعموريين، وهم ساميون كانوا في فلسطين قبل موجة شعوب البحر التي تسمى الفلسطيين

(65) - هذا ما حاول علماء الآثار في ذلك الزمن من أواخر القرن التاسع عشر إثباته عبر الزعم بأن الأبجدية أتت من الجزر اليونانية، ولكن اكتشاف أبجدية أوغاريت في رأس شمرا قرب اللاذقية عام 1930 من قبل عالم الآثار الفرنسي كلود شيفر دعم نظرية أن الفينيقيين الكنعانيين هم أول من اخترع الأبجدية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

(66) - مبالغات كان يسوقها بعض المستشرقين العنصريين أثبتت الحفريات الأثرية بطلانها.

2 - فلسطين في سلطة العبرانيين

أما تاريخ فلسطين بعد التاريخ فأقدم ما عرف منه علاقاتها مع وادي النيل بالتجارة والسياسة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وعلى الآثار المصرية نقوش تؤيد ذلك بينها أسير فلسطيني عثروا على صورته منقوشة في هيكل رعمسيس الثالث بمدينة آبو.

ثم جاء العبرانيون في زمن موسى والفلسطينيون قد أضعفهم الترف وأخذت منهم حضارة كريد كل مأخذ وآن زوالهم. فغلبهم العبرانيون واستولوا على بلادهم وأنشؤوا فيها دولة اشتهر من ملوكها داود وسليمان في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ولكل منهما آثار في بيت المقدس سيأتي الكلام عليها. ثم انقسمت مملكتهم إلى ممالك أشهرها يهودا في أوائل القرن العاشر ولكل منها تاريخ لا محل له هنا. وعاصمتهم الكبرى أورشليم أو القدس أو بيت المقدس[67].

وللعبرانيين أو اليهود تأثير خالد في أحوال العالم قديماً وحديثاً، نعني ما خلفوه من الشرائع والتقاليد، وهي أساس أشهر أديان العالم حتى الآن. وفي أيامهم شاع استعمال الحديد في فلسطين. وظهرت الأحرف الهجائية وانتشرت في العالم المتمدن على أيدي جيرانهم الفينيقيين. وزها الأدب في زمن داود وسليمان. وكان هذان الملكان أولهما شاعر والثاني مؤلف. فإن مزامير داود من أحسن الشعر العبراني. وكتاب الأمثال من أفضل كتب الأدب والحكمة، غير ما لسليمان من الأقوال الشعرية في نشيد الأناشيد والجامعة كما هو مشهور. واشتهر غيرهما في الحكمة والأدب حوالي ذلك العصر ذكروا منهم عيثان وهيمان وكلكول ودردا. وارتقت هندسة البناء في أيام العبرانيين وأحسن مثال لذلك هيكل سليمان. وقد احتفروا قناة يحمل فيها الماء من عين العذراء إلى بركة سلوان. وهناك كثير من ثمار هندسة البناء عندهم. لكنهم لم يتقدموا في الصنائع الأخرى. فصناعة الخزف مازالت كما نقلها الكريديون تماماً[68].

وكان سليمان ذا همة ومطامع فأحب الاقتداء بالفينيقيين في التجارة والاستعمار، ولم يستطع مباراتهم في البحر المتوسط فوجه عنايته إلى البحر الأحمر، فأنشأ فيه أسطولاً حمل إليه الذهب من أوفير وغيرها، وجاءت إليه منها ملكة سبأ.

---

(67) - هذه المملكة مذكورة فقط في التوراة، ولم يثبت وجودها في أي نص تاريخي أو حفريات أثرية حتى الآن.

(68) - كل هذه الآثار هي آثار افتراضية مذكورة في كتاب العهد القديم، لم يعثر حتى الآن على أي حجر منها.

3 - من السبي إلى ظهور الإسلام

ولما انغمس العبرانيون في الترف وتبسطوا في الحضارة، جاءهم الآشوريون وغلبوهم على بلادهم وحملوهم إلى بابل في أوائل القرن السابع قبل الميلاد. وظلوا في الأسر هناك نحو سبعين سنة، تغيرت في أثنائها أحوالهم ونشأ منهم جيل جديد يختلف عن الأجيال السالفة، فتغير لسانهم وتنوعت آدابهم. وأخذوا بعد رجوعهم إلى بلادهم يلمون شعثهم ويدبرون شؤونهم فأصلحوا أورشليم. وضبط لهم عزرا الكاهن كتب الشريعة كما وصلت إلينا. ولم يمض زمن حتى جاءهم الإسكندر المقدوني فسلموا إليه سنة 333 ق.م وأصبحوا من ذلك الحين يخضعون لمن تغلب على سوريا أو فلسطين.

فدخلوا سنة 320 ق.م في سلطة بطليموس سوتر صاحب مصر. ثم استولى عليهم انتيغونس صاحب الشام. وقام النزاع بين سوريا ومصر على فلسطين وانتهى بعد مئة سنة. وفي سنة 175 ق. م عزم أنطيوخوس أبيفانس على محو ديانة اليهود. وأن يعوض عنها بآداب اليونان. فتصدى له المكابيون وحاربوه وانتهى أمرهم معه سنة 142 ق. م باستقلال مملكة يهودا تحت سلطتهم الدينية يتولاها كاهنهم الأعظم. ومازالت كذلك إلى سنة 63 ق.م إذ حمل عليها بومبيوس الروماني وفتحها. ثم تمكن هيرودوس بمساعدة الرومان من الاستيلاء على أورشليم. ونصب نفسه ملكاً عليها سنة 37 ق.م تحت رعايتهم.

وتوفي هيرودوس سنة 4 ق.م فتنازع السلطة جماعة من أهله فاغتنم الرومان تنازعهم وأيدوا سلطانهم فيها. فخضع اليهود مرغمين، لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الثورة فغضب الرومان وحاصروهم في أورشليم على زمن طيتس حصاراً اشتهر في التاريخ. وثبت اليهود في حصارهم هذا ثباتاً بيناه في [مجلة]الهلال (صفحة 136 سنة 20)، ولم ينفعهم الثبات، فغلبهم الرومان وهدموا بلدهم وتشتت شمل اليهود من ذلك الحين، وخضعت أورشليم للرومان خضوعاً تاماً، ومازالت في سلطتهم حتى ظهر الإسلام في أوائل القرن السابع للميلاد.

واصطبغت فلسطين في قرونها الأخيرة قبل الإسلام بالصبغة الرومانية والآداب اليونانية، وبذل الرومانيون جهدهم في طمس آداب اليهود وشريعتهم، وهدم هدريان هيكل سليمان وبنى على أنقاضه هيكلاً باسم جوبيتر. ويقال إنه بنى هيكلاً على اسم الزهرة. وتقلبت على الهيكل أحوال أخرى سيأتي ذكرها في مكانه. وإنما نريد الإشارة إلى رغبة الرومان في اضطهاد اليهود وتذليلهم حتى أخرجوهم أخيراً من مدينتهم، كما رأيت،

فنزحوا إلى طبرية وأقاموا فيها، ودونوا هناك كثيراً من آدابهم وأخبارهم وأحكامهم غير ما كانوا دونوه في أورشليم.

وفي فلسطين كثير من الآثار الرومانية؛ كالطرق الحجرية، وأسماء بعض البلاد: مثل نابلس وبانياس وسفسطية وطبرية وغيرها. ناهيك باللغة اليونانية فإنها شاعت شيوعاً عاماً في أكثر الطبقات. وانتشرت الصناعة اليونانية وخصوصاً الفسيفساء في أكثر الأبنية بالمدن والقرى.

وفي أثناء ذلك ظهرت النصرانية وتنصر إمبراطور القسطنطينية وأخذ المتنصرون يحجون من أوروبا إلى أورشليم وفي مقدمتهم الإمبراطورة هيلانة. وهي التي اكتشفت قبر المسيح وعينت مكانه سنة 326م، وأقدم من كتب خبر ذلك رحالة مجهول الاسم جاء من بوردو سنة 333م، ووصف ما شاهده في بيت المقدس من الآثار. ولما انقسمت المملكة الرومانية إلى قسميها الشرقي والغربي سنة 394م دخلت فلسطين في القسم الشرقي وتحولت صبغتها اليهودية إلى صبغة مسيحية، وتكاثرت فيها الكنائس والأديار ولاسيما في زمن جستنيان نصير النصرانية ومحيي معالمها. ولم يحدث في أورشليم في أثناء ذلك ما يكدر الأهلين إلا حمل كسرى أنوشروان على فلسطين سنة 616 ثم عاد عنها ومازالت في حوزة الروم حتى فتحها المسلمون.

فلسطين بعد الإسلام

استولى المسلمون على فلسطين في صدر الإسلام. وقد دخلت أورشليم[69] أو بيت المقدس في حوزتهم صلحاً، يختلف استيلاؤهم عليها عن سائر بلاد سوريا وفلسطين أن أهلها لم يرضوا بتسليمها إلا بوجود عمر ابن الخطاب [ﷺ]. فجاء الإمام عمر بنفسه من المدينة إلى أورشليم، وعقد الصلح على يده وأصبحت أورشليم في حوزة المسلمين من ذلك الحين.

ولما استولى المسلمون على فلسطين تنفس اليهود الصعداء وعادوا إلى الاطمئنان، وكانوا عوناً للعرب في ذلك الفتح لأنهم كانوا ناقمين على الروم[70]. لكنهم قاسوا بعض الاضطهاد من بعض الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء.

---

[69] - كان اسمها إيلياء عندما فتح المسلمون فلسطين، وهذا الاسم مثبت في العهدة العمرية، وهو اسم أطلقه الرومان في عهد هدريان إيليا كابيتولينا.

[70] - هذا الكلام غير صحيح فاليهود ناوؤوا المسلمين وامتنعوا في بعض المواقع، مثل قيسارية، ونصت العهدة العمرية على أن لا يسكنوا في القدس، والمؤرخ البلاذري يذكر هذه الحوادث بالتفصيل في كتابه فتوح الشام

وتوالى على بيت المقدس ما توالى على غيره من بلاد الشام في حوزة المسلمين، وظلت كنيسة القبر المقدس في أيدي النصارى كما كانت من قبل. لكن المسلمين استخدموا هيكل سليمان[71] فبنوا في وسطه قبة عظيمة عرفت بقبة الصخرة، بناها أولاً عبد الملك بن مروان، ثم جددها غيره ولا تزال باقية إلى الآن. وبنوا في جانب آخر من الهيكل مسجداً سموه المسجد الأقصى وسنعود إلى وصفهما.

وأهم ما حدث هناك بعد الإسلام «الحروب الصليبية»، وهي عبارة عن اتحاد ملوك أوروبا وأمرائها في الأجيال الوسطى وحملهم على الشرق لتخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين. فاجتمعت كلمتهم على هذا العمل على الرغم مما كان بينهم من التنازع والتخاصم، كما اتحدت كلمة العرب الجاهلية في نصرة الإسلام، بعد أن كانوا قبائل متفرقة. لكن الإفرنج لم يطل نجاحهم ولا ثبتت قدمهم لأسباب كثيرة: من أهمها أنهم لم يخلصوا في اتحادهم، ولا كانت لهم أخلاق أولئك العرب. فتح الإفرنج بيت المقدس وأقاموا فيه نحو قرن حتى أخرجهم منه صلاح الدين سنة 1187م.

ولم يتم خروجهم من فلسطين كلها إلا سنة 1248م، وقد خلفوا فيها كثيراً من الآثار البنائية والآداب اللاتينية، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة هناك حتى الآن.

وعادت فلسطين بعد خروج الصليبيين إلى الدولة الأيوبية، ومن خلفها من السلاطين المماليك بمصر. ومازالت في حوزتهم حتى فتحها العثمانيون سنة 1516م على يد السلطان سليم الفاتح، وأصبحت من ذلك الحين ولاية عثمانية ولا تزال.

على أنها قاست أثناء سيطرة العثمانيين، كلها أو بعضها، منازعات بسبب بعض رجال المطامع طلاب السيادة مثل: فخر الدين المعني، وعلي بك الكبير، وأحمد باشا الجزار، والشيخ ضاهر العمر[72]، ونابليون الأول، وإبراهيم باشا بن محمد علي، وغيرهم مما لا محل له هنا.

وآخر ما أصابها من الطوارئ الاجتماعية والاقتصادية، قدوم الإرساليات الدينية النصرانية لإنشاء المدارس ونشر التمدن الحديث. ثم عود اليهود إلى استعمارها كما سنبينه في مكانه.

---

[71] - هيكل سليمان المفترض دمر على يد الآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد، وبنى هيرودوس الأدومي العربي هيكلاً وثنياً.

[72] - من الغريب أن يجمع الكاتب بين ظاهر العمر ونابليون وأحمد باشا الجزار ويضعهم على قدم المساواة؟!!

ثانياً - آثارها

أكثر بلاد فلسطين آثاراً القدس وأكثر آثارها دينية. ولها أهمية كبرى لأنها حج أرباب الأديان الإلهية الكبرى من أقصى أقطار العالم. فنبدأ بها ونقدم الكلام بفذلكة في إقليمها وموقعها.

القدس

إقليمها

هي أشهر مدن العالم لقدم عهدها ودخولها في التاريخ المقدس، وعلاقتها بأديان الأمم المتمدنة. وهي أورشليم التوراة، وتدعى أيضاً بيت المقدس والبيت المقدس.

ولها تاريخ طويل جاء ملخصه في كلامنا عن تاريخ فلسطين في الهلال الماضي. وكنا قبل شخوصنا إليها ونحن في يافا؛ نتوقع أن نلقاها حارة الإقليم، قياساً على ما نعرفه من المدائن السورية. وهو الغالب في مدن السواحل. وإنما جذبنا إليها ما حوته من الآثار الهامة. فركبنا إليها القطار الحديدي من يافا، ولم نكد نتوسط الطريق، حتى رأينا القطار يجري صعوداً في جبال كثيرة الشبه بجبال لبنان. وقد هب النسيم عليلاً منعشاً كأننا بين عاليه وبحمدون. وشكل الجبال في هذا الطريق كثير الشبه بما في لبنان، وفيها الفاكهة من العنب والتين والخوخ وسائر الأثمار، وإن كانت في حاجة إلى العناية لاستثمارها، مما سنعود إليه في كلامنا عن الحالة الاقتصادية.

أشرفنا على القدس، فإذا هي واقعة على مرتفعات جبلية حولها أودية شهيرة في التاريخ. وتحيط بالأودية جبال أسماؤها على ألسنة الأطفال في المدارس، لكثرة ورودها في التوراة. فاستلفت انتباهنا أولاً لطافة نسيمها وجفاف إقليمها، ولا عجب فإنها مرتفعة عن سطح البحر مثل ارتفاع عاليه في لبنان، فيرى المصريون فيها مصيفاً جميلاً لا يخافون فيها حراً. وإنما يفضلها لبنان بالمياه المتدفقة من ينابيعه الباردة، وأما ماء القدس فإنه مجموع في الصهاريج من مياه المطر. والينابيع نادرة فيها.

والمدينة على مرتفع أصله بضع تلال، لكنه الآن كالتل الواحد مكسو بالأبنية، ويحيط بالمدينة من أكثر جهاتها الأودية إلا من الشمال حيث امتدت الأبنية الحديثة.

فيليها من الجنوب والغرب وادي ابن هنوم ويسمى وادي الرباب، وفي الشرق وادي

قدرون أو وادي ستي مريم، ووادي يهوشافاط. وأشهر الجبال المحيطة بتلك الأودية جبل الزيتون في المشرق، يفصله عن القدس وادي قدرون ووادي ستي مريم.

والقدس القديمة تشبه المربع المنحرف، محاطة بسور من بناء السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للميلاد. ارتفاعه 38 قدماً، ومحيطه نحو ميلين ونصف. له ثمانية أبواب بعضها مقفل منذ أجيال، وشوارع المدينة ضيقة مرصفة بالحجارة على طريقة الترصيف في ذلك العصر، وهي مقسومة إلى أحياء باعتبار الطوائف والعناصر. ولكل منزل صهريج تجمع فيه مياه الأمطار، وقد أخذ أهل هذا العصر بالبناء خارج السور. وأكثر أبنيتهم في الشمال وما يليه، بينها قصور وحدائق على النمط الحديث. وأهم أبنيتها الأديار والمعابد والمزارات حتى يصح أن يقال أنها «معبد كبير».

سكانها عددهم نحو 90000 نفس، منهم 60000 إسرائيليون[73]، ونحو 12000 من المسلمين و18000 من المسيحيين بوجه التقريب، يقسمون إلى أمم شتى وسنعود إلى ذلك في كلامنا عن الحالة الاجتماعية والعلمية.

آثارها

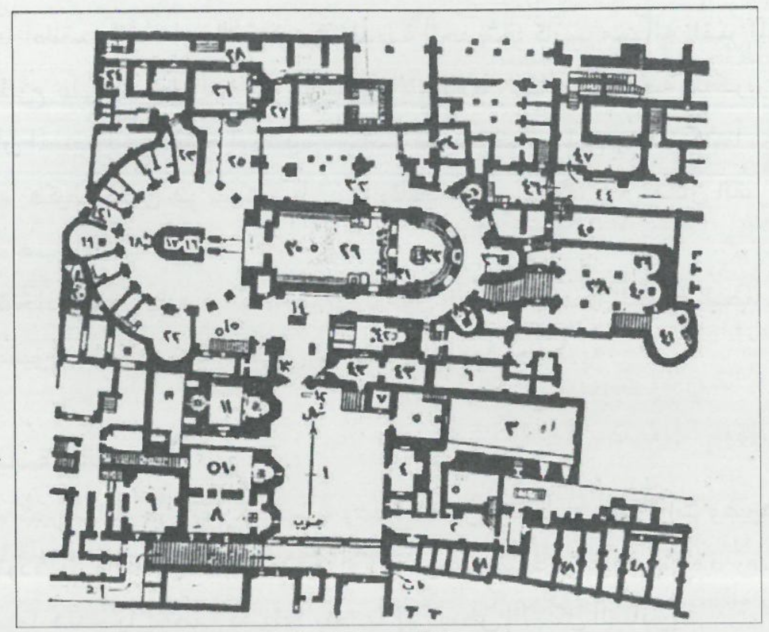
وفي القدس آثار كثيرة، حتى تكاد لا تجد فيها مكاناً ليس له ذكر تاريخي في التوراة أو غيرها. وكثير من روايات القوم عن تلك الآثار يحتاج إلى تحقيق لا محل له هنا، وأشهر الآثار وأهمها كنيسة القيامة حج المسيحيين، والحرم الشريف حج المسلمين فنقدم الكلام فيهما:

كنيسة القيامة

هي بناء قديم ضخم واقع في نحو منتصف المدينة القديمة مع ميل قليل نحو الشمال والغرب. وقد اشتهرت هذه الكنيسة وزادت أهميتها لوجود قبر المسيح فيها ويسمى القبر المقدس. والعلماء مختلفون في هل هو قبر المسيح حقيقة؟ أي هل هذا هو المكان الذي قبر فيه المسيح بعد صلبه، كما جاء في الأناجيل؟ وأما العامة فإنهم على ما تسلموه من آبائهم بلا بحث. وقد تسلسل هذا الاعتقاد في زمن الملكة هيلانة والدة الملك قسطنطين، لأنها جاءت إلى القدس وبحثت عن قبر المسيح فوجدت الصليب وبنت كنيستين هناك سنة 336م، وتوالى على هذا القبر وما بني حوله من الكنائس والمزارات تاريخ طويل.

---

[73] - يقصد يهود، وهذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً، وهي تضم الحجاج.



خريطة كنيسة القيامة

1- ساحة الكنيسة قبل مدخلها
2- دير إبراهيم
3- دكاكين أورام
4- مصلى الأرمن
5- كنيسة قبطية للقدس ميخائيل
6- كنيسة الأحباش
7- كنيسة مريم المصرية (تحت) كنيسة آلام العذراء (فوق)
8- كنيسة مار يعقوب للروم
9- كنيسة القديسة تقلا
10- كنيسة مريم المجدلية
11- كنيسة الأربعين شهيداً
12- قبر فيليب دويني
13- مجلس الخفر المسلمين
14- حجر المسيح أو الدهن
15- حجر مشاهدات المسح
16- مصلى الملائكة
17- القبر المقدس نفسه
18- مصلى القبط
19- مصلى السريان
20- حجرة في الصخر
21- ممر إلى قاعة الأرمن
22- الجناح الجنوبي
23- الطريق إلى الصهريج
24- صهريج القديسة هيلانة
25- مدخل الكنيسة الآخر
26- كنيسة ظهور الروح
27- كنيسة اللاتين
28- دير اللاتين
29- كنيسة الروم أو نصف الدنيا
30- مركز العالم
31- مجلس البطريرك الأورشليمي
32- الخورس
33- جناح كنيسة الصليبيين
34- حبس المسيح
35- مصلى القديس لونجيليوس
36- مصلى اقتسام ثياب المسيح
37- مصلى الازدراء
38- مصلى الإمبراطورة هيلانة
39- مصلى اللص التائب
40- مصلى مذبح الإمبراطورة
41- مصلى وجود الصليب
42- مصلى نصب الصليب
43- مصلى تسمير الصليب
44- المدخل من السوق
45- دير الأحباش
46- مدخل دير الأحباش
47- مدخل صهريج هيلانة
48- الملجأ اليوناني

فلما أطلقت الأفكار والأقلام في المدينة الحديثة؛ كانت مسألة القبر المقدس من جملة ما طرح على بساط البحث. ولا يزال الاختلاف سائداً. وحجة المنكرين أنه القبر الحقيقي أن المسيح دفن خارج أورشليم، وكانت قديماً أكبر مما هي الآن كثيراً. والقبر الآن في أواسطها فكيف يكون هو نفسه؟ وأخذت طائفة منهم يبحثون عن مكان القبر الحقيقي، فذهبوا مذاهب مختلفة.

وأصحاب القول بأنه القبر الحقيقي يوالون البحث في هذا السبيل أيضاً، ولا يتسع المجال لتحقيق هذا الأمر هنا فنكتفي بوصف القبر وما يحيط به.

كنيسة القيامة :

بناء كبير مؤلف من القبر المقدس، وعدة كنائس ومصليات ومزارات وغيرها. بعضها للروم الأرثوذكس، والبعض الآخر للاتين أو الأرمن أو القبط أو غيرهم، وقد رسمنا أجزاء القيامة رسماً هندسياً لتتضح نسبتها بعضها إلى بعض [الشكل السابق].

ونبدأ بالباب الخارجي من جهة الجنوب:

أول شيء يراه المقبل على هذه الكنيسة واجهتها الجنوبية، وبين يديها [أمامها] ساحة مرخمة ببلاط ضخم، يظهر من بقاياها أنها كانت كالرواق العريض القائم على الأعمدة. وهي مربعة الشكل مستطيلته، ضلعها الشمالي واجهة الكنيسة وهو يقابل القادم إليها، والجنوبي يلي الطريق، عليه بقايا أعمدة من رخام. وضلعها الشرقي إلى يمين المقبل وفيه دير إبراهيم ومصلى الأرمن وكنيسة القديس ميخائيل للقبط، وضلعها الغربي فيه كنائس القديس يعقوب ومريم المجدلية والأربعين شهيداً وغيرها.

وأما الواجهة؛ ففيها باب يدخل منه إلى الكنيسة عليه نقوش رومانية وعربية، وبعد دخول الباب إلى اليسار مقعد يجلس عليه خفراء مسلمون من قبل الحكومة، وأول شيء يقابل الداخل حجرٌ مربع مستطيل طوله سبعة أقدام وعرضه قدمان. لونه أصفر محمر يسمى حجر الدهن أو المسح، يقال إن جسد المسيح وضع عليه وحنطه نيقوديموس.

وإلى مسافة 33 قدماً نحو الغرب حجرٌ آخر يقال إن النساء وقفن عنده وقت التحنيط. وقد تداول امتلاك حجر المسيح أو الدهن طوائف مختلفة من النصارى، فكان في القرن الخامس عشر خاصاً بالأقباط، وفي القرن السادس عشر صار إلى الجورجيين (الأرمن)[74] ودفع اللاتين 5000 غرش لنيل حق إيقاد المصابيح فوقه، ثم صار إلى اليونان

[74] - الجورجيون أو الكرج غير الأرمن ولو أن الأمتين متجاورتين في جنوب جبال القفقاس.

لكن الطوائف الأخرى لها حق إيقاد الشموع أو المصابيح فوقه، فتجد هناك عدة مصابيح للأرمن واللاتين والروم والأقباط.

القبر المقدس

ويمشي الزائر نحو اليسار بضع عشرة خطوة، إلى بقعة مستديرة في وسطها بناء عال فوقه قبة، قطره 65 قدماً ويحتوي على القبر المقدس. والبناء المذكور مبني من قديم الزمان لكن الموجود الآن منه تم سنة 1810م، وهو قائم على 18 عموداً متصلة من أعلاها بأقواس في أتقن ما يكون. واجهته التي فيها الباب متجهة نحو الشرق مقابل الكنيسة الخاصة بالروم الأرثوذكس نصف الدنيا.

وإذا تأملت تلك الواجهة أدهشك كثرة ما فيها من أدوات التكريم والتعظيم، كالقناديل والمصابيح الذهبية والشموع الضخمة والرايات المقدسة، والصور عليها الحلي من الذهب والفضة تملأ الواجهة إلى أعلاها.

وفي أسفل تلك الواجهة مدخل ذلك البناء إلى الضريح، يستطرق إلى فسحة كالغرفة طولها 26 قدماً وعرضها 17 قدماً مثمنة الشكل جدرانها من الرخام. تم بناؤها سنة 1810م، وهي تنتهي إلى حجرة تسمى مصلى الملائكة طولها 11 قدماً وعرضها 10 أقدام مصفحة بالرخام. وقد تعلق في سقفها قناديل من ذهب عددها 15 قنديلاً: خمسة منها لليونان، وخمسة للاتين، وأربعة للأرمن، وواحد للأقباط. وفي وسط هذا المصلى حجر يعتقدون أنه الحجر الذي دحرجه الملاك عن القبر.

ويدخل من هذا المصلى في باب ضيق إلى حجرة الضريح وفيها القبر نفسه؛ طوله ستة أقدام ونصف، وعرضه نحو أربعة أقدام، سطحه من رخام جميل. وسقف الضريح قائم على أعمدة ويتدلى منه 43 قنديلاً من الذهب، منها 4 للأقباط والباقي مقسوم بين الطوائف الأخرى على السواء. وعلى جدران تلك الحجرة نقوش تمثل بعض حركات المسيح كل منها لطائفة من الطوائف المشتركة في تكريم هذا المكان، وفي هذه الحجرة تتلى الصلاة كل يوم وهو أقدس مكان في كنيسة القيامة.

وفي سفر لوقا أن المسيح دفن في قبر من حجر، ويقال إن هيلانة لما بحثت عن قبر المسيح وجدت هناك كهفاً بنت فوقه مصلى. ولما ملك الصليبيون بيت المقدس كان شكل المكان مستديراً وفيه حجرتان: الخارجية منها مصلى الملائكة، والداخلية فيها القبر. ويؤخذ من التقاليد المتوارثة أن ذلك البناء تهدم سنة 1555م، حتى انكشف القبر ووجدوا

فيه قطعاً من خشب الصليب، فأعيد البناء سنة 1719م، ثم أصابه حريق سنة 1808م فأعيد بناؤه سنة 1810م.

وحول البناء المشار إليها خلاء مرصف بالرخام، تحيط به أبنية الكنيسة، ووراءه الأبواب والدهاليز المؤدية إلى سائر أجزائها، ولما كان القبر هو أقدس مكان هناك، اتفقت الطوائف المسيحية على الاجتزاء من قربه، أو الحصول على مكان يمكن أبناء كل طائفة من الوقوف فيه، عند الاحتفال بانبثاق النور يوم سبت النور.

والنور في ذلك اليوم يخرج للناس من كوة جدار القبر، فيقتبسون منه بشموع أعدوها في أيديهم، فإذا أضيئت تبركوا بلهيبها، فيدنونه من وجوههم أو ثيابهم على نسبة إيمانهم وصحة اعتقادهم. والروسيون أكثر الحجاج إيماناً، فيتقدم واحدهم وبيده شمعة أو شمعات يدنيها من النور الخارج من الكوة فإذا أضاءت أدار لهيبها حول وجهه وأدخلها تحت ثيابه وهو لا يخشى احتراقاً. وللباحثين آراء مختلفة في كيفية تكون ذلك النور. أما المؤمنون فيعتقدون أنه يخرج من القبر المقدس. وليس من شأننا الخوض في هذا الموضوع.

الاختصام والتنازع

والخلاء المذكور حول القبر اقتسمته الطوائف النصرانية بينها، منه مصلى محدود بالدرابزين في قفا القبر، أي في الغرب هو خاص بالأقباط من القرن السادس عشر. فالأقباط يقفون في يوم سبت النور هناك، وقس على ذلك مواقف سائر الطوائف، وهم: الروم الأرثوذكس، والأرمن، والسريان، ولكل منها بقعة مخصصة لها. ولا يسمح لطائفة أن تتعدى حدودها، ومن تجاسر على ذلك منعه جاره المعتدى عليه، وكثيراً ما يحتدم الخصام ويتضاربون بالعصي والخناجر في هذا السبيل، وقد يتضاربون عند كنس تلك المواقف أو تنظيفها، فلا يؤذن للطائفة أن تكنس غير الجزء المختص بها، فإذا مست المكنسة جزءاً من موقف الجار نبه هذا، فإذا لم يذعن منعه بالقوة. كأن تنظيف المكان يجعل للمنظف حقاً في تملكه - من قبيل وضع اليد!

وقد سمعنا حكايات من هذا القبيل ينكرها السامع لأول وهلة لغرابتها، ولكن التواتر يؤيدها. وأغرب من ذلك تنازعهم على ما هو غير مقسوم من أجزاء البناية كالجدران والأعمدة والسقوف، فهذه لا تخص طائفة دون أخرى، فإذا وقعت أيقونة كانت معلقة على أحد الجدران تخاصموا على من يعلقها في مكانها، وإذا تهدم جزء اختصموا في من يرممه من الطوائف، إذ لا يجسر أحد أن يفعل ذلك وحده. وكثيراً ما يبقى ذلك

النقص أشهراً أو أعواماً حتى تعقد المجالس المشتركة أو تتداخل الحكومات في الإقرار على إصلاحه، وقد وقع خصام من هذا النوع في أواسط القرن الماضي فكان من جملة الذرائع التي جرت الدول النصرانية إلى الاختصام في حرب القرم.

وقد شاهدنا في مغارة بيت لحم شباكاً واقع في كنيسة لكل طائفة من الطوائف جزءٌ منها فيه، قد تراكم نسيج العنكبوت على زجاجه وكساه الغبار. ورأينا أرض الكنيسة نظيفة فسألنا عن سبب بقاء ذلك الشباك مهملاً، فأجابوا لأنه لا يخص طائفة دون أخرى فلا تتجاسر واحدة منهن على تنظيفه بدون أن تتعرض لغضب جارتها، وقد يشتد الخصام حتى ينجلي عن الجرحى والقتلى، ولذلك فإن الحكومة أقامت الخفر من الجند يبيتون هناك منعاً لهذه الأخطار.

وقس على ذلك تنازعهم في سائر أماكن المزارات المشتركة، وقد باحثنا بعض العقلاء في سبب ذلك النزاع ولماذا لا تتفق الطوائف المشتركة في مزار على اقتسامه بخريطة تعين فيها حدود كل طائفة، ثم لا يتنازعون عند كنسه أو تنظيفه، إذ يكون حق كل منهن مبيناً في الخريطة، فاستصوبوا ذلك لكنهم قالوا إن الطوائف لا تقبل به.

ويلوح لنا أن التي لا تقبل إنما هي الطوائف أصحاب الحصص الصغرى في تلك الأماكن، ولا تزال ترجو أن تزيد حصتها بوضع اليد أو المغالطة، مما لا يليق البقاء عليه في هذا العصر.

وقد آن لعقلاء هذه الطوائف أن يضعوا حداً لهذا الأمر، فإنه سخرية يضحك منها النصارى أنفسهم فكيف سواهم؟

مزارات أخرى

وفي كنيسة القيامة كنائس ومصليات وتذكارات عديدة يضيق المكان عن شرحها، أهمها كنيسة الروم الأرثوذكس: مدخلها يقابل واجهة قبة القبر المقدس، فيها كثير من زخارف التحف. في وسطها مكان يعتقدون أنه مركز العالم أو نصف الدنيا، وهو اعتقاد قديم وتنوقل بالتقليد، وفيها عرشان كبيراً يجلس على أحدهما البطريرك الإنطاكي، وعلى الأخر البطريرك الأورشليمي.

وهناك حجرة للاتين فيها أوانٍ بينها تحف كنائسية قديمة، أرونا منها سيف جودفروا دي بولون، صاحب بيت المقدس في زمن الصليبيين ومهمازه وصليبه. طول السيف قدمان و8 قراريط، غير المصليات للطوائف الأخرى وأماكن أثرية أهمها الجلجلة

وبنوا فيها كنيسة ترتفع عن أرض كنيسة الروم 14 قدماً، ويعتقدون أن هناك جبل الجلجلة التي صلب عليه المسيح قبل دفنه.

الحرم الشريف

هو أثر تاريخي هام له تاريخ طويل يجدر بنا التنبيه إليه ووصف حدوده تمهيداً لذكر ما حواه من الآثار.

يراد بالحرم الشريف في بيت المقدس، بقعة من الأرض تشغل قسماً كبيراً من هذه المدينة، ربما بلغت سدس مساحتها كلها، شكله يشبه المربع المستطيل تتألف منه الزاوية الشرقية الجنوبية من المدينة، طوله من الشمال إلى الجنوب نحو 530 متراً وعرضه 345 متراً.

يحده من الشرق سور المدينة ووراءه وادي قدرون، ومن الجنوب سورها أيضاً، ومن الشمال والغرب أبنية أخرى، وفي ساحة الحرم كثير من الأبنية الأثرية أهمها قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

والحرم الشريف - أعني الساحة المتقدم ذكرها - ما برحت مكاناً مقدساً من أقدم أزمنة التاريخ، فيها نصب اليهود خيمة الشهادة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وفيها بنى داود مذبحاً وأصعد عليه المحرقات للرب في القرن العاشر قبل الميلاد، وكانت يومئذ بيدراً لرجل يبوسي اسمه ارونا ابتاعه داود منه بخمسين مثقالاً من الذهب وبنى المذبح عليه.

(راجع صموئيل الثاني ص 24: 18 - 25)

هيكل سليمان

ولما صار الملك إلى ابنه سليمان وأراد بناء هيكله الشهير اختار له هذه البقعة وبناه فيها، وهو المعروف بهيكل سليمان، وقد جاء خبر بنائه وتفصيله في أماكن كثيرة من التوراة. ففي صموئيل الثاني (ص 2) «وأمر سليمان ببناء بيت لاسم الرب وبيت لملكه. وأحصى سليمان سبعين ألف رجل حمالين وثمانين ألف رجل يقطعون الحجارة في الجبل. وثلاثة آلاف وست مئة رجل يناظرون عليهم. وأرسل إلى حيرام ملك صور قائلاً: كما فعلت مع داود أبي وأرسلت إليه أرزاً ليبني بيتاً يسكن فيه تفعل معي فإني أبني بيتاً لاسم الرب إلهي...»

ثم جاء على تفصيل البناء وأجزائه، وما دخل في ذلك من الذهب والفضة والنحاس والحديد والأرجوان والقرمز والسمنجوني، ومن الأرز والسرو والصندل واستقدام النقاشين وغيرهم إلى أن قال: «وشرع سليمان في بناء بيت الرب في أروشليم... في اليوم الثاني... وكانت الأسس التي وضعها ستين ذراعاً طولاً، وعشرين ذراعاً عرضاً، والرواق من أمام؛ عشرين ذراعاً طولاً على محاذاة عرض البيت، ومائة وعشرين سمكاً. وغشاه من داخل بذهب نقي، والبيت العظيم ألبسه خشب سرو، ثم ألبسه ذهباً خالصاً وجعل عليه نخيلاً وسلاسل ورصع البيت بحجارة كريمة للزينة، وكان الذهب من ذهب فروائيم. وألبس البيت روافده وأعتابه وجدرانه ومصاريعه ذهباً، ونقش كروبيم[75] على الجدران. وصنع بيت قدس الأقداس على محاذاة عرض البيت عشرين ذراعاً طولاً وعشرين ذراعاً عرضاً، وألبسه ذهباً خالصاً ست مئة قنطار.

وكان وزن المسامير خمسين مثقالاً من ذهب، وألبس العلالي ذهباً، وصنع في بيت قدس الأقداس كروبيم صنعة ممثلين وغشاهما بذهب».

ثم ذكر أجزاء البناء وفصل ما دخل فيه من الزينة، وذكر أيضاً البناء الذي شاده لنفسه مطولاً في التوراة المتداولة بين أيدي الناس، فلا حاجة إلى ذكره؟

ماذا تقلب على الهيكل؟

وقد مر على هذا الهيكل أحوال مختلفة، نهبه شيشاق سنة 971 ق. م، ورممه يواش سنة 856 ق. م، ودنسه أحاز سنة 740 ق. م، ثم رممه حزقيا سنة 726ق.م. لكنه مازال قائماً حتى سطا الآشوريون على بيت المقدس بقيادة نبوخذ نصر، فهدموه وساقوا اليهود إلى بابل، وهو السبي المشهور في القرن السادس قبل الميلاد. فلما عادوا من السبي أخذوا في ترميمه أو تجديده، ثم سطا عليهم أنطيوخوس فنهبه، فعادوا إلى ترميمه وتجديد بنائه، فجددوه على يد هيرودس سنة 18 قبل الميلاد[76]. وأخيراً هدمه طيتس سنة 70م وتشتت اليهود.

وفي سنة 133م أعاد الإمبراطور هدريان بناء الهيكل في جملة ما أعاده من بناء المدينة، وأنشأ فيه معبد لجوبتير إلهه. ولما تنصر إمبراطور الرومان خفت وطأة الضغط على اليهود فأذنوا لهم في بناء هيكلهم، لكنهم لم يستطيعوا ذلك، حتى إذا صار العرش

---

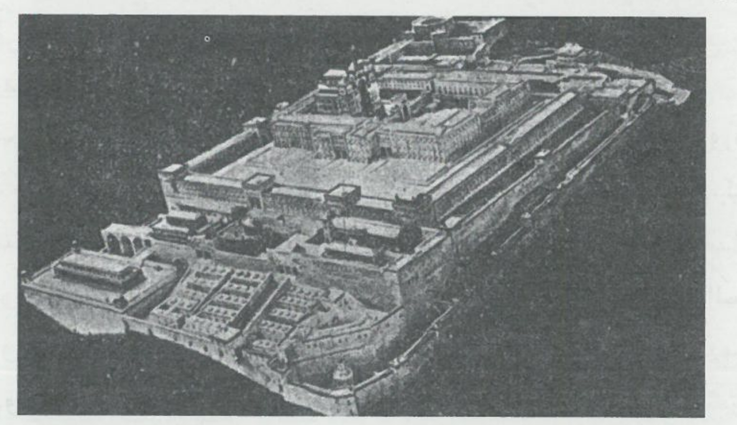
(75) - الكروبيم هي الأحصنة المجنحة

(76) - هيرودوس بنى هيكلاً وثنياً كما هو مثبت تاريخياً.

الروماني إلى يوستنيان الشهير في القرن السادس للميلاد . وهو نصير النصرانية ومشيد الكنائس . كان في جملة مساعيه أنه رمم هذا الهيكل، وبنى فيه كنيسة[77]، وحول هيكل جوبتير إلى معبد مسيحي. فلما فتح المسلمون بيت المقدس في صدر الإسلام بنوا فيه قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وعرف بالحرم الشريف ولا يزال إلى الآن.

آثار هيكل سليمان

والحرم الشريف واقع في نفس البقعة نفسها التي كان فيها هيكل سليمان، ولم يبق من آثار ذلك الهيكل ما يستحق الذكر، وقد حاول النقابون درس أسس ذلك الهيكل وشكله وكيف كان وضعه واختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً، حتى أتيح للدكتور شيك درس هذا الموضوع في القدس، وتصور أجزاء الهيكل كما بناه سليمان، وشكله لما بناه هيرودوس ثم هدريان، وشكله لما بناه المسلمون، ووضع مثالاً لكل من هذه الأشكال كما كان في زمن كل منهم، واصطنع ذلك قطعاً من خشب بالأشكال المطلوبة ورتبها كالبناء تماماً، وفي الشكل التالي صورة مثال هيكل سليمان نفسه كما اصطنعه الدكتور شيك.



هيكل سليمان كما كان في القرن العاشر قبل الميلاد

طول هذا المثال الخشبي تسعة أقدام، وعرضه خمسة أقدام ونصف، وعلوه عشرون قيراطاً. وقد أخذ الرسم من الزاوية الجنوبية الشرقية وهي الزاوية السفلى الظاهرة في الرسم، تليها إلى اليسار الزاوية الجنوبية الغربية، وتقابلها في الأعلى واليسار الزاوية

(77) - ثمة إشارة في وصف المهلبي في الكتاب العزيزي لبيت المقدس إلى وجود كنيسة في الحرم القدسي عام 965م

الشمالية الغربية، تليها إلى اليمين الزاوية الشمالية الشرقية. فإذا تصورت ذلك هان عليك أن تتصور الهيكل المذكور وما يحيط به من الأبنية.

تأمل هذا الرسم السابق فتجد مكان الهيكل على مرتفع يصعد إليه بسلمين أحدهما عند الزاوية الجنوبية الغربية، والآخر عند الزاوية الشمالية الشرقية، ويشتمل هذا الشكل على صور الهيكل وقصر سليمان وأبنيته وأسوار وشوارع.

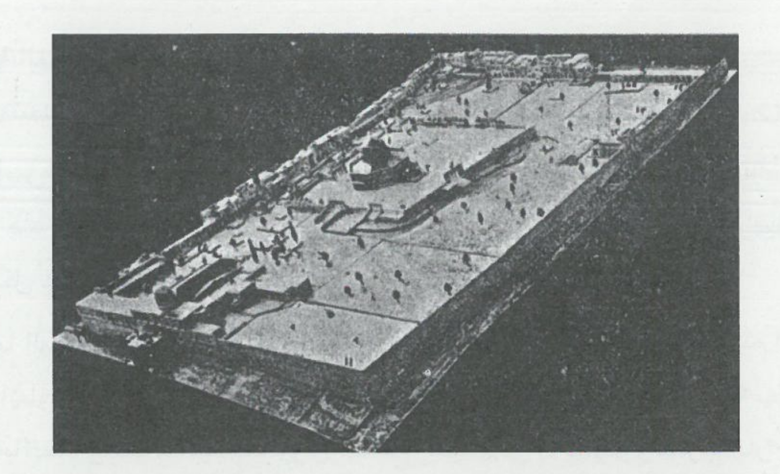
أما الهيكل، فهو المربع الواقع أسفل الزاوية الشمالية الغربية، في القسم الغربي من النصف العلوي لهذا الرسم، فإنك ترى هناك بناءً مربعاً يليه من الجنوب ساحة كبيرة، ويحيط بالبناء والساحة جميعاً رواق ضخم، عليه من الجنوب والغرب أبراج هو سور الهيكل، والبناء المربع هو الهيكل.. والساحة في الجنوب صحن الهيكل الخارجي، وترى داخل المربع فراغاً في شرقيه هو صحن الهيكل الأوسط، وفراغاً آخر في الغرب هو الصحن الداخلي وفيه المذبح.

وبين هذين الصحنين حائط فيه باب كبير، ووراء الصحن الداخلي غرباً البناء الرئيس للهيكل أو قدس الأقداس، وفيه الكروبيم وتابوت العهد، ووراء سور الهيكل من الشرق شارعان وسوران: الخارجي منهما جزء من سور أورشليم القديم وعليه الأبراج، وأسفل سور الهيكل من الجنوب أبنية عديدة هي قصور سليمان ورجال حاشيته ونسائه.

الهيكل نفسه

وأما الهيكل نفسه فهو عبارة عن المربع الذي تقدم ذكره في النصف العلوي من الرسم نحو الغرب. يحيط به من الجنوب الصحن الخارجي ويسمى صحن الأمم (الخوارج)، ومن الشرق الجانب الشرقي من الرواق. والهيكل المشار إليه بابه الخارجي في الشرق يصعد إليه من الرواق الشرقي في درجات. فإذا دخلت من ذلك الباب وصلت إلى الصحن الأوسط، ويسمى صحن بني إسرائيل، وفي غربيه حائط في وسطه باب مرتفع يتصل منه بدرجات إلى الصحن الداخلي، وهو صحن الكهنة.

وفي هذا الصحن بناء عظيم الارتفاع هو الهيكل الرئيسي أو قدس الأقداس، وبين يديه في الصحن المذبح الذي كانت تقرب عليه الذبائح أو المحرقات، وهو في الرسم بقعة صغيرة سوداء، وأما قدس الأقداس فلا يدخله إلا رئيس الكهنة، وفيه تابوت العهد والكروبيم ومذبح البخور وغير ذلك، ووراء الهيكل نحو الشمال برج مستدير.



1- قبة الصخرة، 2- قبة السلسلة، 3- قبة الأرواح وبينهما قبة المعراج، 4- باب السلسلة، 5- منبر القاضي برهان الدين، 6- بئر الكاس، 7- بئر الورقة وبجانبه مدخل المسجد الأقصى، 8- المسجد الأقصى، 9- باب مزدوج، 10- الأبواب المثلثة، 11- سطح اسطبلات سليمان، 12- باب الظاهرية أو باب الذهب، 13- عرش سليمان، 14- باب الأسباط، 15- باب حطة، 16- باب العطن، 17- باب الغوانمة أو باب السراي، 18- باب القطانين، 20- باب السلسلة (غير ذاك)، 21- باب المغاربة.

فلما تهدم هذا الهيكل أعاد هيرودس بناءه كما كان، لكنه غير وبدل في قصور سليمان، وفي البرج الواقع في الشمال، وأما هدريان فإنه غير كثيراً من بناء الهيكل نفسه إلى نحو ما صار إليه الآن. جعل في وسطه قبة تشبه قبة الصخرة، وفي أسفله نحو الجنوب معبده الذي غيره يوستنيان إلى كنيسة كما تقدم. فلما تملكه المسلمون بنوا فيه المسجد الأقصى والقبة كما ترى في الشكل الثاني، وقد وضعنا أرقاماً على أهم الأماكن لسهولة معرفتها.

والحرم ساحة جميلة واسعة، لا يدخلها اليهود لئلا تقع أقدامهم على مكان قدس الأقداس من هيكل سليمان، ومكانه غير معروف. وللحرم سبعة أبواب[78] يمكن الدخول منها إليه، ويشتمل على عدة أبنية أهمها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقد رأينا روايات العرب عنها أنهم يسمون الحرم كله «المسجد الأقصى»، ويعدون قبة الصخرة والقباب الأخرى واقعة في صحنه، وأما الآن فالساحة كلها تسمى الحرم الشريف ويعدون المسجد الأقصى وقبة الصخرة جزئين مستقلين.

---

(78) - الصحيح 10 أبواب إذا حسبنا باب السلسلة وباب السلام (السكنية) بابين

تاريخ بناء الحرم

المشهور أن باني المسجد الأقصى وقبة الصخرة هوعبد الملك بن مروان، ويذكرون في سبب بناء المسجد أن الإمام عمر بن الخطاب لما جاء بيت المقدس لعقد الصلح مع أهلها على التسليم صلى هناك. وأمر رجاله أن يتخذوا في ذلك المكان مصلى للمسلمين فاتخذوه كما سيأتي

ولما تولى عبد الملك بن مروان بنى المسجد الأقصى. وفي ابن الأثير أن الوليد بنى المسجد المذكور. فلعله أتم بناءه.

قالوا «والمسجد الأقصى واقع في قرنة البلد الشرقية نحو القبلة أساسه من عمل داود طول الحجر عشرة أذرع أو أقل. وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وشرفوه. وكان أحسن من جامع دمشق لكن جاءت زلزلة في أيام بني العباس فطرحته الأحوال المحراب. فلما بلغ الخليفة خبره أراد رده مثلما كان. فقيل له تعي ولم تقدر عل ذلك. فكتب إلى أمراء الأطراف والقواد يأمرهم أن يبني كل واحد منهم رواقاً. فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان وبقيت وتلك القطعة شامة فيه. وهي إلى حذاء الأعمدة الرخام وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث» قالوا «وكانت وظيفته كل شهر مائة دينار وفي كل سنة ثمانمائة ألف ذراع حصراء. وخدامه مماليك له أقامهم عبد الملك من خمس الأسارى ولذلك يسمونه الأخماس لا يخدمه غيرهم ولهم ثوب يحفظونها»

وهم يريدون بالمسجد الأقصى الحرم كله. ثم اشترك الخلفاء في ترميم هذه الأبنية والزيادة فيها حسب الاقتضاء. ففي زمن المقتدر العباسي أمرت أمه (سنة 301 هـ) بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوبة، وهو نوع من الخشب يشبه الصنوبر يؤتى به من الخارج.

وقد جدد في المسجد والصخرة كثير من الخلفاء والسلاطين آخرهم السلطان سليمان القانوني. وسنشير إلى ذلك في أثناء وصف تلك الآثار فيكون أوقع في النفس وأرسخ في الذهن.

فنبدأ بوصف قبة الصخرة ثم نصف المسجد الأقصى وأخيراً سائر أبنية الحرم.

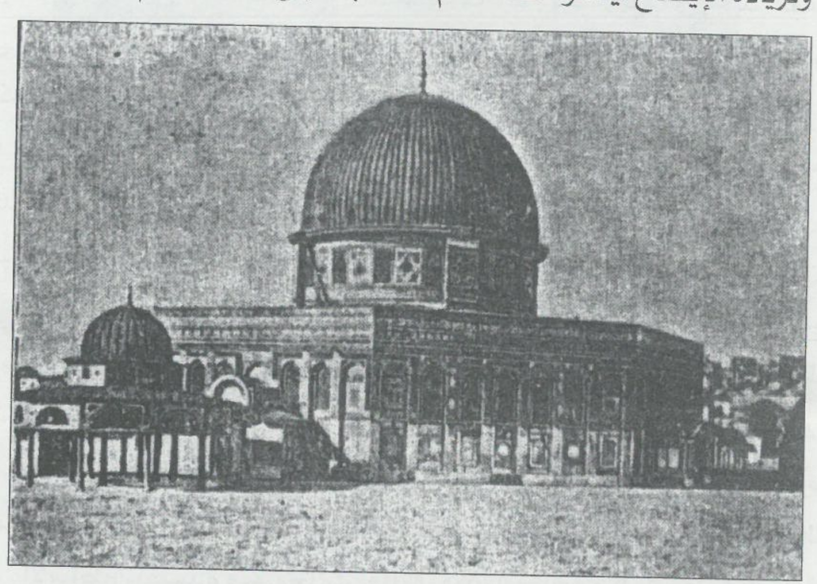
قبة الصخرة

1- وصفها من الخارج

أرض الحرم مبلطة ببلاط ضخم في وسطها نحو الغرب دكة مربعة حولها رواق كالسور على أعمدة يصعد إليها بالسلالم. وفي وسط الدكة قبة كبيرة هي قبة الصخرة

وبجانبها نحو الشرق قبة صغيرة اسمها قبة السلسلة. وقباب أخرى نحو الشمال اسمها قبة المعراج وقبة النبي وقبة الأرواح. أهمها قبة الصخرة ويسميها الإفرنج خطأ جامع عمر.

ولزيادة الإيضاح في الوصف نقسم هذا البناء إلى ثلاثة أقسام كما تراه في الشكل:



قبة الصخرة من الخارج

1 الطبقة السفلى 2 المنطقة المستديرة فوقها 3 القبة نفسها. ونبدأ في وصفها من الخارج. فالطبقة السفلى بناء فخيم جدرانه مثمنة الأضلاع فيها أربعة أبواب. طول الضلع الواحد 77 قدماً وبعض القدم. أسفلها مصفح بالرخام وأعلاها مغشي بالقيشاني من أيام السلطان سليمان القانوني سنة 1561م في غاية الجمال لتناسب ألوانه. ويحيط بالبناء آيات من القرآن منقوشة كالطنف. وفي كل ضلع سبعة شبابيك إلا الجدران التي فيها الأبواب ففي كل منها ستة شبابيك. ويظهر من هندستها أنها من صنع القرن السادس عشر.

والأبواب الأربعة يسمى الشمالي منها باب الجنة والغربي الباب الغربي والجنوبي باب القبلة وهو الذي يؤدي إلى المسجد الأقصى. والشرقي باب السلسلة أو باب داود.

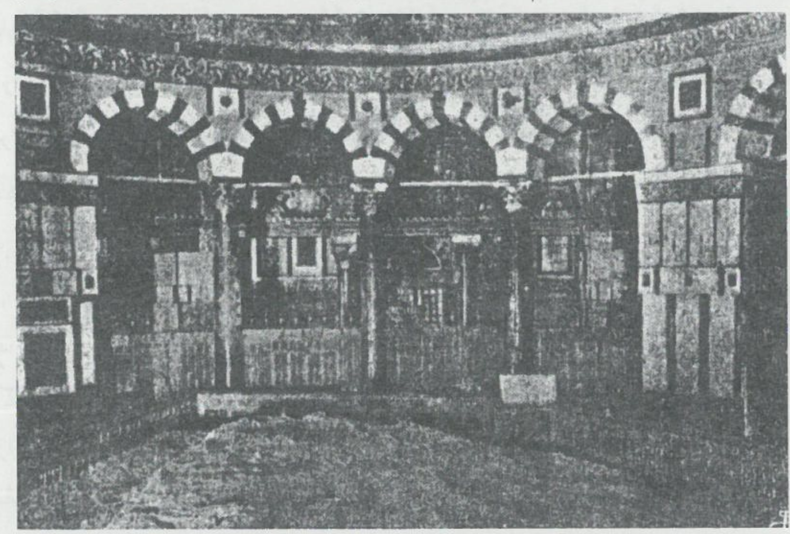
وعلى عتبات هذه الأبواب نقوش كتابية جاء فيها أن باني هذه القبة «عبد الله الإمام المأمون» لكن تاريخ البناء في الداخل يدل على أنه بني سنة 72 هـ في زمن عبد الملك بن مروان فالظاهر أن المأمون هو مجدد البناء أو مرممه.

والطبقة الثانية أو المنطقة حائطٌ مستدير فوق البناء المثمن. فيه طاقات كبار من

زجاج ملون ومذهب. وفوق المنطقة القبة وهي عالية جداً ملبسة بالصفر المذهب. إذا أشرقت عليها الشمس تلألأت وظهرت من بعيد. وهي مؤلفة من ثلاث طبقات الأولى البطانة التي يراها الداخل وسنأتي على وصفها. والطبقة الوسطى مصنوعة من أعمدة حديدية شبكت تشبيكاً متيناً لئلا تميلها الرياح والطبقة الثالثة وهي الخارجة من خشب عليها الصفائح الملبسة بالصفر في وسطها طريق مدرج يصعد فيه الصناع لتفقدها.

2 - وصفها من الداخل

دخلنا ذلك باب من باب السلسلة الشرقي فأدهشنا ما وقع عليه بصرنا من النقوش الجميلة على الجدران وفي باطن القبة ولاسيما الفسيفساء بألوانها التي تأخذ بالأبصار وتستوقف الخاطر لإتقانها وجمالها وهو يبعث على التفكير في مقدار ما أنفق في هذا النقش من الأموال الطائلة. يدلك على ذلك أن بعض تلك النقوش تداعى إلى السقوط فأرادوا أن يتداركوه بالترميم فاستقدموا مهندساً ماهراً طلبوا إليه أن يقدر النفقات اللازمة لذلك الترميم فقدرها بعشرين ألف جنيه فتأمل قطر البناء المثمن



قبة الصخرة من الداخل كما قطعت قطعاً عمودياً

فترى الصخرة في الأسفل ووراءها الرواقان الواحد وراء الآخر ثم الجدار

عند أسفله 57 متراً ويقسم إلى ثلاث مناطق أو أروقة الواحد داخل الآخر. يفصل بينهما صفان من الأعمدة موازيان للجدار. فالرواق الأول واقع بين جدار القبة وصف من الأعمدة فيه ثماني عضائد تقابل زوايا البناء وتشبهها بأشكالها. بين كل عضادتين

عمودان من الرخام جملتها ستة عشر عموداً. تختلف طولاً ولوناً لأنها جمعت في الأصل من انقضاض هياكل قديمة ولاسيما هيكل جوبتير المتقدم ذكره. وكذلك تيجانها فإنها مختلفة الأشكال والأقدار من الطراز البيزانتي ولا يزال على أحدها أثر صليب. علو هذا الرواق عشرون قدماً تتحد أعمدته من أعلى التيجان بأحجار ضخمة مستقرة على جسور من الخشب مدعمة بالحديد أسفلها مصفح بالنحاس. وعلى الجسر قطع من الرخام حافاتها بارزة مزركشة. وهناك رخامات عليها نقوش من زمن السلطان سليمان. وأما الجدار المثمن من الداخل فأعلاه مزخرف بالفسيفساء بأشكال جميلة متداخلة فيها رسوم الأزهار وغيرها. وفوق ذلك منطقة زرقاء عليها نقش كوفي قديم بأحرف ذهبية هي آيات قرآنية متفرقة هذا نصها:

﴿وَقُل الْحَمْدُ للّه الّذي لَمْ يَتّخذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْك وَلَمْ يَكُن لّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[79]

﴿ لَهُ مُلْكُ السّمَاوَات وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُميتُ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[80]

﴿يَا أَهْلَ الْكتَاب لا تَغْلُوا في دينكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللّه إلّا الْحَقّ إنّمَا الْمَسيحُ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّه وَكَلمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منْهُ فَآمنُوا باللّه وَرُسُله وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إنّمَا اللّهُ إلَهٌ وَاحدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا في السّمَاوَات وَمَا في الْأَرْضِ وَكَفَى باللّه وَكيلاً﴾[81]

﴿وَالسّلامُ عَلَيّ يَوْمَ وُلدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴿33﴾ ذَلكَ عيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقّ الّذي فيه يَمْتَرُونَ ﴿34﴾ مَا كَانَ للّه أَنْ يَتّخذَ منْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إذَا قَضَى أَمْراً فَإنّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿35﴾ وَإنّ اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صرَاطٌ مُسْتَقيمٌ﴿36﴾ ﴾[82]

وهناك نقش كوفي أن هذا البناء تم سنة 72 هـ أي في زمن عبد الملك بن مروان وعلى النوافذ من البناء المثمن اسم السلطان سليمان وتاريخ سنة 935 هـ ويقال إن صلاح الدين كسا الحائط بالرخام والسلطان سليمان أعاد الكساء.

---

(79) - سورة الإسراء، الآية 111.

(80) - سورة الحديد، الآية 2.

(81) - سورة النساء، الآية 171.

(82) - سورة مريم، الآيات 33- 36.

والرواق الثاني داخل الأول واقع بين صف الأعمدة المتقدم ذكره وصف آخر مرتب بشكل مستدير لأن القبة مستقرة عليه. وهو مؤلف من أربع عضائد ضخمة بين كل اثنين منها ثلاثة أعمدة الجملة 12 عموداً من الرخام. وهي قديمة مثل تلك وقد كسيت قواعدها بالرخام في القرن السادس عشر. تتصل من أعلاها بعقود متينة. وحول الأعمدة في الأسفل حاجز قصير من الحديد صنعه الإفرنج في القرن الثاني عشر للميلاد يوم حولوا هذه القبة إلى كنيسة فوضعوا هذا الحاجز ليناسب عاداتهم في الصلاة.

وبين القبة نفسها وهذا الرواق المنطقة المستديرة المتقدم ذكرها. وهي مصفحة من الداخل بالفسيفساء على الطراز البيزانتي صنع القرن العاشر أو الحادي عشر للميلاد يمثل زهريات فيها عناقيد العنب وسنابل القمح في أعلاها 16 نافذة عليها أغطية من ملاط فيها ثقوب مختلفة الشكل والحجم. فتحاتها الداخلية أوسع من الخارجية وقد أقفلت الفتحة الخارجية بزجاج ملون يتألف منه أشكال جميلة. إذا أغلقت أبواب البناء ونفذ النور منها إلى داخل القبة ظهر بشكل بديع.

أما القبة نفسها فقد بناها الحاكم بأمر الله[83] سنة 413 هـ على أنقاض القبة الأصلية وكانت قد سقطت سنة 407 هـ علو القبة من الداخل 37 قدماً وعرضها 66 قدماً لكن علوها من الظاهر 98 قدماً لأنها مؤلفة من طبقات كما تقدم. وفي باطن القبة نقش يدهش النظر بألوانه المتناسبة قاعدته زرقاء. صنع في زمن السلطان صلاح الدين وأعيد صقله بعده مراراً.

وفي أرض هذا البناء داخل الرواق الأخير صخرة كبيرة يحيط بها حاجز خشبي كالدرابزين طولها 58 قدماً وعرضها 44 قدماً. وعلو معظمه ستة أقدام فوق أرض البناء المحيطة بها. واختلف الباحثون في أصلها ويظن بعضهم أنها المذبح الذي كانت تقدم عليه المحرقات لأنهم اكتشفوا تحتها قناة تجري فيها دماء الذبائح ينزل إليها 11 درجة نحو الجنوب. ولكن هذا الرأي يخالف ما تقدم عن موضع المذبح من هيكل سليمان حيث كان تابوت العهد وقدس الأقداس. فلعل القناة التي اكتشفوها تؤدي إلى صهريج. وفي التلمود حكايات كثيرة تتعلق بهذه الصخرة.

حول قبة الصخرة

وفي قبة الصخرة آثار دينية أخرى أغضينا عن ذكرها. ونكتفي بوصف ما يحيط

---

(83) - الصحيح أنه الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم

بها من القباب. أولها قبة السلسة (رقم 2 ش 2 وإلى يسار الشكل الثالث) وتسمى أيضاً محكمة داود. يظنون أن الملك داود كان يجلس هنا للقضاء.

وقبة المعراج ويعتقد المسلمون أنه المكان الذي عرج منه النبي من القدس إلى مكة[84]. ويؤخذ مما على هذه القبة من النقوش أنها بنيت سنة 597 هـ وشكلها من النوع القوطي. ووراءها نحو الشمال الغربي قبة النبي يظهر أنها حديثة وتحتها مسجد النبي في الصخر. وهناك قبة أخرى تسمى قبة الأرواح بجانبها قبة الخضر. وفي الزاوية الشرقية الجنوبية للدكة (رقم 5 ش 2) منبر القاضي برهان الدين نسبة إلى بانيها تتلى عندها خطبة كل جمعة في رمضان. وفي الجنوب بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى أثر يقال لها بئر الكأس هي بالحقيقة خزان للماء وغير ذلك.

المسجد الأقصى

واقع في القسم الجنوبي من الحرم وهو بناء مربع له جناحان أحدهما في الشمال ممتد نحو الشرق والآخر في الجنوب يمتد نحو الغرب (رقم 8 ش2). مشينا إليه من باب قبة الصخرة القبلي فنزلنا من الدكة بدرجات فمررنا ببئر الكاس وأقبلنا على المسجد من بابه الشمالي. والمظنون أن هذا المسجد بني في مكان كنيسة بناها يوستنيان[85] هناك على اسم السيدة مريم. ولما جاء عمر إلى القدس صلى في مكانها منها هو الآن غرفة في طرف المسجد نحو الجنوب والشرق فبنى المسلمون مسجداً هناك. ولما تولى عبد الملك صفح أبوابه بالذهب والفضة. وفي أيام أبي جعفر المنصور تصدع جانباه الشرقي والغربي بزلزال فاضطروا للإنفاق على ترميمه أن يضربوا ما كان عليه من الذهب والفضة نقوداً.

ولما تولي المهدي سنة (158 هـ) كان المسجد قد أصابه زلزال آخر فأعاد بناءه وغير شكله فقلل طوله وزاد في عرضه. وسقط سقفه سنة 452 هـ فأعيد ولم يبق من أنقاض بناية يوستنيان إلا القليل.

طول المسجد 86 متراً. إذا دخلته من بابه الشمالي المقابل لقبة الصخرة مشيت بين صفين من الأساطين الضخمة متصلة بأعلاها بسبعة عقود بناها الملك المعظم عيسى

---

[84] - الصحيح عرج منه إلى السماء، أما قدومه من مكة إلى بيت المقدس فيسمى الإسراء.

[85] - أثبتت الحفريات الأخيرة في البلدة القديمة أن هذا الزعم الذي ردده الكثيرون لا أساس له وقد عثر على كنيسة جوستنيان المشار إليها في منطقة حارة اليهود القائمة على جزء من جبل صهيون وهي تسمى كنيسة العذراء الجديدة (Nea). انظر N. Avigad, Discovering Jerusalem, Nashville 1980 p 226-246.

الأيوبي (625 هـ) ثم أعيد بناؤها. وسقفها الموجود الآن من بناء القرن الخامس عشر للميلاد فيه مشابهة للطرز القوطي.

وينتهي ذلك المدخل إلى بقعة فوقها قبة يظن أنها من بناء المهدي. وفيها نقش عليه كتابة أن صلاح الدين أعاد بناءها. وهي مصنوعة من الخشب مصفحة بالرصاص من الخارج. وأما داخلها فإنه مزين مثل زينة قبة الصخرة. وعليها اسم السلطان محمد بن قلاوون لأنه أعاد زينتها. وفي صدر المسجد محراب تأنق صانعه في صنعه من الخشب المنزل بالعاج والصدف في أجمل ما يكون. فعل ذلك رجل حلبي بإشارة السلطان نور الدين سنة 564 هـ. فإذا مشيت نحو اليسار انتهيت إلى مسجد عمر، وأما في اليمين فتسير في رواق طويل. وفي أفاريز المسجد نقوش كتابية أكثرها آيات من القرآن. وفي نوافذه زجاج ملون مثل ما تقدم عن زجاج قبة الصخرة.

سائر أبنية الحرم

ومما يستحق الذكر من أبنية الحرم اسطبلات سليمان. وهي عبارة عن أقبية يتألف منها معظم القسم الجنوبي الشرقي من ساحة الحرم. لأن تلك الساحة كانت في أصلها جبلاً غير متساوي السطح. فالظاهر أنهم ابتنوا تلك الأقبية لأجل تسويته. والأقبية ضخمة ويظهر من حال قواعدها وما فيها من الثقوب أو الحلقات أنها كانت مرابط للدواب. ينحدر إليها الزائر من باب في الزاوية الجنوبية الشرقية من ساحة الحرم. وهناك أماكن كثيرة ينسبون إليها حوادث تاريخية بعضها يفتقر إلى إثبات وكان لهذه الأقبية شأن في حصار اليهود فإنهم كثيراً ما كانوا يختبئون فيها.

وسور الحرم بعضه قديم وبعضه حديث. وكذلك أبوابه وأهمها من الوجهة التاريخية باب الذهب ويسميه العرب باب الظاهرية مؤلف من ثلاث قناطر الشمالية منها تسمى باب التوبة والجنوبية باب الرحمة. وبعض الباب الحالي من بناء القرن السابع للميلاد. والباقي بناء العرب في أوائل القرن التاسع. وفي واجهته الشرقية أعمدة من الرخام يقول اليهود إن ملكة سبأ أهدتها إلى سليمان. والباب المذكور مغلق من زمن بعيد ويقال إنه كان مستعملاً في زمن الصليبيين كانوا يفتحونه في أحد الشعانين ثم أقفل ولا يزال مقفلاً.

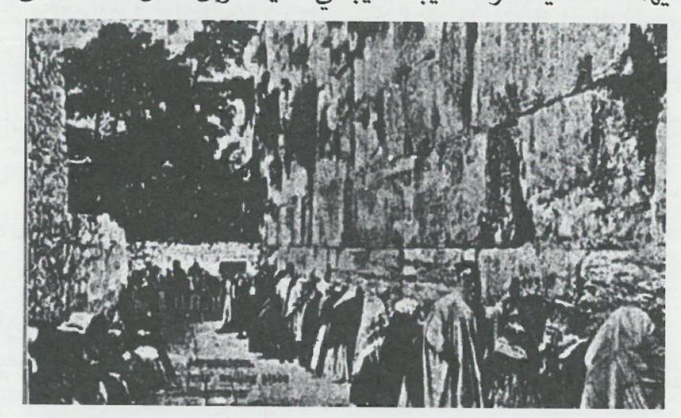
سائر آثار القدس

إن كنيسة القيامة والحرم الشريف أهم آثار القدس وقد تقدم وصفهما. يليهما آثار عديدة قليلة الأهمية فنختصر في وصفها:

مبكى اليهود

واقع وراء جدار الحرم الشريف في الغرب وهو عبارة عن حائط حجارته ضخمة يتصل بسور الحرم من خارجه. أو هو جزء منه، ويعتقد اليهود أنه جزء من هيكل سليمان فيقفون عند ذلك الحائط كل يوم جمعة يبكون مجدهم ويندبون استقلالهم. طول هذا الحائط نحو خمسين متراً. الصف السفلي من أحجاره تسعة أحجار ضخمة بينها حجر في الشمال طوله خمسة أمتار ونصف متر وعرضه ثلاثة أمتار ونصف. وفوق هذا الصف 15 صفاً حجارتها أصغر. وعلى هذه الأحجار كتابات بالفحم أو الحفر باللغة العبرانية أكثرها أسماء بعض الزوار.

وقفنا أمام ذلك الحائط وعنده عشرات من اليهود رجالاً ونساءً بين واقف وقاعد. وقد علا ضجيجهم وارتفعت أصوات بكائهم. وفيهم من يقرأ دعاءً أو يتلو آية. وسمعنا بعض النساء يندبن ويبكين بصوت عال. وواحدة منهن تشهق شهيق الثكلى من فرط البكاء وهي مولية وجهها نحو حجر من تلك الأحجار تكاد تبلله بدموعها. فأثر منظرها في نفسنا تأثيراً عظيماً لأنها كانت تبكي بلهفة كأنها تندب فقيداً عزيزاً. فأعملنا فكرتنا في الباعث على هذا لبكاء وهل هو التأسف على مجد اليهود الزائل كما يقولون؟ فإذا صح ذلك كان لليهود شعائر جنسية لا مثيل لها في العالم. لأن الوافدين إلى ذلك المبكى أكثرهم من طبقة العامة البسطاء. فإذا كان في أولئك البسطاء مثل هذا الشعور السياسي أو الاجتماعي فكيف في الطبقة الراقية المتعلمة؟ لكننا نظن الباعث على ذلك البكاء بالأكثر شعوراً خاصاً في الباكي نحو فقيد أو مريض من أهله أو ذويه، إذا جاء المبكى تذكره وبكاه أو صلى من أجله أو طلب الشفاء له بحرارة. كما يفعل الثاكل إذا شهد مأتماً وإن كان ميت ذلك المأتم لا يهمه لكنه يتذكر مصيبته فيبكي فقيده وإن طال الأمد على موته.



مبكى اليهود في القدس

ولهم أناشيد يتلونها في موقفهم هناك باللغة العبرانية يندبون فيها الهيكل وخرابه وما تهدم من جدرانه وما ضاع من عزه واحتراق من جواهره. وما أصاب كهانه من الذل. ويستنزلون الرحمة على صهيون ويتوسلون إلى الله أن ينجيهم من الذل ويعيد إليهم ملكهم في أروشليم.

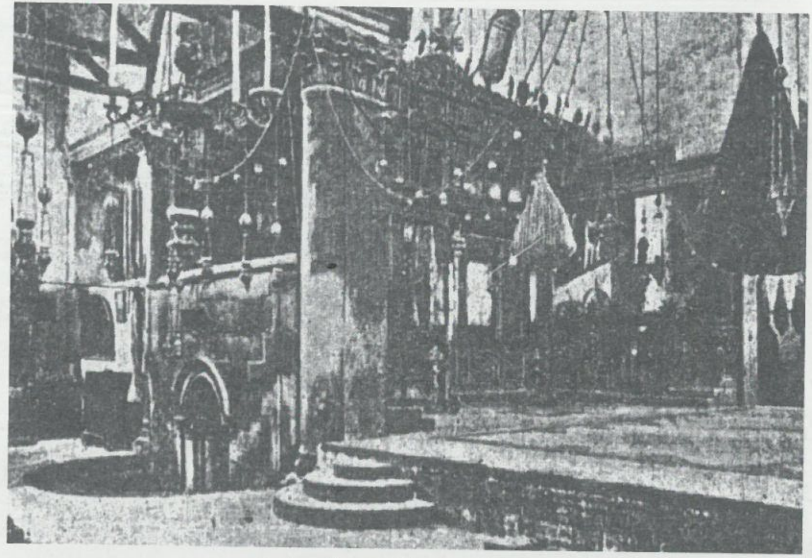
جبل الزيتون

ليس من النصارى من لم يقرأ اسم هذا الجبل في الإنجيل. وهو واقع شرقي القدس يفصل بينهما وادي ستي مريم. ويقال له أيضاً جبل الطور وجبل النور أو هذا جزء منه. وفي الطريق من القدس إلى هذا الجبل أماكن أثرية كثيرة لكل منها حديث ووصف يضيق المقام عنه. منها قبر العذراء، وكنيسة ستي مريم، وبستان الجسمانية، ومعهد الإمبراطورية فيكتوريا، وكرم الصياد، وكنيسة الصعود، وأديرة وكنائس مختلفة، وقبور الأنبياء. وإنما يهمنا في هذا المقام الإشارة إلى مظهر القدس للواقف على ذلك الجبل، فإنه يشرف على المدينة فتتبين له أحياؤها وقصورها وأديرتها واضحة. ولابد لمن يزور القدس من أن يصعد إلى هذا الجبل ويشرف منه على كنيسة القيامة والحرم وغيرهما من الأبنية.

وفي وادي قدرون وما يليه قبر أبشالوم ومغارة القديس يعقوب وهرم زخريا وجبل بطن الهواء وعين العذراء أو عين ستي مريم وبركة سلوان أو عين سلون وحقل الدم وغيرها. وفي القدس آثار أخرى تزار مثل مغارة أرميا ودير الدومينكان وقبور الملوك وقبور القضاة والنبي داود وغيرها.

بيت لحم

وفي ضواحي القدس كثير من الأماكن التاريخية أهمها بيت لحم لأن فيها المغارة التي ولد فيها المسيح، والطريق بينهما سهل في المركبات. وفي بيت لحم وحولها كثير من الأماكن التي تستحق الزيارة مثل دير مار إلياس، وقبة راحيل، وبيت جالا، ودير الفرانسيسكان، ودير الكرمل، ومدرسة بيلوني، ومستشفى أخوات الإحسان، وأديار أخرى عديدة أهمها كلها كنيسة الميلاد أو الولادة بنيت فوق المغارة التي يعتقد المسيحيون أن المسيح ولد فيها.



مغارة مولد المسيح في بيت لحم

والكنيسة المذكورة تخص الروم واللاتين والأرمن دون سواهم من الطوائف النصرانية. ويحيط بها كثير من الكنائس والأديار. يتصل إلى باب كنيسة المغارة بالنزول عدة درجات وترى بابها في الشكل الثاني إلى يسار الرسم.

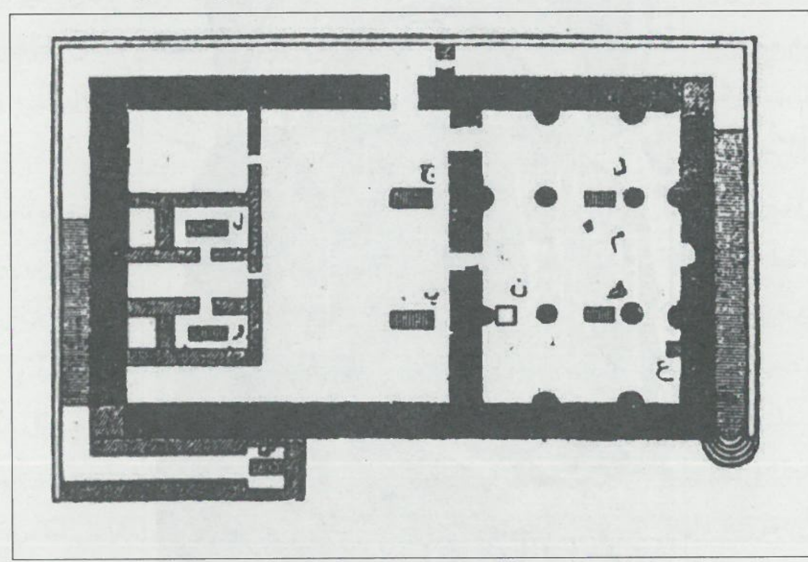
نزلنا إلى ذلك الباب ودخلنا الكنيسة وهي مبنية فوق المغارة. فرأينا طولها 40 قدماً من الشرق إلى الغرب وعرضها 12 قدماً وعلوها عشرة أقدام. وهي مرصفة بالرخام وفيها 32 مصباحا معلقاً. وتحت مذبحها كوة في أرضها نجم من الفضة عليه نقش باللاتينية مفاده ميلاد المسيح. وحول الكوة 15 مصباحاً ستة منها للروم وخمسة للأرمن و4 للاتين. وفي جدار تلك الكوة آثار نقوش من الفسيفساء تدل على أن هذا المكان كان مزيناً بزينة باهرة في أيام قسطنطين. وله احترام عند المسلمين.

ومقابل تلك الكوة من الجهة الأخرى من الكنيسة باب صغير ينزل منه ثلاث درجات إلى المذود الذي وضع فيه المسيح عند ولادته. لكن المذود نفسه غير ظاهر لأنهم كسوه بالرخام الأبيض في أسفله وبالأسمر في صدره. ووضعوا فيه تمثالاً من شمع يمثل الطفل يسوع. على أن هذه الكنيسة ومغارتها تقلبتا في أثناء النصرانية على أحوال شتى. وبجانب المغارة مكان يريدون به موقف المجوس لما جاؤوا ليسجدوا وهو خاص باللاتين. وقد اقتسمت الطوائف الثلاث المتقدم ذكرها أجزاء هذه الكنيسة بينها كما فعلوا في كنيسة القيامة. وشاهدنا الحرس وقوفاً بأسلحتهم منعاً لما قد يحدث من الخصام بسبب التنازع على تلك الأجزاء.

مسجد الخليل

الخليل أو حبرون على مسافة بضع ساعات من القدس وقد اشتهرت بقبور إبراهيم الخليل وعائلته. مسجدها طوله من الشمال إلى الجنوب 197 قدماً وعرضه 111 قدماً وحوله سور ضخم يشبه ما ذكرنا عن هيكل سليمان في القدس. أصله من بناء اليهود وصار قبل الإسلام كنيسة ثم جعله المسلمون جامعاً وأنشؤوا فيه منبراً يشبه منبر المسجد الأقصى. وفي الزاوية الشمالية الشرقية نقش يوناني يظن أنه من زمن الإمبراطور يوستنيان فيه ذكر إبراهيم ودعاء للذين بنوه.

وتحت المسجد غار قديم فيه أضرحة الآباء الأولين إبراهيم وأبنائه. دخوله ممنوع حتى على المسلمين ولا يؤذن في رؤيته إلا بفرمان خاص من السلطان. وقد صدر مثل هذا الفرمان سنة 1862 لولي عهد إنكلترا لما جاء الخليل في تلك السنة. ولم يتمكن أحد من تصوير أضرحته إلا مصور سوري تمكن بإذن خاص من تصويرها بالفوتوغراف منذ بضع سنين وقد نشرنا صورها وأخبارها في السنة الثامنة عشرة من الهلال.



مواضع القبور في الغار تحت مسجد الخليل

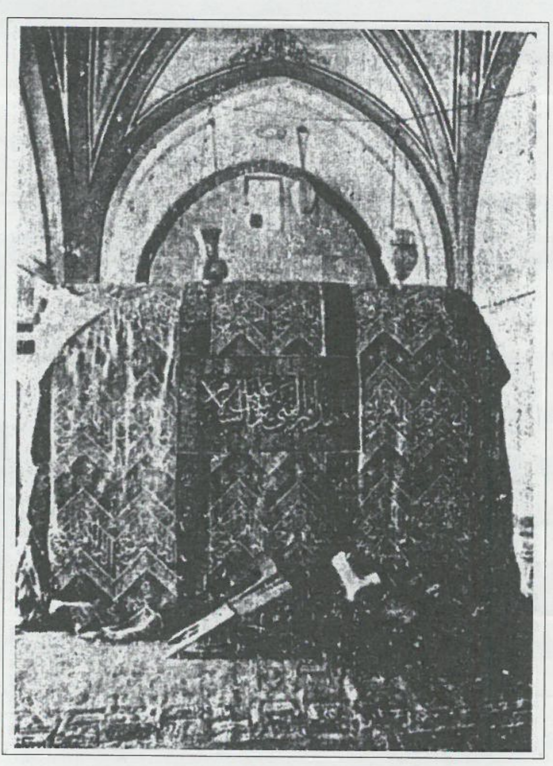
ووضع هذه القبور في الغار متحاذية كما تظهر في الشكل الرابع. فالمربع المعلم بالحرف ب يدل على مكان قبر إبراهيم. وج قبر سارة امرأته. وها قبر اسحق ود قبر رفقة امرأته. ول قبر يعقوب ور قبر ليئة أو لايقة امرأته وس قبر يوسف. ولكل قبر حجرة قائمة بنفسها لها باب من قضبان الحديد مطلية بالفضة. في وسطها مزار كالقبة على شكل

الأضرحة في المزارات الاعتيادية. وكل منها مكسو بالديباج المطرز بالآيات والكتابات والنقوش الجميلة.

ولكل ضريح وصف خاص وعليه نقش خاص وكتابة خاصة تدل على اسم المدفون فيه. فعلى ضريح يعقوب قوله «هذا قبر يعقوب النبي عليه السلام» وعلى قبر لائقة «هذا قبر سيدتنا لائقة رضي الله عنها زوجة النبي يعقوب عليه السلام».

وفي الشكل الخامس قبر يوسف وعليه كتابة هذا نصها «هذا قبر النبي يوسف عليه السلام» وعلى حاشية الغطاء طراز بالعربية فيه آيات قرآنية تتعلق بيوسف.

وفي حبرون شجرة بلوط قديمة في مستشفى روسي هناك يقال أنها بلوطة ممرا أو بلوطة إبراهيم.



قبر يوسف في الخليل

نابلس وما يجاورها

وفي الطريق من القدس إلى نابلس كثير من الآثار القديمة كل منها ينسب إلى حادث من حوادث التوراة أو جاء ذكره فيها مثل البيرة وعين الحرامية واللبن وغيرها.

بير يعقوب

وأشهر الآثار في ذلك الطريق بير يعقوب على مقربة من نابلس. والمظنون أنها البئر التي التقى السيد المسيح عندها بالمرأة السامرية. وبالقرب منها دفن يوسف الصديق ثم نقل إلى حبرون. وبنى النصارى فوق البئر معبداً تهدم وتقلبت عليه أحوال مختلفة وهو اليوم في أيدي الروم الأرثوذكس رأيناهم في الصيف الماضي يبنون فوقه كنيسة فخمة وديراً.

وقد نزلنا إلى الغرفة القائمة فوق البئر وفيها مذبح كالمعبد. ومن شاء أن يرى قاع البئر ينزلون له الشموع مضيئة على صفيحة تتدلى بالحبل إلى أسفلها فيرى القاع وماءه وفوهة البئر أحجارٌ كبيرة موضوعة حوله بشكل مربع.

نابلس

هي مدينة قديمة تسمى في التوراة «شكيم» جاء ذكرها في عهد الآباء الأولين وقد خيموا مدة بجوارها. وفيها اجتمع يشوع آخر اجتماع مع الشعب. ولها ذكر كثير في تاريخ الروم وهم سموها «Neapolis» أي البلد الجديد ومنها نابلس. ولنابلس شأن خاص بوجود طائفة السامرة فيها وسنفرد فصلاً خاصاً لتاريخ هذه الطائفة وتعاليمها وتوراتها وأحوالها الاجتماعية في ما يلي من هذه الرحلة.

ترتفع نابلس عن سطح البحر نحو 1870 قدماً. وهي مركز لواء تابع لولاية بيروت عدد سكانها نحو 27000 معظمهم مسلمون وفيها ثمانية مساجد وبضعة مدارس. لا يزيد عدد المسيحيين فيها على 700 نفس والسامريون نحو 170 نفساً. وهي واقعة بين جبلين: جرزيم وعيبال. وأسواقها كثيرة الشبه بأسواق القدس القديمة. وقد أخذوا في بناء القصور على النمط الحديث. وسنعود إلى وصفها عند كلامنا عن أحوال فلسطين الاجتماعية. وإنما يهمنا الآن الكلام عن آثارها التاريخية وأكثرها سامري. أكثر أبنيتها في سفح جبل جرزيم ولهذا السفح منظر جميل لمن يشرف عليه من الجبل المقابل لكثرة حدائقه وبساتينه. ويسمى جبل جرزيم أيضاً جبل الطور والجبل القبلي وعليه أكثر الآثار السامرية. قمته مسطحة عليها آثار قلعة يظن أنها من بناء يوستنيان الروماني حجارتها ضخمة وهناك صهاريج وأنقاض يختص السامريون حجراً مرتفعاً منها يزعمون أنه مذبح هيكلهم القديم من عهد موسى أو قبله. ويدلونك على نقطة في الزاوية الجنوبية الشرقية من الجبل يقولون أنها المكان الذي أوشك إبراهيم أن يذبح ابنه اسحق فيه. ويرى الواقف على ذلك الجبل منظراً طبيعياً بديعاً لما يطل عليه من الجبال والقرى والأودية إلى بعد شاسع.

أم جبل عيبال أو الجبل الشمالي فعلوه 3077 قدماً على قمته أطلال قلعة قديمة وخرائب كنيسة. والمنظر منها أكثر إشراقاً من جبل جرزيم شمالاً إلى الجليل.

حيفا

وفي الطريق من نابلس إلى حيفا يمر المسافر بكثير من الأماكن الأثرية أهمها سبسطية وهي السامرة القديمة اشتهرت في أيام المكابيين وبها سميت أكثر فلسطين. لا تزال أنقاضها باقية على تل علوه 330 قدماً فوق الطريق. وبعدها جنين وهي بلد عامر، النفوذ فيه لآل عبد الهادي مثل سائر جبال نابلس كما سيجيء في كلامنا عن الحالة الاجتماعية. وهناك سهل يزرعيل واللجون وغيرها إلى حيفا.

وحيفا مدينة تجارية جميلة ازدادت عمراناً في هذا العصر عدد سكانها. ولاسيما بعد أن صارت محطة للسكة الحديدية الحجازية . نحو 20000 نفس وقد كثرت فيها الأبنية على الطراز الجديد واتسعت تجارتها. وكان مكانها في زمن اليونان والرومان بلد اسمها سيكانيوم ولها دخل في الحروب الصليبية وغيرها. وفيها مستعمرة ألمانية.

جبل الكرمل

وليس في حيفا من الآثار التاريخية ما يستحق الالتفات إلا جبل الكرمل ويسمى جبل مار الياس. وله ذكر في التوراة وهو يمتد من شاطئ بحر الروم نحو الجنوب والشرق إلى مرج ابن عامر. وقد بنيت حيفا في سفحه الشرقي، ولها ميناء مجوف كبير وعلى قمة جبل الكرمل دير مار الياس علوه 558 قدماً عن سطح البحر للاتين الكرمليين فيه نحو عشرين راهباً، وكنيسة مبنية على النمط الإيطالي المزخرف وفيها صور قديمة وتماثيل. وتحت المذبح مغارة يزعمون أن النبي إلياس كان يقيم فيها. وللدير شرفة تطل على مسافة بعيدة من البحر والبر. ويقع بصر الواقف عندها على سهل يزرعيل ونهر كيشون وتل قسيس وجبال الناصرة وطابور وبعض جبل حرمون وسهول الأردن وعكا وزمارين وغيرها.

عكا

وعكا واقعة شمالي حيفا على شاطئ البحر. وهي بلد مسور تاريخه طويل يتصل بأخبار التوراة، ولها دخل في أهم المواقع الحربية البحرية في زمن اليونان والرومان والإسلام. عدد سكانها نحو 12000 نفس وهي عبارة عن قلعة كبيرة كالرأس داخلة في

البحر. واشتهرت على الخصوص في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر بمن ظهر فيها من الولاة والأمراء مثل ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار وعبد الله باشا واتخذتها الدولة العثمانية سجناً أو منفى لكبار المجرمين.

ولا يزال سورها باقياً إلى الآن وقد تهدم بعضه وفتحت الحكومة جانباً منه لإطلاق سبيل المدينة والتوسعة على أهلها. وكثيراً ما كنا نسمع عن فظائع الجزار صاحب عكا وعن تعذيبه الناس في السجون المظلمة. فلما دخلنا المدينة اتجه همنا بالأكثر إلى مشاهدة ذلك السور الإطلاع على تلك السجون.

سور عكا وسجن الجزار

أما السور فإنه مزدوج ضخم جدرانه قائمة على قناطر متينة عقودها مقفلة من الخارج مفتوحة من الداخل. ولا يزال بعض المدافع القديمة مبعثرة هناك. وكان للسور باب واحد في الشرق ففتحوا باباً آخر في الغرب أو طريقاً تقدم ذكره. وأكد لنا وجيه من وجهاء عكا أن الفعلة وهم ينقبون في السور لفتح ذلك الطريق عثروا على هياكل بشرية مدفونة بين جداري السور. فثبت لدينا ما كنا نسمعه عن شدة وطأة الجزار على المجرمين أنه كان يضعهم وهم أحياء في السور ويبني فوقهم.

وبحثنا عن سجن الجزار فإذا هو في القسم الجنوبي من السور تحت الأرض في أقبية مظلمة يستطرق بعضها إلى بعض وقد خيم الإهمال عليها. وشاهدنا في خرائبها بعض آلات العذاب للصلب أو القتل. وقطعاً من أدوات المدافع ونحوها. فهذه الآثار الفظيعة يجدر بالحكومة أن تنقل منها ما يستحق التذكار وتضعه في متاحفها.

وداخل المدينة شوارع تشبه شوارع سائر مدن تلك الأيام لا تزال كما كانت في زمن الجزار. وفي عكا عدة أبنية كبيرة في جملتها قصر عبد الله باشا وهو الآن مسكن بعض الوجهاء بالأجرة.

وأهم آثار عكا التاريخية جامع الجزار وهو مسجد فخم بين يديه صحن فيه مغارس وأساطين. ويشبه في شكله شكل جامع محمد علي بالقلعة لكنه أقل فخامة منه. وعلى عتبته العليا قصيدة فيها بيت لتاريخ بنائه سنة 1196هـ [1781- 1782م].

وبجانب الجامع غرفة فيها قبر الجزار عليها ضريح فيه نقوش كتابية هذا نصها: «هذا قبر المرحوم المحتاج إلى غفران الواحد الغفار الحاج أحمد باشا الجزار عليه رحمة العزيز الغفار سنة 1219هـ [1804-1805]».

ثالثاً ـ أحوالها الاجتماعية

أجناس أهل فلسطين

يقسم سكان فلسطين من حيث الجنس إلى وطنيين وأجانب. فالوطنيون هم: العرب والسوريون واليهود ـ وإليك البيان:

1 ـ العرب

فالعرب نريد بهم القبائل العربية التي لا تزال محافظة على أنسابها وعاداتها العربية. وهم طبقتان البدو والحضر فالبد مثل سائر العرب الرحل يتنقلون بمضاربهم وأنعامهم إلى حيث يطيب لهم المرعى أو يأمنون الغزو. وأشهر هذه القبائل الآن بنو عنزة ويقسمون إلى أربع قبائل: ولد علي والحصنة [الاحسنة] والرولا وبشر. ويقدر عددهم بنحو 30.000 نفس. ومن البدو في فلسطين الغزاوية والصقر في سهل مرج ابن عامر يسطون على مزارع الناس وينهبونها، ووجودهم هناك بعث على إهمال زراعة كثير من تلك الأرضين. ويقدرون عددهم بنحو 2000 نفس.

وأما الحضر وهم العرب المقيمون فيشتغلون بالزرع منهم الغوارنة نسبة إلى غور بيسان. ومن بني صخر طائفة من الحضر أيضاً يقيمون في مواب.

2 ـ السوريون

نريد بالسوريين من تعرب من سكان سوريا وفلسطين بعد الإسلام. وهم طبقات يصعب تمييزها والتفريق بينها وبين بقايا سكان تلك البلاد الأصليين. لكننا رغبة في الإيضاح نقسمهم إلى الأقسام الآتية:

أولاً: بقايا سكان تلك البلاد الأصليين من السريان والآراميين وغيرهم من الأمم التي توطنت سوريا وفلسطين قبل الإسلام وتعربوا بتوالي الأجيال تحت سلطة العرب.

ثانياً: بقايا قبائل العرب التي نزلت فلسطين عند الفتح الإسلامي أو بعده وتناسلت فيه. وهؤلاء طبقتان: الأولى المسلمون أهل البيوتات الذين لا يزالون محافظين على أنسابهم. ومنهم الأشراف الذين ينتسبون إلى بيت النبي أو إلى بعض الصحابة. ومنهم من ينتسب إلى بعض الأمراء والحكام من حوران أو غيرهم. فالأشراف في فلسطين.

1 ـ **بيت الحسيني:** نسبة إلى الحسين بن علي. أشهرهم بيت الحسيني في القدس وغزة. وهم ينسبون إلى جدهم السيد بدر المشهور بالسلطان بدر المتوفى سنة 650هـ المدفون في الزاوية الواقعة بوادي النسور في ضواحي القدس. وأول من استوطن بيت المقدس من أولاده تاج الدين أبو الوفاء محمد البدري سنة 782هـ وتوفي سنة 803هـ وهو الجد الجامع للعائلة الحسينية بالقدس وبيت السادة الوفائية بمصر. وعدد الحسينية في القدس نحو 140 من الذكور. ومنهم طائفة من أصحاب الوجاهة والنفوذ والعلم.

2 ـ **بيت السعيد في يافا:** يتصل نسبهم بادريس الكبير بن عبد الله من سلالة الحسن بن علي. وأول من نزل فلسطين منهم (أبو النصر) جاءها منذ ستة قرون ونزل حجة بجوار نابلس وتكاثر نسله هناك فتفرقوا في فلسطين واشتهر منهم (دهيس) بين أهل البادية في القرن الثامن عشر. وعرف هذا الفرع بأسرة دهيس. واشتهر من أحفاده سعيد بك بن مصطفى بن عثمان بن دهيس. وتولى حكومة القدس وغيرها تحت ولاية عبد الله باشا صاحب عكا وحارب باسمه مراراً ودافع معه عن عكا لما حاصرها إبراهيم باشا وتوسط في الصلح بينهما. فولاه إبراهيم غزة فكان له عوناً في إخماد ثورة القدس وغيرها. وهو والد حافظ بك السعيد وجيه يافا ونائبها في مجلس المبعوثان السابق.

3 ـ **بيت العَلمي:** ينتسبون إلى الحسن بن علي ومنهم جماعة من العلماء في القدس وغيرها.

4 ـ **بيت الخالدي:** ينتسبون إلى خالد بن الوليد الصحابي الفاتح الشهير. وقد نبغ منهم طائفة من العلماء والوجهاء.

أما البيوتات أو العشائر التي تنتسب إلى الأمراء أو غيرهم من أهل الوجاهة فأشهرهم:

1 ـ **بيت عبد الهادي:** أصل هذه العشيرة من القسطل في البلقاء ونزحوا منها بمن لحق بهم من أهلهم وأعوانهم إلى جبل نابلس منذ نحو ثلاثة قرون فنزلوا قرية «عرّابة» وتفرقوا منها في نابلس وجنين والناصرة وغيرها. وهم أصحاب الكلمة العليا في تلك الجهات ولهم ثروة ووجاهة ومنزلة رفيعة.

2 ـ **بيت جرار:** هم من أقران بيت الهادي نزحوا معهم من القسطل إلى جبل نابلس فنزلوا قلعة صانور منذ ثلاثة قرون، وهم من خيرة وجهاء نابلس.

3 ـ **بيت طوقان:** وهم عشيرة كبيرة في بلاد نابلس ينتسبون إلى مشرف من آل بكر ابن وائل، هكذا في الروض البسام صفحة 21.

والطبقة الثانية من العرب المسلمين في فلسطين ضاعت أنسابهم بتوالي الأجيال وأكثرهم من العامة ومنهم طائفة من أهل الوجاهة والثروة والعلم.

ثالثاً: العرب النصارى الذين انتقلوا من حوران أو غيرها في أزمان مختلفة واندمجوا في أهل البلاد. وبعضهم لا يزالون إلى الآن يرجعون بأنسابهم إلى أجدادهم من غسان أو غيرهم.

رابعاً: المستعربون من جالية الإفرنج بعد الفتح الإسلامي من اليونان والإيطاليان وغيرهم. وناهيك بمن خلفهم الصليبيون على أثر إقامتهم الطويلة فيها. ولا تزال آثار ذلك ظاهرة في ملامح الفلسطينيين وأسمائهم إلى الآن. وهذا غالب في النصارى وخصوصاً في القدس وما يجاورها. وبنوع أخص في أهل بيت لحم فإن ملامحهم قريبة جداً من ملامح الإفرنج. وأردنا تحقيق ذلك فبحثنا عن أنساب العائلات الشهيرة هناك فلم نعثر على سجلات أو تقاليد تؤيد ذلك بعد ولا نزال نوالي البحث.

خامساً: المستعربون من الأتراك والجركس والأفغان والأرمن وغيرهم من الأمم الشرقية التي نزلت تلك البلاد وتوطنوها بعد الإسلام وأكثرهم من المسلمين.

3 ـ اليهود

هم أقدم الأمم الفلسطينية الباقية إلى الآن. ولهم في موضوعنا شأنٌ خاص لما هم ساعون فيه من أمر الصهيونية واستعمار فلسطين. وعددهم الآن نحو 78000 أكثرهم في القدس ويافا. وهم طبقتان اليهود الوطنيون الذين ظلوا في بلدهم بعد السبي. واليهود الغرباء الذي عادوا إليه في العهد الأخير. وهؤلاء أكثر عدداً من أولئك وقد فصلنا سبب نزوحهم في مقالة الصهيونية في الهلال الثاني من هذه السنة.

وتقسم جالية اليهود في فلسطين إلى صفارية [سفارديم] واشكنازية والصفارية عددهم 4500 نفس أكثرهم يمنية ومغاربة ومنهم جماعة من جالية كردستان وبخارا والعراق.

وأما الاشكنازية فإنهم أكثر كثيراً منهم في القدس وحدها نحو 40000 نفس ولكل من هذه الجماعات عادات خاصة وأخلاق خاصة فضلاً عن الأخلاق اليهودية الأصلية.

وأما الأجانب في فلسطين فنريد بهم الأمم التي تقيم فيها ولا تزال محافظة على جنسياتها. وفيهم الإفرنج على اختلاف البلاد واللغات وأهل المشرق الأتراك والأرمن والأفغان والكرج وغيرهم.

أديان أهل فلسطين

في فلسطين أمثلة من أديان شتى أشهرها المسلمون والنصارى واليهود والسامريون والمسلمون أكثر عدداً من سائر الطوائف يليهم النصارى ثم اليهود وأخيراً السامريون.

والمسلمون يشبهون مسلمي مصر والشام من أكثر الوجوه ولا حاجة إلى الكلام عنهم من جهة الدين. وإنما نقول بالإجمالي أنهم مادة البلاد ووجهاؤها وأصحاب الثروة والنفوذ فيها.

أما النصارى فيختلفون عن نصارى مصر بكثرة مذاهبهم وتعدد طوائفهم حول القبر المقدس. ففيهم اللاتين والروم والأرثوذكس والروم والكاثوليك والسريان والأرمن واليعاقبة والموارنة والنساطرة والقبط والإنجيليون وغيرهم. وعددهم في متصرفية القدس نحو 50.000 نفس. واليهود تقدم الكلام عليهم.

بقي أن نقول كلمة في السامريين وهم يستلفتون انتباه الباحث الاجتماعي لأنهم بقية أمة قديمة ذاهبة إلى الفناء، لم تخالف سنة الاجتماع ولا استطاعت تجديد شبابها ومغالبة الأيام كما فعل اليهود.

السامريون أو السمرة أصلهم تاريخهم

بين يدينا تاريخ للسامرة مخطوط دفعه إلينا الكاهن يعقوب بن هارون رئيس كهنة السامريين الآن. وقد جاء فيه أن السامريين هم اليهود الأصليون وينتسبون في أصل أرومتهم إلى يوسف الصديق إلا كاهنهم فإنه ينتسب إلى لاوي. ويعتقدون أن اليهود انشقوا عنهم وخالطوا الأمم الأخرى. ولكن أهل البحث يرون أن السامريين ليسو يهوداً ولا من أصل يهودي. وإنهم سموا بهذا الاسم نسبة إلى أرض السامرة في فلسطين. وفي حقيقة أصلهم أقوالٌ أشهرها أنهم من بلاد فارس من بلدة كانت تسمى كوتا. وخلاصة ما قيل في هذا الموضوع أن أحد ملوك أشور سطا على فلسطين في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد واكتسح السامرة واستخرج اليهود منها. وما زالت السامرة خالية من السكان حتى جاء ملك آخر منهم فملأها بقوم حملهم إليها من بلاده. وإليك ما ورد في سفر الملوك الثاني [ص 17: ع24] (وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفروائيم وأسكنهم في مدن السامرة مكان بني إسرائيل فملكوا السامرة واستوطنوا مدنها) والمظنون أن الملك الذي نقلهم هو أسرحدون وكانوا في أول أمرهم يعبدون الأوثان، وهم خمس قبائل تعبد كل منها صنماً حملته معها من بلادها. قال يوسيفوس (والكوتيون جاؤا في بادئ الرأي من

أقصى بلاد ماري وفارس ثم دعوا سامريين نسبة إلى السامرة التي انتقلوا إليها) ثم قال (وهم يسمون بالعبرانية كوتيين وباليونانية سامريين) على أنهم كانوا يحاولون الانتساب إلى اليهود تزلفاً إليهم أو تشرفاً بأصلهم واليهود يتبرؤون منهم. ويظهر تبرؤهم جلياً من مراجعة الأناجيل فإنها تدل على ذلك دلالة صريحة في أماكن كثيرة.

وللسامرة تاريخ يمكن استخراجه من ثنايا التوراة. وأما بعد زمن التوراة فتاريخهم تابع لتاريخ بلادهم. وقد لاقوا اضطهاداً كثيراً من الرومانيين وغيرهم. ويؤخذ من رحلة بنيامين التودلي في القرن الثاني عشر للميلاد أن السامريين كان عددهم نحو ألف نفس في فلسطين. وما زالوا يتناقصون إلى الآن. فقد أخبرنا الكاهن يعقوب المشار إليه أن عددهم لا يتجاوز 175 نفساً ويظهر أنهم صائرون إلى الفناء لأسباب اجتماعية اقتصادية كما يتضح مما يلي:

أحوال السامريين الآن

لم يبق من السامريين الآن غير المقيمين في نابلس عند سفح جبل جرزيم في حي خاص بهم. ولهم كنيسة تعرف باسمهم يظهر القدم عليها. وعددهم جميعاً 175 نفساً منهم 98 من الذكور و77 من الإناث. ومن الذكور الآن نحو 30 شاباً في استعداد للزواج وليس بين الأثاث في محل الزواج إلا ثلاث بنات. فهذا سبب طبيعي لقلة النسل. ولو أراد هؤلاء الشباب التزوج من غير السامريين لا يجدون من يزوجهم لا من اليهود ولا النصارى ولا المسلمين ولا غيرهم. ولذلك قلنا إنه قد حكم عليهم بالزوال.

ويؤيد ذلك سوء حالهم الاقتصادية فإنهم في غاية الفقر ليس فيهم من يملك قرية أو يتعاطى تجارة. وقد غلبتهم الديون فإذا كان لأحدهم بيت كان عليه من الدين ضعف قيمته. أخبرنا كاهنهم أنه كان لهذه الطائفة نحو 400 فدان من الأرض تستغلها غرقت في الديون واستولى عليها أصحاب الدين.

وقد تولاهم الخمول الذي يستولي على الأمم في شيخوختها فلا تجد فيهم من يشتغل للمستقبل. لا مطامع ولا همة ولا إقدام أو نشاط. وليس بينهم من أهل الصناعة إلا خمسة نجارين وخمسة خياطين وبعض الباعة. وأنك لتدهشك ما تقرأه على وجوه القوم من اليأس ولا سيما أهل التفكير منهم فإنهم يتوقعون زوال هذه الأمة بحكم الطبع ويتساءلون عما ينجيهم من ذلك فلا يجدون من يأخذ بيدهم.

ومع ذلك فإنهم شديد والتمسك باعتقاداتهم لا يتنازلون عن حرف منها. أهمها أن

جبال جرزيم هو الجبل المقدس كما يقول اليهود عن جبل موريا. وأن خيمة الاجتماع وتابوت العهد وسائر الآنية المقدسة مدفونة في جبل جرزيم. وهم يحجون إلى ذلك الجبل في أعيادهم الثلاثة التي يحج فيها اليهود إلى القدس. وهي عيد الفصح وعيد العريش وعيد الأسابيع. ويذبحون خروف الفصح على ذلك الجبل. وهم يتوقعون مجيء المسيح متى تمت ستة آلاف سنة من الخليقة. ولهم أدلة كثيرة وأبحاث طويلة في هذا الشأن. يتكلمون اللغة العربية مثل سائر أهل نابلس. لكنهم يكتبون ويصلون باللغة السامرية هي اللغة العبرانية نفسها تكتب بأحرف خاصة هي الأحرف السامرية المتفرعة من القلم الفينيقي وبها يكتبون توراتهم وسائر كتبهم، وليس للسامريين آداب خاصة تستحق الذكر. وأكثر كتبهم صلوات ودعوات وأبحاث لاهوتية في مناقشة اليهود من حيث صحة اعتقادهم. وعندهم كتب تاريخية قليلة ليس بينها ما تتجاوز كتابته القرن العاشر للميلاد وقد لخصها الكاهن يعقوب هذا في تاريخ عام استنسخناه وقد أشرنا إليه في ما تقدم. لكنه محشو بالمسائل الدينية وكثير من الخرافات. وفيه نصوص من التوراة نقلها بحرفها السامي ومعناها العربي. وفي آخره نسب الكاهن المشار إليه. ولغة التاريخ سقيمة وربما نشرنا ملخص هذا التاريخ في فرصة أخرى. وكان للسامريين أدب وشعر نحو شعر التوراة كالمزامير ونحوه لم يبق منه إلا القليل وقد تشوهت لغته وأسلوبه وحروفه.

التوراة السامرية

هي أهم آداب لسانهم وتعرف بالتوراة السامرية. وهي عبارة عن الأسفار الخمسة الأولى ولا يعتبرون سواها من الأسفار. وهي كالأسفار الخمسة التي لليهود في اللغة العبرانية نفسها لكنها مكتوبة بالحرف السامري. وإنما تختلف عن التوراة العبرانية في بعض النصوص من حيث أعمار الآباء ونص بعض الوصايا وغير ذلك نحو ما تختلف عنها الترجمة السبعينية وقد طبعت التوراة السامرية في لندن قديماً.

ومن هذه التوراة نسخ قديمة في متاحف أوربا مخطوطة على رقوق أو جلود. أقدمها كلمة نسخة في شكل درج محفوظة في كنيس السامريين في نابلس لا يطلعون عليه أحداً إلا في ظروف مخصوصة. وأما ما يذكره السياح عن التوراة السامرية القديمة فيريدون به نسخة أخرى أحدث منها عهداً يقولون أنها كتبت منذ عشرين قرناً وأما تلك فإنهم شديدو الحرص عليها يتسلمها كهنتهم للمحافظة عليها. ولهم ضرائب على الشعب في سبيل هذه المحافظة. لأنهم يتبركون بها إذ لم يبق من ذخائرهم الدينية سواها. والكهنة

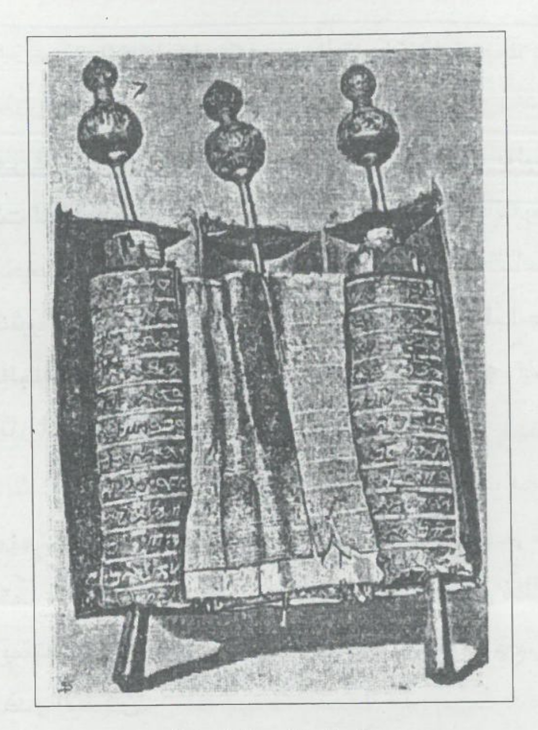
يتوارثون الكهانة ويتوارثون معها حق المحافظة على هذه التوراة. آخرهم الكاهن يعقوب بن اسحق المتقدم ذكره. ويعتقدون أنها كتبت بعد موسى بقليل كتبها ابيشع بن فنحاس بن اليعاوزر بن هرون الكاهن. وقد رأيناها موضوعة في صندوق عليه نقوش وهي ملفوفة بغطاء من الحرير الأخضر مطرز الحواشي. وقد تلطف الكاهن يعقوب بإخراج هذا الكنز الثمين من مخبئه وأطلعنا عليه وطلب إلينا إبداء رأينا في قدم عهده.

والتوراة المذكورة مكتوبة على رق في شكل درج ينتهي من طرفيه بعمودين يلف عليهما الدرج من الطرفين. وإذا أرادوا قراءة فصل منها أداروا العمودين حتى ينكشف المراد قراءته . غير عمود ثالث في الوسط. وقد تأملنا هذا السفر جيداً وقرأنا تاريخ كتابته في آخره، على عادة السامريين في تاريخ ما يكتبونه. ولهم في ذلك طريقة لا يخشى معها التزوير أو التحوير.

وذلك أنهم يقتطعون حروفاً من عبارة التوراة نفسها . يستفردون في كل سطر حرفاً أو حرفين يجعلونها متناسقة في خط واحد في منتصف الصفحة تنقسم به الصفحة إلى حقلين وبينهما عمود مؤلف من الأحرف المتقطعة يفعلون ذلك في عدة صفحات أو عدة فصول من الكتاب المراد تاريخ كتابته بحيث يجتمع من تلك الأحرف حسب ورودهما فقرة تشتمل على اسم الكاتب وسنة الكتابة ومكانها ونحو ذلك. فهذه الطريقة لا يخش وقوع التزوير فيها . لأن كل حرف من الحروف المقتطعة يؤلف جزءاً من الكلمة التي اقتطع منها . فإذا أبدل بحرف آخر ظهر ذلك بما يحدث من التشويش أو النقص في تلك الكلمة أو في سياق الكلام.

والأحرف المقتطعة لتاريخ هذه التوراة تتألف منها فقرة هذه ترجمتها العربية: (أنا بيشع بن فنحاس بن العازر بن هارون الكاهن عليهم رضوان الله وإجلاله كتبت هذا السفر المقدس في باب خباء المحضر بجبل جرزيم في سنة ثلاث عشرة لدخول بني إسرائيل أرض كنعان على حدودها دائراً أحمد الله).

وقد تأملنا أحرف هذه الفقرة في الأصل جيداً فلم يظهر لنا فيها بالعين المجردة كشط ولا إضافة. على أن هذا لا يمنع حدوث ذلك وظهوره تحت الميكروسكوب أو بالفحص الكيماوي، وأن كنا نرجح سلامة هذا النص من التلاعب. فإذا صح ذلك وجب أن يكون هذا السفر قد كتب منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة. فتكون هذه النسخة أقدم مخطوطات العالم على الإطلاق. إذ ليس بين مخطوطات المتاحف على الرقوق أو الجلود ما يتجاوز تاريخ الميلاد . وقد تباع لذلك بثمن يكفي للنهوض بهذه الأمة الهرمة وتجديد شبابها .



توراة سامرية قديمة

ويرى السامريون أن هذا التاريخ لا يقبل الاعتراض وقد أكد لنا الكاهن يعقوب أن بعضهم ساومه على ابتياع هذه التوراة بعشرات الألوف من الجنيهات. فلم يبعها احتفاظاً بهذا الأثر المقدس الذي سلم إليه من أجداده. فلا يريد أن يفرط فيه. وحسن اعتقاده وأمانته أبقيا هذا السفر إلى الآن. فإذا خلفه كاهن ضعيف الإيمان باعه وهو البقية الباقية من جامعة تلك الأمة فإذا ذهبت انفرط عقدها وقضي عليها .

وفي رأينا أن هذا السفر لا يمكن أن يكون عمره ثلاثة آلاف سنة للاعتبارات الآتية:

1- أن الرق المكتوب عليه لا يصبر على البقاء هذا الدهر الطويل. وبينه وبين أقدم أثر خطي معروف بضعة عشر قرناً.

2- أن أحرف هذا السفر في غاية الانتظام والتناسب كأنها كتبت منذ بضع مئات من السنين. والحرف السامري تفرع عن الحرف الفينيقي وتدرج في الانتظام والتناسب بمرور الأجيال عملاً بسنة النشوء. فلا يتكامل تكونه إلا بعد عدة قرون، مع أن الحرف الفينيقي نفسه لم يوجد قبل ذلك التاريخ بكثير. وشأننا في ذلك شأن من يأتينا بأثر عربي مكتوب بخط فارسي جميل ويقول إنه كتب قبل الإسلام أو عند ظهور الإسلام فنحكم حالاً أنه مزوّر لعلمنا أن الخط العربي لم يصل إلى هذا الشكل إلا بعد أن مرَّ عليه

نحو ألف سنة. فلا نصدق القائل ولو كان صادقاً ولكننا نبحث عن سبب وقوع هذا التناقض.

فالتوراة السامرية التي نحن في صددها إذا لم يظهر فيها بالبحث المكروسكوبي أو الكيماوي تلاعب ثبتت لنا سلامتها من التزوير. فنعلل قدم هذا التاريخ فيها أنها منسوخة عن أصل قديم كتبه حفيد هرون الكاهن كما قال. فلما نسخه الناسخ حافظ على نص قوله تماماً. وهذا كثيراً ما يقع في نسخ الكتب ويلتبس على الباحثين أن يعينوا زمنها. ولكنهم يستعينون غالباً بشكل الخط لأن لكل عصر شكلاً منه. وفي كل حال فإن هذه النسخة من أقدم الآثار المخطوطة في العالم.

نظام الاجتماع فيها

إن نظام الاجتماع في فلسطين الآن في دور الانتقال، مثل نظام الاجتماع في سائر الشرق العربي. فلا يستطاع تعيين طبقاته والتفريق بينها بوضوح. لكننا لا نعدم وسيلة لتمثيله للقارئ على قدر الإمكان.

كان نظام الاجتماع في الشرق العربي أو الإسلامي إلى أوائل القرن التاسع عشر نحو ما كان عليه في الأجيال الإسلامية الوسطى مؤلفاً من طبقتين الخاصة والعامة.

والخاصة عبارة عن الحكومة وأرباب البيوتات ومن يلحق بهم. والعامة هم التجار والصناع والفلاحون ونحوهم.

وبما أن الحكومة تركية وأكابرها من الأتراك، والرعايا من العرب، كانت الخاصة رجال الحكومة الأتراك ومن يلحق بهم من الأعوان. والعامة أكثرهم من العرب أبناء البلاد. وبما أن الحكومة إسلامية فالمسلمون كانوا أعز جانباً وأقوى نفوذاً من سواهم. وإذا جمعت بين القضيتين تبين لك أن طبقات الاجتماع في فلسطين وسوريا ثلاث:

(1) رجال الحكومة الأتراك ومن يلحق بهم.

(2) المسلمون أهل الأنساب والموظفين وغيرهم.

(3) المسيحيون واليهود أو أهل الذمة.

فالسيادة أو النفوذ للمسلمين. وكانت الآداب الاجتماعية من حيث العادات والمعاملات أيضاً إسلامية، حتى الحجاب فإن استعماله كان عاماً عند المسلمين وسواهم.

وكان المسيحيون فرقاً لا تزال باقية إلى الآن. وكل فرقة مؤلفة من طبقتين: العامة وفيهم التجار والصناع وغيرهم يرأسهم طائفة الأكليروس في أحوالهم الاجتماعية

ونظاماتهم العائلية حتى في شؤونهم الشخصية. وهؤلاء هم الخاصة عندهم مع رجال العشائر القديمة. على أن سيادة رجال الدين كانت ولا تزال شائعة عند الطوائف النصرانية وغيرها.

ذلك كان نظام الاجتماع لما حمل بونابرت على مصر والشام في آخر القرن الثامن عشر ومعه بذور المدنية الحديثة، لكنه لم يمكث طويلاً ولم يبق لحملته أثر اجتماعي يستحق الذكر. ثم دعت الأحوال السياسية وغير السياسية إلى تكاثر الأجانب في بلادنا لأغراض مختلفة وسلاحهم الامتيازات الأجنبية يحمون بها أرواحهم وأموالهم.

وأخذت فئة منهم في فتح المدارس ونشر العلم لأغراض أكثرها تبشيري في سبيل نشر النصرانية، وأخذت كل طائفة تبث آدابها وتعاليمها. وانتشار آداب القوم في أمة يحبب أولئك القوم إليها، ولم يقبل على تلك المدارس التبشيرية في أول الأمر غير المسيحيين فكانوا لذلك أسرع تناولاً للعلم الحديث وغيره من أسباب هذه المدنية.

وعكفوا على مطالعة آداب الإفرنج ولا سيما الفرنساوية ونبغ منهم المتأدبون بالآداب الحديثة ودبت فيهم روح العصر المبنية على الحرية الشخصية، وتعلموا لغات الأجانب وسائر عوامل هذه المدنية من الصحافة والطباعة ونحوهما. وسهل عليهم الاشتغال بالصنائع الإفرنجية والتجارات الحديثة. فخفوا للأسفار في سبيل التجارة أو العلم وأكثرهم من العامة، فاكتسبوا الأموال وظهروا في عالم السياسة والعلم في بلادهم وخارجها.

ثم رأى عقلاء المسلمين ثمار العلم في جيرانهم فعكفوا على التعلم في المدارس الإفرنجية والوطنية على النمط الحديث، وتعلموا اللغات والتجارات والصنائع ونبغت منهم طائفة حسنة على قواعد المدنية الحديثة.

فتولد في نظام الاجتماع بسوريا وفلسطين طبقة المتعلمين من النصارى والمسلمين، وأكثرهم من العامة الذين ارتقوا بجدهم وسعيهم حتى صاروا من الخاصة في الثروة والوجاهة والعلم. وفيهم الشباب المفكرون طلاب الإصلاح يريدون مجاراة الأمم الراقية في نظام الاجتماع والاهتمام بترقية شؤونهم بحيث ينال كل ذي حق حقه، فأخذوا يقلبون الدفاتر القديمة وينقبون عن الغلطات المتوارثة ويحاولون إصلاحها في سبيل المصالح العامة على اختلاف أوجهها. فتألفت الأحزاب الإصلاحية لمطالبة رجال الدين بإصلاح نظام معابدهم وضبط أوقافها، والأحزاب السياسية لمطالبة الحكومة بإصلاح إدارتها ومشاركة الأمة في أمورها. ويعبر عن هذه الحركة بقيام العامة على رؤسائهم الدينيين

والسياسيين. فشق ذلك على الرؤساء واتفقت مصالحهم في مقاومة ذلك التيار، وكلا السلطتين استبدادية فتعب المطالبون ولا سيما طلاب الإصلاح السياسي، وما زالوا يتكتمون أو يلجؤون إلى من يحميهم من الدول الأجنبية حتى اشتد ساعدهم وفازوا بقلب الحكومة. فلما صارت الحكومة دستورية استبشر طلاب الإصلاح من كل طائفة وجاهروا بمطالبهم الدستورية في سبيل مصالحهم الطائفية أو الدينية، وهم لا ينالونها إلا بمساعدة الحكومة.

الأرثوذكسيون وأخوية القبر المقدس

هذه قضايا عامة تصدق على معظم الشرق العربي وخصوصاً على فلسطين. ونعني هنا قيام الشعب الأرثوذكسي على كهنته يطالبونهم بحقوقهم المهضومة. ولهم مسوغ لذلك القيام ليس لسواهم. نعني أن هاضمي حقوقهم يختلفون عنهم جنساً ولغة، فضلاً عن استبدادهم بالرئاسة الدينية. فقيام الأرثوذكسيين على رهبنة أخوية القبر المقدس طبيعي لأن هذه الأخوية قديمة ولها أوقاف طائلة تتصرف بها في مرافق لا ترى الطائفة لها الحق فيها. فقامت تشكو من صرف تلك الأموال في غير ما رصدت له. وطلبت ضبط حساباتها وإعطاء كل ذي حق حقه، يرمون من وراء ذلك إلى القبض على أوقافهم بأيديهم. فشق الإذعان لهذه المطالب على الرهبنة واحتدام الجدال منذ بضع عشرة سنة.

وقد ثبت الفلسطينيون في المطالبة ثباتاً حسناً واتخذوا كل وسيلة يمكن الوصول إليها، من تأليف الجمعيات، ونشر المنشورات، وكتابة المقالات، وتشكيل الوفود، وتقديم العرائض، فلم يجد ذلك نفعاً على عهد عبد الحميد.

فلما أعلن الدستور استأنفوا الشكوى وبعثوا وفداً إلى الأستانة التقينا به في رحلتنا هناك منذ بضع سنين. فأجابت الحكومة طلبهم بتأليف مجلس مختلط من العرب واليونان يقرر ما يجب عمله وأشياء أخرى.

ولم يأت ذلك بنتيجة بعد لأن شروط تشكيل المجلس تغيرت، وسعت الرهبنة في التفريق بين الناهضين بأساليب مختلفة لا محل لها هنا، فوقفت هذه الحركة مؤقتاً والنفوس لا تزال نازعة إلى مطالبها ولا بد من أن تنالها وتنال الاستقلال الكنسي كما نالته بلغاريا والشام وغيرهما، وهذه النهضة الاجتماعية في فلسطين غير قاصرة على النصارى، فإن المسلمين أيضاً نهضوا في مثل هذه المطالب لضبط أوقافهم المرصودة للمدارس وغيرها.

رابعاً ـ أحوالها الاقتصادية

ونعني أحوال فلسطين من حيث مصادر الرزق وأبواب المعاش. ويقال في فلسطين نحو ما يقال في سوريا. وذلك أن أبواب المعاش تبدلت بعد النهضة الاجتماعية في هذا القرن وحدثت مهنٌ وتجارات لم يكن يعرفها آباؤنا. وزادت أبواب النفقة وانتقلت الثروة الراقدة من الأسر القديمة إلى من يحسن استثمارها. ونبغت طائفة من الأغنياء الذين آثروا بجدهم واجتهادهم بالاتجار أو المهاجرة أو غير ذلك. وانقرضت بيوت قديمة كان لها مجدٌ موروث، شأن الأمم في انتقالها من طور إلى طور.

الارتزاق بالمهاجرة

فتح هذا الباب للسوريين منذ أربعين سنة، يوم ضاقت أبواب الرزق على العامة وتفتحت أعينهم بالتعليم أو بالاحتكاك بالأجانب وفسدت حكومتهم وهم أهل نشاط وإقدام، فلم يصبروا على الضيم والفقر. فأخذوا في المهاجرة إلى أميركا وأستراليا وغيرهما. وأكثرهم لا يملكون من أسباب النجاح إلا الهمة العالية والنفس الكبيرة والعزم الأكيد، فأفلحوا واكتسبوا الأموال الطائلة بالتجارة والطبابة والصحافة وغيرها، وصاروا من خاصة الناس. وعاد بعضهم إلى بلده أو قريته وقد أصبح وجيهاً بعد أن كان خاملاً، وتجد بين أولئك المهاجرين أناساً كانوا وهم في قريتهم يشتهون التقرب من أميرها أو شيخها بالخدمة في حقله، فأصبحوا بعد هجرتهم وقد ابتاعوا ذلك الحقل وابتنوا فيه قصراً فخيماً لم يبن ذلك الأمير مثله.

إن أمثلة أولئك الناجحين كثيرة في سوريا وفلسطين، وفيهم طائفة حسنة لهم المتاجر الواسعة في أوربا أميركا وغيرهما، وقد أشرنا إلى ما شاهدناه من ذلك في باريس ولندن ومنشستر في الصيف قبل الماضي.

فلو عاد أولئك المهاجرون إلى وطنهم بأموالهم واختبارهم [أي: خبرتهم] وأقاموا للعمل فيه لعمرت البلاد ولم يبقَ محل للشكوى. ولكنهم لا يفعلون ذلك لأن أحوالنا السياسية لم تستقر بعد. وبعضهم جاء ولم يطل مقامه وآخرون ابتاعوا الأرض وابتنوا القصور ثم اضطروا إلى الرجوع، وفيهم من استقر ببلده مع بقاء تجارته في المهجر، ومن هؤلاء كثيرون في فلسطين عرفنا منهم بيت جاسر وجهاء بيت لحم، فقد رأينا قصراً بناه هناك أنفقوا في بنائه 30.000 جنيه ولم يتم بعد. لكن تجارتهم لا تزال في محلاتهم بباريس وغيرها من المهجر.

الثروة الطبيعية

على أننا إذا نظرنا إلى ثروة بلادنا الطبيعية كالعقار ونحوه من حيث زرعها واستخراج معادنها وسائر خيراتها لرأينا البلاد غنية بنفسها لكنها تحتاج إلى العمل.

رأينا في طريقنا من القدس إلى نابلس ومنها إلى جنين فحيفا بقاعاً كثيرة بأنها سهول واسعة لم تبذل العناية في استغلالها إلا قليلاً، ولا ريب أن إصلاح الري يضاعف غلتها، وما كان منها جبلاً يمكن جعله غابات غضة ينتفع بأخشابها وأظلالها. كما فعلوا بجبل الكرمل بجوار حيفا، فإنه مكسو بالأشجار والغابات فيصح أن يكون مثالاً لغرس سائر جبال فلسطين، وقد جرب الأهلون غرس بعض تلك الجبال زيتوناً فيجدر بهم أن يجعلوا غرسه عامّاً.

وقد يعترض بأن تلك الجبال صخرية لا ينابيع فيها ولا سبيل إلى ريها، وهو اعتراض وجيه إذا طلبنا غرسها حنطة أو قطناً. وإنما نطلب غرسها أشجاراً لا تحتاج إلى غير ما تجود به السماء في فصل الشتاء. على أننا شاهدنا في وادي اليرموك بين طبريا ودرعة شلالات تتدفق من قمم الجبال كالسيل وتنساب بين الصخور حتى تنصب في نهر اليرموك وتختلط بمائه، ومن هذه الشلالات زيزون وتل شهاب ينحدر ماؤهما كالزلال بين صخور جرداء. إلاّ ما يمسه الماء منها فقد كسته الخضرة. وكل شلال منها يمكن استخدامه لتدوير عدة مطاحن أو آلات تولد الكهربائية أو قوة أخرى تستخدم في الحرث والغرس والحمل والنقل.

إن منظرها البديع استوقف خاطرنا ولولا اضطرارنا لسرعة الانتقال مع القطار لوقفنا عندها نتمتع بمنظرها، فتخطيناها ونحن آسفون لضياع تلك المياه هدراً.

على أن وادي اليرموك نفسه، الذي يجري القطار الحديدي بجانبه بضع ساعات بين الأردن وحوران، شاهدنا على ضفتيه بقاعاً قلما يلتفت القوم إلى استغلالها. غير ما تسرح فيه الماشية للمرعى، وقد أذكرنا منظر تلك الجبال وما فيها من الماشية يسوقها الرعاة: وهم وهي والأرض لا تزال على الفطرة الطبيعية، أذكرنا ذلك بما نقرأه عن عرب الجاهلية وعاداتهم القديمة، فإن أولئك القوم أشبه شيء بما كان عليه العرب منذ بضعة عشر قرناً.

وناهيك بأمر آخر استلفت انتباهنا، ولا عذر في إهماله غير الجهل وفساد الحكومة، أن السهول الخصبة بين حيفا واليرموك مروجاً وأغواراً أهمها مرج ابن عامر وغور بيسان، أما المرج فإنه سهل كثير الشبه بأرض مصر مساحته نحو 100000 فدان

ومساحة الغور نحو ضعفي ذلك، وهو من الجفالك [أي: المزارع] التي كانت لعبد الحميد واستولت عليها الحكومة وتعرف بالمدورة.

ولما كنا في حيفا بالصيف الماضي كان هذا الغور معروضاً للبيع وقد احتج أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود، فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتاً. وسكانه نحو 20000 من الفلاحين والعرب [البدو] وكلهم مسلمون. على أن بعض أغنياء الوطنيين أرادوا مشترى بعض أرض الغور، وبعضهم احتكر بعض مناجمه، وقد ظهر فيه منجم لزيت البترول لا يزال العمل جارياً فيه وبلغنا أنه فيه مناجم أخرى.

وقد همّ غير واحد من أهل الثروة بمصر وغيرها لابتياع بعض تلك الأرضين لأنها رخيصة جداً بالنظر إلى أرض مصر، ويقدر الفدان الواحد ببضع جنيهات لو كان في مصر لبيع بستين أو سبعين جنيهاً، لكن في استغلاله مشقة لقلة الرجال وضياع الأمن بسبب العرب البدو.

ولا بد من تخطي هذه العقبة يوماً من الأيام ويظهر فضل تلك الأرض، لكننا نخشى أن لا تأتي تلك الساعة قبل فوات الفرصة بالنظر إلى الوطنيين، لأن اليهود باذلون جهدهم في ابتياع أراضي فلسطين حيثما تيسر لهم ذلك بكل وسيلة ممكنة بمساعدة الجمعية الصهيونية التي ذكرنا تاريخها في الهلال الثاني من هذه السنة، فإنها وقفت الأموال الطائلة في هذا السبيل.

المستعمرات اليهودية في فلسطين

ورغم احتجاج المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الوطنيين على بيع الأرض لليهود فإنهم يبتاعونها ويصلحونها ويغرسونها أو يبنونها، ويعولون في استعمارها على أحدث الطرق الفنية من حيث الغرس أو تشييد المنازل أو تنظيم الشوارع، شاهدنا في يافا محلة أو مستعمرة إسرائيلية اسمها (تل أبيب) أدهشنا ما رأيناه فيها من نظام الشوارع وإتقان البيوت في بنائها على الطرز الصحي، وحول المنزل أو بين يديه حديقة يحيط بها سور من شبك الحديد وشوارعها واسعة نظيفة، وقد شادت هذه المحلة شركة يهودية لسكنى اليهود، وهي تؤجرهم إياها بطريق الاستهلاك بشروط سهلة. بحيث يصبح المنزل لساكنه بعد مدة غير طويلة.

وقد أذكرتنا منازل تل أبيب بالمقاصف (فيلا) في ضواحي مصر. وكانت هذه البقعة في الأصل صحراء قاحلة. فابتاعتها تلك الشركة وبنتها وأخذت في استثمار ما وراءها بغرس الكروم وغيرها.

وفي هذه المحلة مدرسة كلية (جمناز) تعلم العلوم العالية باللغة العبرانية، سنعود إليها عند كلامنا عن الأحوال العلمية، ونكتفي هنا بالإشارة إلى سعي اليهود في استعمار فلسطين.

فقد أصبحت المستعمرات اليهودية فيها تعد بالعشرات بجوار يافا والقدس وحيفا وغيرها، منها ما بني قرب المدن مثل تل أبيب، ومنها ما هو من قبيل المغارس للكرم والبرتقال، غير المعامل لاستخراج الخمور أو صب الحديد، وغير المدارس للزراعة والصناعة وغيرها، وقد أحصى بعضهم عدد هذه المستعمرات في اليهودية والجليل والسامرة والأردن وما يليها فزادت على أربعين مستعمرة، يختلف سكانها بين بضع عشرات إلى بضع مئات أو بضعة آلاف.

وفيهم الوطنيون والألمان والروسيون والإسبان وغيرهم، تجمعهم جامعة بني إسرائيل، ومما يستحق الانتباه أن أعمال هؤلاء المستعمرين في منازلهم أو معاملهم أو مغارسهم أو مخازنهم مبنية على أحدث الطرق العلمية، فأصحاب مغارس البرتقال (البيارات) يتوخون في غرس شجرة أحدث الطرق الزراعية من حيث ترتيبه وترك المسافات بين شجيراته وسقيه وجنيه، يستخدمون في ذلك الآلات التي تغنيهم عن العمال. ولذلك يستطيعون توريد غلتهم بأقل ما يستطيعه الوطني الباقي على الطراز القديم.

فحيثما رأيت بيتاً جميلاً مبنياً على الطرز الحديث ترجح لك أنه ليهودي. وإذا رأيت حديقة منظمة أو حقلاً نظيفاً فهو ليهودي، بخلاف ما اشتهر عن اليهود قديماً فقد كانوا إلى أواسط القرن الماضي يقيمون في أقذر الأحياء، ويضرب المثل بقذارة حارة اليهود. إن يهود فلسطين أبدلوا تلك الشهرة بضدها.

قال لنا وجيه منهم التقينا به في يافا لما رأى دهشتنا من ذلك التغيير (ظل اليهود أدهاراً مضطهدين معتزلين لا يؤذن لهم بالإقامة مع سائر الطوائف في حي واحد، وأحياؤهم مضرب الأمثال بالقذارة، ونحن الآن معتزلون عن سوانا ولكن منازلنا نظيفة ومنازل جيراننا قذرة. فلا نرضى أن يساكننا أحد منهم).

حكومة يهودية ضمن حكومة عثمانية

ولليهود في مستعمراتهم هذه هيئة اجتماعية خاصة، لا يخالطون أحداً ولا يبايعون أو يستخدمون في حاجاتهم غير أبناء جلدتهم. وفي بعض مستعمراتهم بريد خاص بهم له

طوابع خيرية تنفق أثمانها في سبيل البر، ويلصقون في داخل المكتوب مثل ورق البول لهذا الغرض.

ومن طرقهم الاقتصادية في الإحسان أن الجمعيات الخيرية لها أوراق تباع عدة منها بأصغر قطعة من قطع النقود المعروفة، فمن أراد الإحسان الاقتصادي ابتاع مقداراً من هذه الأوراق وفرقها في الفقراء، وهي مقبولة عندهم كالنقود.

حتى القضاء فإنهم مستقلون به عن سائر الأهلين، فاليهودي إذا اختلف مع يهودي آخر تقاضيا إلى الكاهن أو الشيخ، وهو ينظر في خصومتهم ويقضي لصاحب الحق. ولا يقتصر ذلك على الأحوال الشخصية كما يتبادر إلى الذهن، فإنهم يتقاضون إلى الكاهن في كل مسألة تحتاج إلى مقاضاة حتى المسائل المالية، فإذا كان لأحدهم على آخر دين ماطله في دفعه اشتكاه إلى الكاهن، فيسمع الشكوى والدفاع ويحكم لصاحب الحق ويأمر المحكوم عليه بالدفع. فإذا لم يرض بالحكم ليس لهم قوة تنفيذية من الحكومة تجبره لكنهم يقاضونه قصاصاً هو أشد وطأة عليه من السجن، نعني أنهم يقاطعونه، وذلك أن الكاهن يعلن الحكم في معبدهم ويقول إنه حكم على فلان الحكم الفلاني ولم يرضخ له، ويوصي بمقاطعته فيصبح كالأجرب بين الأصحاء، ليس من يخاطبه أو يبايعه أو يعامله. وهذا الأسلوب من القصاص أرقى ما بلغ إليه جهد المتمدنين لأنه يرقى بالإحساس الاجتماعي.

على أننا رأينا في يافا وأكثر مدائن فلسطين صبغة يهودية ظاهرة في أسواقها ومنازلها، فتجد أسماء الصناعات أو المتاجر على الحوانيت أو المنازل في اللغة العبرانية، فضلاً عن العربية والإفرنجية. وهم يسمون غرف الفنادق بأسماء آبائهم الأولين أو مدنهم القديمة، فبدلاً من الاكتفاء بالنمرة للغرفة يسمونها بنيامين مثلاً أو يعقوب أو أريحة أو نحو ذلك.

مستقبل فلسطين لليهود

وبالجملة أن تغلب اليهود في فلسطين ظاهرٌ ظهوراً واضحاً، فهم أصحاب الثروة ولهم أخصب المغارس وأنظف الشوارع وأفخم المنازل. والوطنيون يرون ذلك ويشتكون والحكومة لا تحرك ساكناً لاشتغالها بنفسها أو بحروبها عن النظر في هذه الشؤون. على أنها لو وجهت التفاتها إلى هذا الأمر لم يسهل عليها تبديله أو ملافاته لأن اليهود يبتاعون الأرضين بطرق قانونية شرعية لا جناح عليها فيها حسب الظاهر.

والحكومة في هذه الأيام لا تستطيع مصادرتهم أو منعهم من استثمار الأرض بأموالهم وعرق جبينهم، نعم إن المرابين من اليهود يغتنمون ضعف الفلاح المدين لهم ويقبضون عقاره إذا قصر عن الدفع، وهكذا يفعل سائر المرابين بمصر وغيرها من اليهود وغيرهم.

فيحق للعقلاء أن يشتكوا من هذه الحالة ويسعوا في ملافاتها، غير أن ملافاتها لا تكون بمجرد الشكوى، وإنما تكون بالنسج على منوال أولئك المستعمرين من حيث تعمير الأرض بالطرق العلمية وإنقاذ الفلاح من المرابي بالطرق المعقولة، إما بإنشاء النقابات الزراعية أو نحو ذلك، ولو أرادت الحكومة النظر في هذا الأمر لكانت أقدر من سواها على ملافاته، ولكنها مشغولة مضطربة، وأغنياء الوطنيين والطبقة الراقية منهم أكثرهم منصرفون إلى المسائل السياسية والتنازع على الوظائف أو النيابات أو المطالبة بالإصلاح.

ولو صرفوا ذكاءهم وهمتهم إلى الوجهة الاقتصادية بملافاة صيرورة بلادهم ملكاً لسواهم، لكان ذلك أقرب إلى الوطنية وأدنى إلى الاستقلال الحقيقي.

وقد اختلف الباحثون في مستقبل سوريا وفلسطين: هل تنالان الاستقلال الإداري؟ أم تبقيان على حالهما؟ أم تدخلان في حماية دولة أجنبية أم غير ذلك من الأوجه السياسية الداخلة ضمن دائرة الإمكان؟ وكلها تحتمل الشك وتقبل النقض. وأما ما لا شك فيه من مستقبل تلك البلاد أن الحال إذا ظلت على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الأرضين واستعمارها وأهلها غافلون تأو، متجاهلون وحكومتها ساكتة أو مشغولة، فلا يمضي زمن طويل حتى تصير كلها لليهود.

ولا عبرة في من يتولى شؤونها السياسية ولا فرق أن تكون يومئذ في سلطة العثمانيين أو العرب أو الفرنساويين أو الإنكليز، فإن العبرة في من يملك الأرض ويستولي على غلتها وليس صاحب السيادة السياسية إلا وسيلة لحفظ الأمن وتأييد ذلك الملك لصاحبه، سواء كان مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً. وقد مضى الزمن الذي كان الفاتحون فيه يتملكون البلاد التي يفتحونها أو يستعبدون أهلها.

واعتبر نحو ذلك في المستعمرات الألمانية في يافا وغيرها أهمها سارونا وولهلما وغيرهما، والألمان كاليهود من حيث استقلالهم بالمنافع الاقتصادية لأنفسهم فلا يبتاعون حاجاتهم إلا من الألمان وفي أيديهم تجارة اللبن ولهم مغارس ومعامل وغيرها.

خامساً - أحوالها العلمية

التعليم على الإجمال ضعيف في فلسطين مثله في معظم المملكة العثمانية، بل هو في فلسطين أضعف مما في سواها، ويصدق ذلك على المدارس الوطنية الأميرية وغير الأميرية، ونخص الكلام بالقدس لأنها أرقى سائر مدائن فلسطين في التعليم. وليس فيها من المدارس الكبرى الوطنية إلا المدرسة الدستورية لخليل أفندي سكاكيني، ومدرسة روضة المدارس للشيخ محمد الصالح الحسيني، ومدرسة إعدادية للحكومة.

وكلها تشبه المدارس الابتدائية عندنا، وقس على ذلك سائر مدارس فلسطين الوطنية، وليس في فلسطين مدرسة كلية وطنية، أما الأجانب فلهم في فلسطين مدارس كبرى لتعليم أهل تلك البلاد وتثقيف عقولهم. هاك أهمها في القدس:

1- دار الأيتام السورية:

أسسها الدكتور شنيار الألماني سنة 1860 بجده واجتهاده. قضى أهم سني حياته في هذا المشروع يدبر شؤونه رغبة في عمل الخير، وقد جمع له المال من المحسنين بألمانيا وأميركا وروسيا وسويسرا، وأنفقها كلها في إنشاء هذا المعهد العلمي الخيري لتعليم الأيتام الذين ليس لهم من يعولهم، وقد نجح نجاحاً عظيماً وأتى بأثمار حسنة. وتخرج في هذه المدرسة مئات من الشباب والشابات وفيهم طائفة من العميان، وقد تعلموا اللغات أو بعض الصنائع وضمنوا لأنفسهم أسباب الرزق.

وقد اتسعت هذه المدرسة وتعددت فروعها وأبنيتها، وفيها معامل للخزف ومصانع للحدادة والكراسي والنجارة وغير ذلك، وفيها قسم داخلي وآخر خارجي، وعدد تلاميذها نحو 750 تلميذاً ومنهم 400 داخليون، ونحو خمسين فتاة، وعدد العميان فيها نحو 50 أعمى، وعدد المعلمين نيف وأربعون معلماً، منهم 23 لتعليم العلوم واللغات، و22 لتعليم الصناعات.

2- مدرسة جوبات للإنكليز:

يديرها أسقف إنكليزي أشتهر بفضله وتفانيه في تربية الناشئة، وهي من أحسن المدارس لتعليم اللغة الإنكليزية وآدابها، وقد تخرج فيها طبقة من الأدباء بعضهم جاء مصر واشتغل فيها.

3- **مدرسة صهيون:**

وهي إنكليزية أيضاً وتخرج فيها كثيرون[86].

وهناك مدارس أخرى لسائر الطوائف النصرانية، لكن أكثرها صغيرة لا تستحق الذكر هنا، وبلغنا أن الآباء اليسوعيين قرروا إنشاء كلية في القدس على نسق كليتهم في بيروت.

مدارس اليهود

لليهود شأن خاص في فلسطين من حيث التعليم مثل شأنهم في الاقتصاد وأسباب المعاش، واليهود في هذا العصر ينافسون الأمم الأخرى بأقوى عوامل المدنية وأهم أسباب النجاح، نعني المال والعلم والاتحاد. أما المال فهم مشهورون باقتدارهم على جمعه وإحرازه من قديم الزمان، وهم يبذلونه الآن في سبيل مطامعهم الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين، ويبذلونه أيضاً في سبيل التعليم، وأما الاتحاد فإنه عماد أعمالهم كما رأيت في ما تقدم عن الجمعية الصهيونية وغيرها، ونقتصر هنا على الكلام في التعليم:

لليهود مدارس كثيرة في فلسطين ليست لسواهم بعضها على النسق القديم تعلم التوراة والتلمود والبعض الآخر يعلم العلوم الحديثة. فالمدارس القديمة منها في القدس وحدها عشرات عدد معلميها 200 معلم وتلاميذها نحو 4000 تلميذ وكلهم يهود، ومنها

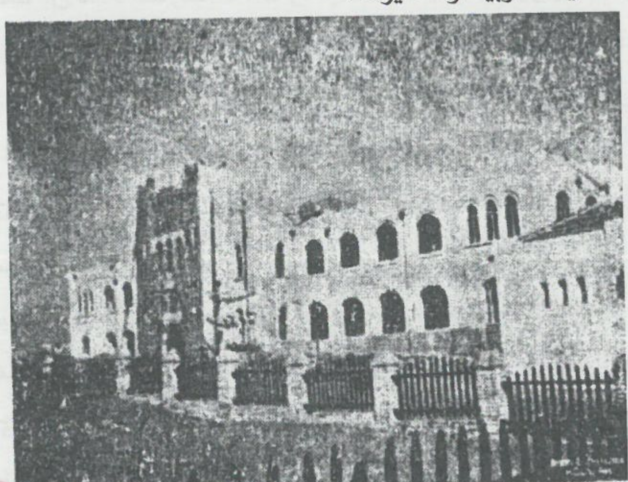
[86] - جاء في نهاية رحلة جرجي زيدان لفلسطين المنشورة على حلقات في مجلة الهلال رسالة لنقولا سابا أوضح فيها بعض الخلط بين مدرستي صهيون وجوبات ننشره كما هو (حضرة منشئ الهلال: جاء في كلامكم عن أحوال فلسطين العلمية أن من جملة مدارس القدس مدرستين الواحدة مدرسة جوبات للإنكليز والأخرى مدرسة صهيون والحقيقة أن هذين الوصفين اسم لمدرسة واحدة أسسها طيب الذكر المطران جوبات منذ نيف وستين عاماً. ثم دخلت بعد وفاته تحت رعاية جمعية إنكليزية تدعى جمعية التبشير الكنسية وإنما اشتهرت هذه المدرسة بين العامة بمدرسة صهيون نسبة للجبل القائمة عليه وفي هذه المدرسة تخرج عدد كبير من الشبان منهم عدد وافر الآن في مصر والسودان وهي مرتبطة بالكلية السورية في بيروت والمتخرجون فيها يقبلون في القسم العلمي من تلك الكلية بلا امتحان وربما عنيتم بقولكم مدرسة جوبات للإنكليز مدرسة أخرى أنشأها المطران الإنكليز الحالي في القدس منذ نيف وخمسين عشرة سنة عرفت بين العامة بمدرسة المطران ثم إنكم لم تذكروا شيئاً عن الكلية الإنكليزية في القدس مع أنها على ما أظن أولى بالذكر إذا ما ذكرت المدارس في فلسطين يوماً. فهذه الكلية كانت في أول عهدها مدرسة للشبان أسستها منذ نيف وثلاثين عاماً جمعية التبشير الكنسية لتخريج من يلزم من المعلمين لمدارس فلسطين وهي تعلم اللغة العربية مع فروعها والدين والموسيقى ومبادئ العلوم الطبيعية والرياضية ومنها تخرج جميع قسس الطوائف الإنجيلية في فلسطين ظل نظام هذه المدرسة كذلك إلى سنة 1904 إذ حولتها الجمعية المذكورة إلى كلية وجعلت لغة التدريس فيها بالإنكليزية وربطتها بالكلية السورية في بيروت بحيث أن دروس السنتين الأوليين فيها تعادل تماماً دروس السنتين الأوليين من القسم العلمي في كلية بيروت أما دروس السنة الثالثة من الكلية الإنكليزية وهي آخر سني الدراسة فيها فقد خصصت لتمكين الطلبة من الفروع التي تلزم في حياة الإنسان العملية كالتعليم والتجارة نقولا سابا – الخرطوم).

خارج القدس نحو عشرين مدرسة أكثرها في يافا عدد معلميها كلها 51 معلماً وتلاميذها 1400 طالب.

كلية تل أبيب

أما مدارسهم العصرية التي تعلم العلوم الحديثة فأول من أنشأها لليهود (جمعية الإليانس) في فلسطين، فيها كلها نحو 2000 تلميذ، وهناك مدارس أخرى لجمعيات أخرى أو بعض الأفراد لا محل لها هنا. نكتفي بذكر المدارس الكبرى في القدس، أشهرها مدرسة الإليانس المتقدم ذكرها، ومدرسة بيت ساليل، ومدرسة لاميل وغيرها، وحسبنا وصف مدرسة تل أبيب في يافا لبيان مبلغ تقدم اليهود في فلسطين عن سائر أهلها من حيث التعليم.

زرنا هذه الكلية في محلة تل أبيب في يافا، فأدهشنا منها أمورٌ لم نكن نتصورها ولا خطرت ببالنا من قبل، أدهشنا أولاً أنها مدرسة كلية كبرى ويسمونها لذلك (جمناز)، تعلم العلوم العالية الطبيعية والرياضية فضلاً عن التاريخ والجغرافية والآداب، وتعلم اللغات العبرانية والفرنساوية والتركية والعربية، وفيها المعارض والمعامل للطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والتصوير، وليس في يافا ولا القدس ولا سائر بلاد فلسطين مدرسة كلية من هذا النوع، لا في العربية ولا غيرها.



كلية اليهود في تل أبيب بيافا

وأدهشنا ثانياً أن هذه المدرسة تعلم العلوم باللغة العبرانية، كما تعلم المدرسة الكلية الأميركية في بيروت بالإنكليزية ومدرسة الآباء اليسوعيين بالفرنساوية. أي أن مدرسة تل

أبيب هذه تعلم الطبيعيات والكيمياء والرياضيات والتاريخ وسائر العلوم العالية باللغة العبرانية فقط.

ويزيد دهشتنا أن هذه اللغة بعد أن أوشكت تعدُّ من اللغات الميتة أحياها أصحابها وجعلوها أقرب إلى الحياة العلمية من اللغة العربية! إذ ليس في العالم العربي اليوم مدرسة كلية عالية تعلم العلوم والفنون باللغة العربية فقط، إلا الجامعة المصرية وهي لا تزال في أول نشأتها. وهناك كليات في بيروت ولبنان تعلم أكثر علومها بالعربية لكنها أقل درجة من هذه الكلية.

وقد تفقدنا كلية تل أبيب فأطلعنا رئيسها على ما فيها من المعارض والمعامل والألعاب الرياضية. وشاهدنا في قاعة الجغرافية الخرائط وعليها أسماء البلاد والأنهر والجبال باللغة العبرانية. وسألناه عن طريقة التعليم فيها وهل هي خاصة باليهود؟ فأجاب مبتسماً: (إنها عمومية لا ترد طالباً مهما يكن دينه أو جنسه لكنها تشترط عليه أن يكون متمكناً من اللغة العبرانية وآدابها ليتعلم العلوم بها).

فأجبناه (أن هذا الشرط أدنى إلى مصلحتكم من الرفض، لأن من يدخل مدرستكم على هذا الشرط من غير اليهود لا يلبث أن يكون قريباً منكم، لأن من يتعلم آداب قوم يحسن الظن بهم)، فضحك ولسان حاله يقول (قد أصبت غرضنا).

وقد علمنا أن هذه المدرسة تحت رعاية الجمعية الصهيونية، لكنها لم تكن هي التي شرعت في إنشائها، وإنما أنشأها رجل إسرائيلي غيور على أمته، فلما نجح مشروعه كانت الجمعية الصهيونية قد أخذت بناصر اليهود فعرضت عليه أن يجعل هذه المدرسة تحت رعايتها لتساعدها بالمال عند الحاجة فأجابها.

فكلية تل أبيب مثل لحياة الأمة اليهودية ونهضتها العلمية والاجتماعية بإحياء اللغة التي كان يتكلمها آباء التوراة في إبان مجدها، وهو درسٌ نوجه إليه أنظار طلاب الإصلاح من العرب وغيرهم أن الأمة لا تحيا إلا بحياة لغتها، ولا تحيا اللغة إلا بكثرة ما فيها من المؤلفات العلمية الراقية، وأكبر الوسائل المؤدية إلى ذلك أن تكون هي لغة التعليم في المدارس الكبرى.

اللغة العبرانية والفنون الجميلة

ولم يقتصر سعيهم في إحياء لغتهم على جعلها قاعدة التدريس في هذه المدارس، لكنهم أحيوها بنقل الفنون الجميلة إليها. ففي تل أبيب مدرسة للموسيقى تعلم الموسيقى

الحديثة في اللغة العبرانية، وليس في العالم العربي حتى الآن مدرسة للموسيقى تعلم في اللغة العربية. غير ما عزم عليه بعض محبي الموسيقى بالإسكندرية من أحياء هذا الفن. وفي يافا جماعة من اليهود غواة التمثيل ألفوا جوقاً يمثل الروايات التاريخية ونحوها في اللغة العبرانية أيضاً، ولا يمضي زمن حتى ينبغ من الناشئة اليهودية من ينظم الشعر بلغة موسى وداود وسليمان فتتم به حياتها.

كلية يهودية أخرى

وكلية تل أبيب مثال لكليات اليهود، وليست هي الوحيدة من نوعها فإنهم أخذوا ببناء كلية مثلها في يحيفا منذ سنتين بمال الجمعية الصهيونية، وستكون تحت رعاية ألمانيا، وهي التي ساعدت الجمعية حتى نالت الأذن الشاهاني بإنشائها.

ويقدرون النفقات اللازمة لهذه المدرسة بمئة ألف جنيه، وقد اختلفوا في لغة التدريس الرسمية لهذه المدرسة، فالجمعية الصهيونية تريد أن تكون اللغة العبرانية، وأما الألمان فيريدون أن تكون الألمانية. وقررت الجمعية الصهيونية في مؤتمرها الأخير في العام الماضي إنشاء كلية أو جامعة في القدس ستكون أعظم الكليات اليهودية في العالم. وستعلم كل فروع العلم الحديث وفنونه باللغة العبرانية، وفي عزم اليهود أن يجعلوا هذه اللغة قاعدة التدريس في أكثر مدارسهم الصهيونية وغيرها.

ناهيك بما أنشؤوه من المدارس الفنية في فلسطين وخصوصاً الزراعية. أهمها مدرسة الزراعة في ضاحية يافا وهي عبارة عن عدة بساتين في وسطها مدرسة ومعمل للخمور، أسسها رجل اسمه نيتر فيها اليوم 65 طالباً من الذكور والإناث يتعلمون الزراعة العملية، وهي تقبل غير اليهود لكن يندر أن يجيئها أحد من الطوائف الأخرى.

طبقات الأمة والتعليم

على أن الميل إلى التعليم ينتشر الآن في طبقات الأمة الفلسطينية، ولا سيما الطبقة الراقية، فمن لا يكتفي بتعليم أبنائه في المدارس الوطنية أو غيرها في القدس أو يافا أرسلهم إلى المدارس الكبرى في بيروت أو الأستانة أو فرنسا أو غيرها. هكذا يفعل بيت الحسيني والخالدي في القدس، وبيت السعيد في يافا، وبيت عبد الهادي في نابلس. ورأينا اضطراباً في أميال الأهلين من حيث الخطة التي يجب أن يتخذوها في تعليم أبنائهم، هو

تابع لاضطراب جو السياسة، ولابد أن تستقر الأحوال، وعسى أن تستقر على ما يوافق مصلحة البلاد العربية والأمة العربية والدولة العثمانية.

المكتب الصحي المختلط

وفي القدس مكتب أو معمل للأبحاث الطبية والفحص الميكرسكوبي، يندر مثله في الشرق أسسه الأجانب واليهود، اشترك في إنشائه ثلاث جمعيات طبية:

(1) الجمعية الألمانية لمحاربة الملاريا.

(2) المكتب الصحي اليهودي.

(3) جمعية الأطباء والعلماء اليهود لتحسين الصحة في فلسطين.

وسموه المكتب الصحي المختلط.

وللمكتب المذكور لجنة تدير شؤونه مؤلفة من بعض أعضاء الجمعيات الثلاث المتقدم ذكرها. وهو مؤلف من معامل للأبحاث الطبية أهمها:

1- المعمل الملاريا للبحث في مقاومة هذا الداء رئيسه الأستاذ مولنس.

2- العمل الهيجيني بإدارة الدكتور برين.

3- معمل الكلب والمصل بإدارة الدكتور بيهان. الغرض منه استحضار الأمصال اللازمة والبحث في حوادث الكلب التي تقع. وهذا نادر لا وجود لمثله في سوريا على ما نعلم. ولذلك فمن يصاب بالكلب فيها يحملونه إلى مصر أو أوروبا. أما القدس فقد أنشئ فيها هذا المعمل لهذا الغرض.

4- المعمل البكتريولوجي للبحث في الميكروبات على الإجمال بإدارة الدكتور كولدبرج.

وهناك فروع طبية للأبحاث المختلفة أهمها فرع الملاريا بإدارة الدكتور كنعان. وهذا الداء كثير الانتشار في القدس لأن ماءها أكثره مجموع في الصهاريج.

محمد كرد علي

يوثق رحلة (العثمانيين) الأخيرة إلى فلسطين

شاءت الأقدار أن يطلب جمال باشا قائد الفيلق الرابع المرابط في بلاد الشام أواخر العهد العثماني من الصحفي والكاتب محمد كرد علي أن يوثق رحلة أنور باشا وزير الحربية العثماني، ورفيقه جمال باشا في بلاد الشام والحجاز لحشد الدعم العربي لجيش حكومة الاتحاد والترقي العثمانية، التي كانت تشارك في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ضد كل من بريطانيا وفرنسا. فوضع كرد علي نصاً عبر بإخلاص عن روح تلك المرحلة، ووصف بدقة بالغة الأجواء التي كانت تعيشها فلسطين وبلاد الشام أواخر أيام العثمانيين في بلاد المشرق العربي قبل اقتسامها بين الفرنسيين والانكليز في معاهدة سايكس وبيكو.

ولد محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي في دمشق عام 1876م وعاش فيها. أصله من أكراد السليمانية (من أعمال الموصل)، تعلم في الكتاب القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وتابع دراسته في المدرسة الرشدية [الاعدادية]، ثم أتم تعليمه الثانوي في المدرسة العازارية.

عشق محمد كرد علي الكتابة والصحافة، وأولع بمطالعة الكتب وجمعها منذ صغره، وقد شجعه والده رغم أميته على اقتناء الكتب، وقدم له المساعدة الكافية لامتلاكها. ولما اشتد ساعده بالعلم واللغة أخذ يقرأ الصحف والمجلات بالفرنسية والتركية والعربية، فزادته المطالعة تعلقاً بالصحافة وعشقاً للمعرفة والعلم. وعندما كان في السادسة عشرة، كان يكتب الأخبار والمقالات ويدفع بها إلى الصحف، ولم تقف هواياته عند هذا الحد، بل أحب الشعر العربي، والسجع المنمق، وعكف على شيوخه ينهل من علمهم وأدبهم، وهم من مشهوري عصره في بلده أمثال: سليم البخاري، الشيخ محمد المبارك، والشيخ طاهر الجزائري.

في العام 1897 عُهد إليه بتحرير جريدة (الشام) الأسبوعية الحكومية، واستمر مدة ثلاث سنوات وكان يلتزم في مقالاته بالسجع. ثم أخذ كرد علي يراسل مجلة (المقتطف) المصرية لمدة خمس سنوات، فانتقلت شهرته إلى مصر.

رحل كرد علي إلى القاهرة، ولبث فيها شهوراً عشرة تولى خلالها تحرير جريدة الرائد المصري، وتعرف إلى علمائها وأدبائها، ورجال الفكر فيها، فاتسع أفقه وذاع صيته، وباتت شهرته في مصر لا تقل عن شهرة أدباء تلك الفترة وعلمائها الأعلام.

عاد كرد علي إلى دمشق، ورُفعت إلى واليها التركي وشاية به ففتش بيته، وظهرت براءته فهاجر إلى مصر عام 1906، وأنشأ مجلة المقتبس الشهرية نشر فيها البحوث العلمية والأدبية والتاريخية، كما قام بتحرير جريدة الظاهر ثم التحرير في جريدة المؤيد وهما يوميتان. وكان ينقل عن مجلات الغرب أحدث أنباء العلم والحضارة والاختراع والتقدم، كما ترجم عدداً من الكتب المخطوطة النادرة فجمع بين القديم والحديث.

عاد محمد كرد علي إلى دمشق عام 1908 بعد إعلان الدستور العثماني، وأصدر مجلة المقتبس وجريدة يومية أسماها المقتبس بالتعاون مع أخيه أحمد، كما أسس لها مطبعة خاصة، غير أن السلطة العثمانية ضايقته وحاربته ولاحقته وأغلقت الجريدة بعدما اتهمه أحد ولاة الترك بالتعرض للعائلة السلطانية في إحدى مقالاته، ففر إلى مصر ثم إلى دول أوروبا وعاد مبرأ، وتكرر ذلك في تهمة أخرى.

فترك الجريدة اليومية لأخيه أحمد وانقطع للمجلة، واشتد جزعه بعد إعلان الحرب العالمية الأولى وابتداء حملة الانتقام من أحرار العرب، فأقفل المجلة والجريدة، وكاد يساق كما سيق غيره من نقدة نظام الاستبداد ودعاة التحرر إلى المشانق، إلا أنه أنقذته (خلاصة حديث) وجدت في القنصلية الفرنسية بدمشق كتبها أحد موظفي الخارجية الفرنسية قبل الحرب، وكان هذا قد زار كرد علي في بيته وأراد استغلال نقمته على (الاتحاديين) ليصرفه إلى موالاة السياسة الفرنسية في الشرق، فخيب كرد علي ظنه، ونصحه بتبديل سياستهم في الجزائر وتونس.

وأيضاً مثلها (نشرة رسمية سرية) كان قد بعث بها سفير فرنسا في الأستانة إلى قناصل دولته في الديار الشامية يحذرهم بها من كرد علي ويقول: إنه لا يسير إلا مع الأتراك. وأوراق أخرى من هذا النوع أظهرها تفتيش القنصليات في أوائل الحرب، فدعاه جمال باشا إليه مستبشراً، وأعلمه بها وأنذره إن عاد إلى المعارضة ليقتلنه هو بمسدسه،

ثم أمر بإعادة فتح الجريدة ومنحه مساعدة مالية. ثم ولاه تحرير جريدة (الشرق) التي أصدرها الجيش، وظل يخشى شبح جمال باشا حتى بعد الحرب، وفي مذكراته ما يدل على بقاء أثر من هذا في نفسه إلى آخر أيامه.

وأمضى كرد علي مدة الحرب مصانعاً بلسانه وقلمه. وقد ظهر ذلك في كتاب الرحلة الذي وضعه بعنوان (الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية). وهي ليست رحلة قام بها كرد علي شخصياً، وإنما هي كتاب وضعه كرد علي عن (سياحة رجل العثمانيين وبطل الإسلام والمسلمين صاحب الدولة والعطوفة أنور باشا وكيل القائد الأعظم وناظر الحربية الجليلة إلى المدينة المنورة وسورية وفلسطين).

وبعد دخول العهد الفيصلي واستقلال سورية عن الدولة العثمانية، وجد كرد علي الفرصة سانحة لتحقيق الحلم الذي طالما راوده، ألا وهو إنشاء مجمع علمي عربي على غرار ما تفعله الأمم المتحضرة لحفظ تراثها وصون لغتها، ونشر آدابها وعلومها. وعرض الفكرة على الحاكم العسكري رضا باشا الركابي الذي وافق على قلب ديوان المعارف برئيسه وأعضائه مجمعاً علمياً عربياً. وكان ذلك في الثامن من حزيران عام 1919، وعُين محمد كرد علي رئيساً للمجمع واستمر حتى وفاته.

جمع محمد كرد علي بين الصحافة والجامعة، والوزارة والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي في مصر. وقد تولى وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي.

بلغت مؤلفاته التي تركها اثنين وعشرين مؤلفاً، هي: (الإسلام والحضارة العربية) مجلدان. (تاريخ الحضارة) جزآن، ترجمه عن الفرنسية. (غرائب الغرب) مجلدان. (أقوالنا وأفعالنا). (دمشق مدينة السحر والشعر). (غابر الأندلس وحاضرها). (أمراء البيان) جزآن. (القديم والحديث) وهو منتقيات من مقالاته. (كنوز الأجداد) في سير بعض الأعلام. (الإدارة الإسلامية في عز العرب). (غوطة دمشق). (المذكرات) أربعة أجزاء. وتوفي محمد كرد علي يوم الخميس الثاني من نيسان 1952 في دمشق، ودفن بجوار قبر معاوية بن أبي سفيان في دمشق[87].

زار أنور باشا في رحلته حلب وبيروت ودمشق، واستمع إلى قصائد المديح والخطب التي تناوب عليها الكثيرون من الشعراء والأدباء والمسؤولين. وطلعت الصحف في هذه المدن

---

[87] - عبد الغني العطري (عبقريات شامية، مطبعة الهندي، دمشق، الطبعة الأولى 1986، ص(10- 16). خير الدين الزركلي (موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة 1980، الجزء السادس، ص(202- 203).

بالمقالات التي تشيد بأعمال أنور باشا «الصديقية» و«الفاروقية» و«الصلاحية» وتصفه بـ «روح الأمة ومؤسس سعادتها».. الخ.

وبعد انتهاء زيارة القائدين التركيين إلى مدن سورية توجها إلى فلسطين ووصل قطارهما الخاص إلى محطة الرملة (12 شباط على الحساب الشرقي سنة 1331 [1334هـ، 1916م].

ثم توجها وسط استقبالات حافلة إلى يافا بدعوة من قائد الموقع حسن بصري بك الجابي (منشئ جامع حسن بك في يافا) الذي «تجاسر» ودعاهما باسم البلدة حيث افتتح أنور باشا شارع جمال باشا بيده.

«وبينما كان أنور وجمال بيافا بين دقات القلوب سروراً وابتهاج النفوس فرحاً كان أهالي القدس منتشرين في جهة بزوغهما إلى مكان مقرهما مقر الجيش المظفر مائة ألف أو يزيدون...

وقام وجهاء القدس بالسلام على أنور وجمال بدار الحكومة. ثم زار الضيفان الحرم الشريف حيث صلى أنور باشا ركعتين تحية المسجد واستمعا إلى خطاب للشيخ أسعد الشقيري وتقبلا هدية من المفتي كامل أفندي الحسيني. ثم زارا الكلية الصلاحية التي كان جمال باشا قد أنشأها سنة 1915، في مكان المدرسة الصلاحية القديمة. وبعدئذ توجها لزيارة مقام نبي الله داود وكنيسة القيامة.

وتبرع أنور باشا للكنيسة بمائتي ليرة ذهب عثمانية بعد أن وهب خدمة الحرم الشريف خمسين ذهباً. وأقيمت في فندق فاست بالقدس وليمة تكريمية كبرى خطب فيها الشيخ علي الريماوي[88] ثم أنشد قصيدة ترحيب استعيدت أبياتها مراراً.

وتلت ذلك زيارات إلى الخليل حيث مقامات الأنبياء وإلى بيت لحم حيث كنيسة الولادة وإلى بئر السبع. ثم إلى معسكر الجيش العثماني في جبل الطور، حيث ألقى الشيخ أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع خطاباً قال فيه: «إن أنور باشا في عصرنا يحق له السيادة على الإسلام».

وأخيراً توجه القائدان إلى أريحا بالسيارة «فشيعهما الأهالي والقلوب بأجل مظاهر التشييع والوداع». ومن أريحا سارا على طريق عمان حيث ركبا القطار إلى مدينة الإسلام والسلام (المدينة المنورة).

---

[88] - زود علي الريماوي كرد علي بالمادة التي كتبت عن القدس في الرحلة، كما اعتمد المؤلف على ما كتبه مكاتب المقتبس في يافا.

وما يتعلق بهذه الرحلة المسماة بـ(الرحلة الأنورية) كان واضحاً أن هدفها دعائي يرمي إلى استرضاء الشعوب العربية ودعم المجهود الحربي التركي. ويقول بروكلمان: إن محمد كرد علي كتب هذه الرحلة بطلب من جمال باشا.[89]

امتلأت «الرحلة الأنورية» بعبارات التمجيد والتفخيم المبالغ بهما، لأنور باشا ناظر الحربية العثمانية ولجمال باشا قائد الجيش الرابع وناظر البحرية..

ظهرت الطبعة الأولى منها بعد أيام من كتابتها، ويبدو أن الحاجة إلى إصدارها كانت ملحة، ولذلك أتت صياغاتها متعجلة ولا يجمعها ناظم سوى قلم المحرر الذي جمع انطباعات مراسلي جريدة المقتبس الذين نقلوا انطباعاتهم.

---

[89] - Brockelmann, SIII, 431

الرحلة الأنورية
إلى الأصقاع الحجازية والشامية

في فلسطين

تتمخض الأيام في كل عصر وحين وتلد من النوابغ من يحلون جيد أمتهم وبلادهم فيتجدد أو يزيد بهم رونقها بهاءً ورواءً ولكنها، لا تجود في كل وقت وزمن بالنوابغ الأفراد الذين يدهشون زمانهم. وقد يمر الحين بعد الحين ولا تلد فرداً منهم وأعني بهؤلاء الأفراد الذين امتازوا بالأعمال النادرة أو وقفوا موقفاً عظيماً في حادث عظيم، أو رزقوا موهبة مدهشة مثل أبي بكر في محنة الردة، وعمر في الفتوحات، وصلاح الدين في علو الهمة، وبونابرت في كبر النفس، وواشنطون في قيادة الجيوش، ولوثيروس في الثبات على المبدأ، وأنور وجمال في النهضة والأعمال.

ومن يجهل ذلك العمل العظيم الذي قام به أنور باشا وزملاؤه العظام من إحياء الدستور وتأييده، بل إحياء الأمة بأسرها ونهضتها بل إحياء الإسلام كله، ومن لا يعرف جهاده بنفسه ومفاداته بكل شيء في سبيل حياة الأمة وسعادتها؟ فقد كادت أولاً نهضته النادرة تتلاشى وتندمج في غيرها كما اندمج غيرها من الأمم والشعوب الضعيفة.

إن عمل أنور باشا وزملائه لمن الآيات البينات والأعمال العظيمة النادرة التي طبقت الأرض شهرتها، فهو ولا أبالغ من الأعمال الصديقية والفاروقية والصلاحية وفوق عظمة أعمال نابليون وواشنطون، إذا لاحظنا الزمان والمكان فوجود أمثال هؤلاء الناس من النوادر الخوارق التي لا تسخو بها الأيام في كل وقت وحين.

فإن صح الأثر المشهور «إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» فأنور وجمال من هؤلاء المجددين، هذا من جهة الأعمال، أما هما من جهة الأخلاق الفاضلة فليست أعمالهما أعظم من أخلاقهما وقد عرف السوريون والفلسطينيون جمالهم وقائدهم، وقد عرفوا أنور بثباته وإقدامه ومفاداته، عرفوه أنه روح

الأمة ومؤسس سعادتها، عرفوه في أخلاقه الاجتماعية والدينية حتى تفضل فزارهم هذه الزيارة التي يعدونها أعظم أعيادهم ومبدأ لتاريخ حياتهم الجديدة.

زار حلب وسورية وسمعنا وقرأنا ما قام به سكان تلك الجهات من الاحتفالات الباهرة والبهرجة النادرة، ولا عجب فإنهم يستقبلون محبوبهم وفاديهم، يستقبلون مخلص الأمة الذي احتفلت له القلوب بين ضلوعها وكادت تغرق المقل فرحاً بمياه دموعها (من عظم ما قد سرَّني أبكاني)، زار سورية وما كان ليبخل وهو الكريم النفس والخلق بزيارة شقيقتها فلسطين التي تطايرت نفوس أهليها وألقت أشعتها اللطيفة على الخطوط القطارية في طريقه انتظاراً لقدومه الجميل، فزار أولاً يافا صباح اليوم الثاني عشر من شهر شباط على الحساب الشرقي سنة 1331 [1334هـ، 1916م] فكان له ولجمالنا وزملائهما من الاستقبال الحافل أحسن استقبال.

لم تكن زيارة مدينة يافا داخلة في خطة سفر القائدين العظيمين صاحبي الدولة، أنور باشا وكيل القائد العام وناظر الحربية، وجمال باشا قائد الجيش الرابع وناظر البحرية، ولكن قائد الموقع حسن بصري بك الجابي تجاسر على دعوتهما باسم البلدة فلبيا دعوتها فقابلته بكل ما لديها من وسائط الاحتفاء والزينات الباهرة التي فاقت على مثلها في غير بلدان بشهادة من كان في معية دولتهما، فقد كانت الزينات التي أقامها أبناء يافا واللد والرملة في ذلك اليوم من أجمل ما رأى ثغر يافا.

وصل قطار الوزيرين الخاص إلى محطة الرملة الساعة الخامسة من صباح الجمعة، فكان في انتظاره جميع من في القضاء من مأمورين عسكريين وملكيين وأعيان القوم وأفاضلهم. ولما وطئا الأرض دوى الفضاء بأصوات التصفيق والهتاف، فسارا بين جماهير الخلق إلى سرادق فخيم نصب هناك بعد أن مرا تحت قوس نصر زين بأحلى زينة.

وبعد أن تناولا الفطور في محطة سكة الحجاز أقلتهما السيارات إلى مكان استعرضا فيه الفرقة المرابطة في تلك الأنحاء، ومن هناك أخذا طريق يافا والتوفيق قائدهما، فوصلاها الساعة الحادية عشرة، وكان دخولهما من شارع جمال باشا الجديد الذي أنشئ على أحدث طراز. وهناك ترجلا بإزاء قناصل الدول والرؤساء الروحيين وأشراف البلدة ووجوهها، الذين كانوا بانتظار بزوغ شمس طلعتهما، فأسكرا الناس بلطفهما المشهور وابتسامهما الخلاب.

ولما كان هذا الشارع لم يفتح بعد رسمياً فقد كلف صاحب الدولة جمال باشا دولة

أنور باشا أن يفتحه بيده الكريمة، فتنازل دولته وقطع شريطاً من الحديد كان يمنع مدخله، ونحرت وقتئذٍ القرابين، وتلا فضيلة مفتي يافا دعاء أمن عليه الجميع.

وسار بعد ذلك الضيفان الكريمان مشياً على الأقدام، فمرا تحت قوس نصر مزدوج أقيم على عرض الشارع البالغ 30 متراً، فكان منظراً لم تقع العين على أجمل منه. ولما توسطا الشارع ركبا سيارتهما ومرّا تحت قوسين آخرين من بديع الصنع وجميل الهندسة إلى أن وصلا إلى منزل هرنك، حيث أعدّ المجلس البلدي لدولتهما مأدبة تليق بمقامهما.

وبعد الطعام ركبا إلى دار الحكومة فكانت ألوف الخلق تحييهما على الجانبين، وهناك في البهو الكبير تصدرا بدرين منيرين وأخذ قائد الموقع يقدم لهما وجهاء البلدة وأعيانها واحداً واحداً، فأبديا التفاتاً خاصاً للخواجة فريدريك مراد، الذي تبرع بأكثر أرض شارع جمال باشا وأرض جامع الجابي الجديد الذي أنشأه قائد الموقع باسمه.

ثم قدم لهما طبقاً من فضة عليه تمثال هرم كبير من الحلوى، فابتسما لمغزاه واستلّ القائد خنجره وقدمه لهما، فأخذ كل منهما قطعة منه وأدير على الحاضرين. ثم نزلا إلى ساحة السراي فأخذ المصورون رسم الحفلة وأنشد الشيخ أحمد الطريفي بعض أبيات بصوت رخيم، ثم ركبا السيارات محفوفين باليمن والإقبال ووجهتهما بيت المقدس، فمرا أيضاً تحت أقواس نصر أخرى جمعت خلاصة الفن والأبّهة.

ومما يذكر أن دولة أنور باشا تبرع بمبلغ لفقراء البلدة، وأنه أعجبه برتقال يافا الشهير فأوقف سيارته أمام أحد البساتين في طريقه إلى القدس ودخل مع دولة جمال باشا وقطع بيده مقطفاً من البرتقال، ونفح خادم البستان بضع ليرات عثمانية تلقاها هذا بالدعاء. ولا عجب بهذه الأخلاق الرضية والجود والكرم فالعظيم عظيم في كل أمر.

وبينما كان أنور وجمال بيافا بين دقات القلوب سروراً وابتهاج النفوس فرحاً، كان أهالي القدس منتشرين في جهة بزوغهما إلى مكان مقرهما مقر الجيش المظفر مائة ألف أو يزيدون. وبينما نحن في السرادق المضروب لاستقبالهما، إذا بضجة صعدت للسماء وهتاف بصوت واحد ليحيي أنور وجمال، فهرع القوم جميعاً وإذا البدران قد بزغا من مطلع الأفق على سيارتهما، وعرجا على السرادق هنيهة ثم استأنفا السير بين أقواس النصر وصفوف الأهلين على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم، رجالاً ونساءً وأطفالاً وطلبة مدارس على طبقاتها ومشاربها، والأعلام بأيديهم يحيون أعظم من يحبون.

مـرت سـيارتهم ورفقاؤهمـا تخـترق الطريـق بـين تـصفيق الرجـال وهتـاف الأطفـال وزغاريد النساء حتى وصلا إلى المقر العسكري العالي.

لم يقم الأهالي بهذا الاحتفال النادر خوفاً أو رياءً ولكنه الإحساس الوطني الحي، والقلوب والنفوس التي تعشق أنور وجمالاً عشقاً عذرياً، ومن لا يعشق النور والجمال ومن لا يحتفل بمُحيي حريته ومؤسسي سعادته؟.

ولقد رأيت بنفسي امرأة قروية جاءت مندهشة هائجة تخترق الصفوف وهي تزغرد وتقول: (أروني أنور أروني أنور أروني ولدي وحبيبي إنني سامحته في أولادي الموجودين تحت السلاح فليموتوا فداءً له وللوطن).

قال الراوي: فبكيت أنا والله شهيد. ورأيت قروية أخرى فاتتها مشاهدة أنورنا تتأسف وتعض يديها ندماً لعدم حضورها ملاقاة هذا البطل ورؤيته، كأنها فاقدة أنجح أبنائها. هذا لعمري هو الإخلاص الحقيقي والعهد الصحيح والحب الخالي من التصنع والمداجاة لأنه شعور قروي طبيعي. لا أقول إنه الوفاء العربي ولكنه الإخلاص العثماني الخالص.

كان وصول أنورنا وجمالنا ورفقائهما عصر الجمعة، فتناولوا طعام العشاء ليلة السبت في مقر الجيش الرابع، وفي صباحه اجتمع أركان الحكومة والعلماء والوجوه وكل مذكور في دار الحكومة، وركبوا العربات وساروا نحو المقر يتقدمهم مدحت باشا متصرف اللواء حتى وصلوا المقر وتشرفوا بالسلام على أنور الأمة وجمالها مصافحة بالترتيب، وهما يستقبلان الزائرين بالطلاقة والبشاشة.

وقبل الظهر تناولا طعام الغداء ومن معهما في مقر الفيلق الثامن بدعوة جمال باشا قائده المبجل، ومن هناك زارا الحرم القدسي فبدأا بالصخرة المشرفة حيث سمعا بعض الآيات الكريمة، وبعد أن صلى أنور باشا ركعتين تحية المسجد سارا يحف بهما العلماء والأشراف إلى المسجد الأقصى الجامع وصلى هناك ركعتين. وعندئذ تقدم خطيب الشرق الشيخ أسعد الشقيري وأبان لحضرة القائدين العظيمين فضائل الحرم القدسي والأحاديث الواردة في شرفه. وهناك قدم لدولة القائد العظيم كامل أفندي الحسيني مفتي القدس نسخة من فتاوى الأنقروي كتبت منذ مئة وثمانين سنة لتكون تذكاراً في خزانة كتب أنور العثمانيين.

وبعد أن زار حضرات قائدينا العظيمين الحرم الشريف ذهبا بموكب حافل إلى الكلية الصلاحية، فاستقبلهما مديرها ومعلموها وطلبتها، وبعد أن جلسا في بهوها الكبير

قرأ تلميذ بعض الآي الكريمة ثم قرأ أحد المعلمين خطاباً عربياً ثم استعرض الطلبة استعراضاً عسكرياً رياضياً فأبدعوا وأدهشوا، ثم تلا أحدهم قصيدة تركية العبارة وآخر قصيدة باللغة الألمانية الفصيحة كأنه من إحدى مدارس برلين لهجة وحركة وإشارة. وهذا ما زاد الدهشة وأطرب ضباط العسكرية الألمانيين وجعل للحفلة رونقاً وبهاءً ثم ختم تلميذ آخر الحفلة بخطاب تركي.

ثم زارا مقام نبي الله داود عليه السلام، ثم عطفا على كنيسة القيامة فزاراها ومن يصحبهما من القواد والضباط الألمانيين والنمسويين. وقد تبرع دولة الأنور لها بمائتي ذهب عثمانية بعد أن وهب لخدمة الحرم الشريف خمسين ذهباً ليعلم الناس أن هذا الدين الإسلامي القويم يحترم الشعائر والمذاهب لا تعصب فيه، وأن الدولة أيدها الله تساوي بين عناصرها وطوائفها، وكنيسة القيامة هي التي دخلها سيدنا عمر وصلاح الدين، وفي عصرنا داخلها أنور سيف الإسلام.

وفي تلك الليلة ليلة الأحد تناول القواد العظام طعام العشاء على حساب المجلس البلدي في نزل فاست الكبير، وكان المدعوون ستين شخصاً من أركان الحكومة والعلماء والأدباء مع ضيوفنا الكرام، وفي أثناء الطعام صعد الشيخ علي ريماوي من فضلاء[90] القدس وقال: لو كنت طويلاً لوجب علي أن أتقاصر أمام عظمة حضرات قوادنا العظام وضيوفنا الكرام، ثم أنشد قصيدة طربَ لها الحاضرون جداً واستحقت طرب الأستاذ الشقيري حتى استعاد أبياتها مراراً، ثم تلا الشيخ سليم اليعقوبي[91] من أساتذة يافا قصيدة غرّاء ثم خطب خاتماً الحفلة جميل بك النيال مدير الأوقاف والكلية الصلاحية خطاباً تركياً.

وبعد الطعام ركب القائدان الجليلان ومن معهما سياراتهم إلى المقر العالي تاركين طلبة الصلاحية يتجولون بالمصابيح والمدينة كلها نور وفرح وسرور، وفي صباح الأحد سار أنور باشا وجمال باشا ورفاقهما إلى جهات بئر السبع، ويوم الثلاثاء رجعا بالعز والإقبال. وبين بئر السبع والخليل وقفا ساعة حيث استقبلتهما قطعة من الجيش المرابطة هناك ثم عطفا على مدينة السيد الخليل عليه السلام وزارا أضرحة الأنبياء الكرام وشربا الشاي في دار الحكومة وركبا إلى بيت لحم حيث وُلد السيد المسيح عليه السلام وزارا المغارة. ومن هناك رجعا إلى القدس بين الهتاف والتصفيق.

---

(90) - اعتمدنا على ما كتبه هو لنا بهذا الشأن عن القدس وأكثره من عباراته، ص204، وعلى ما كتبه مكاتب المقتبس في يافا وعلى مصادر أخرى جديرة بالثقة.

(91) - كان يدعى حسان فلسطين لجودة شعره تشبيهاً له بحسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ.

وصباح الأربعاء توجه قائدانا العظيمان إلى أريحا على السيارة فشيعهما الأهالي والقلوب بأجل مظاهر التشييع والوداع. وبعد الغداء في أريحا على حساب بلدية القدس سارا على طريق عمان حيث ركبا القطار إلى مدينة الإسلام والسلام صلوات الله على ساكنيها.

وكان الاستقبال في أريحا جميلاً قام به جميع العشائر المخيّمة حول نهر الأردن بالسلاح والخيول المطهمة ومشايخ الطرق والزوايا بالأعلام والطبول ثم جاء إلى السلط فنصبت السرادق والخيام وأقامت بلدية السلط ضيافة شاي وكان جميع عربان السلط أشرافهم وطلبة مدارسهم يرددون الأناشيد والألحان، والرؤساء والقبائل يظهرون للقائدين شعائرهم وعواطفهم. ومن السلط ركبوا السيارات أيضاً إلى عمان حيث استعرض الجراكسة سكان تلك القصبة بخيولهم ومنها ركبا القطار إلى المدينة المنورة.

هذه إجماليات المكاتبين والذي علمناه من مصدر يركن إليه أن دولة القائد لما وصل إلى خليل الرحمن استقبلته المشايخ وأرباب الطرق وترجل دولته مع جمال باشا حتى وصل إلى المسجد الإبراهيمي. وهناك وقف العلماء أمام ضريح جد الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام فتلي ما تيسر من القرآن وأدعية ظهرت عليها علائم القبول، وزار تربة سيدنا اسحق ويعقوب ويوسف وجميع المشاهد، وصافح العلماء والأتقياء، ونال حظاً كبيراً من أدعيتهم وأحسن إلى الفقراء بصدقة عظيمة، وسار والعز يشيعه إلى قصبة بين لحم، وهناك وقف له رؤساء جميع الملل والطوائف غير المسلمة مع الجند السلطاني فاستقبلوا دولته أعظم استقبال وأبهى احتفال، واسترحموا منه أن يروه كنيسة الولادة فدخلها إجابة لدعوتهم. وكان الرؤساء الروحيون بملابسهم الكهنوتية وضربت له النواقيس واجتمعت الطوائف على اختلاف أجناسها وأعمارها وأوقدت الشموع والقناديل داخل الكنيسة، ودعي للدولة والجيش فخرج وأحسن بصدقة عظيمة أيضاً على فقراء الطوائف، ثم جاء القدس وقت الظهر فتناول الطعام في المعسكر في جبل الطور.

وكانت ضيافة القدس في العودة مما أقامه روشن بك مفتش المنزل وتكلم في تلك الضيافة الشيخ أسعد الشقيري على حديث نبوي خاطب فيه الرسول سيدنا علي بن أبي طالب بقوله أنت سيد المسلمين ويعسوب الموحدين، وأن السيادة التي كانت لعلي بسبب حفظه لكيان المسلمين وحرصه على إقامة شعائر الدين وقيادته للجيوش الإسلامية واجتهاده في الفنون الحربية وحصول الظفر على يديه، فنال السيادة بالعزم والحزم والجهاد والسيف، ومضى راضياً مرضياً وأن أنور باشا في عصرنا يحق له السيادة على

الإسلام بسبب ثباته على مسلك الدين واتباعه لشريعة سيد المرسلين، وجهاده في طرابلس الغرب وفي مواقع الحروب وتنظيمه الجيوش وأخذه على عاتقه القيادة العامة وشخوصه بالذات إلى هذه الولايات لتفقد الشؤون العامة والنظر في الجيش.

وذكره بما ذكر له مع جماعة العلماء ما أجراه القائد العام أحمد جمال باشا من الإصلاحات، وحمد الله على أن الباشا رأى آثار أخيه جمال باشا رأي العين، حتى أنور باشا صرح بأنه رأى من هذا القبيل فوق ما سمع.

أما تبرعات أنورنا في لواء القدس فكثيرة، منها للفقراء، ومنها لكنيسة القيامة، ومنها لخدمة الحرم القدسي، ومنها لخدمة السيد الخليل، ومنها لبعض المساتير والعلماء والأدباء، وكذلك كانت تبرعاته لأهالي لواء عكا.

هناء اللقاء

قصيدة الشيخ علي ريماوي المقدسي [من البسيط]

يا مرحباً بحبيب الشعب (أنوره) و(بالجمال) جمال السمر والقُضُبِ

مذ قيل أنورُ روح الشعب في حلب قد ماجت القدس من صفوٍ ومن طربِ

ترى النفوس على طول القطار له من شدة الشوق ملقاة على القُضُبِ

بها انتظاراً إلى ميمون طلعته ما بالقطار من التضرام واللهبِ

زيارةٌ ملأت سورية فرحاً من العريش إلى حمص إلى حلبِ

❖ ❖ ❖

يا محييَ الشعب من عُدمٍ ومن عَدمٍ ومنقذَ الشعب من ضيق ومن كُربِ

شعب بك اليوم قد شدُت عزائمه وكان ميتاً عَلَى يأس من الأربِ

لم ينسك الوفد بل لم ينس ما فُطرت عليه سيماك من لطف ومن أدبِ

قد زار جيشك في ساحاته فرأى أسد العراك بغيل المعقل الأشبِ

لله جيشك والرحمن ناصره فقد تسامى عَلَى الجوزاء والشهبِ

جيش تألف والإسلام رايته من خيرة العنصرين الترك والعربِ

سارت بجحلفة الأقدار تقدمها ملائك الله فوق الخيل والنجبِ

تسربلت بدروع الوحي واعتقلت … من نبعة النور أطراف القنا السُلب

معتادة الطعن من بدر ومن أحد … أليفة الضرب في حرب وفي حَرَب

حرابها من ظُبى التقوى وأسهمها … من قدرة الله لا نبع ولا غرب

جيش له ينظر الإسلام قاطبة … من منتهى القطب الأقصى إلى القُطب

أجاب صوتك منه كل غالية … من النفوس إذا الأشباح لم تجب

لو مكنته العدى والدهر ذو غِيَر … لباك من كل صوب منه أو حدب

❖ ❖ ❖

لبيك لبيك إن رمت الجهاد لنا … هذي النفوس فخذ ما شئت وانتدب

هي القناة فلا تحفل بمنعتها … في يمن جيشك سر النصر والغلب

وما العدى غير أخلاط مجمعة … حول القناة وأنصاب من الخشب

قالت سأرحل عن مصر وما رحلت … قالت أثوب إلى عدل ولم تثب

كم عاهدتنا وكم عهد لنا خفرت … وكم تعدت وكم باتت عَلَى صخب

موسى وأنت عَلَى رأي وعاطفة … كلاكما كنتما من أعظم العجب

هذاك أنقذ مصراً من فراعنها … وأنت تنقذها من دولة الكذب

صادقت من أمة الألمان إذ صدقت … والنمسويين خير القادة النجب

من كل شهم وفي العهد صادقه … وكل ليث قويّ الساعدين أبي

جاسوا ديار الأعادي وهي حافلة … فأصبحت مثل ربع دارس خرب

يردها (هندبرغ) من هنا وهنا … كأنها كُرَةٌ في ساحة اللعب

❖ ❖ ❖

ته يا جمال إذا ما شئت مفتخراً … عَلَى الزمان بمعنى جيشك اللجب

لم يحو جيش كما يحويه جيشك من … قوى الكفاح وفضل العلم والأدب

يختال في الزرد المسرود تحسبه … ليوث غاب وقد بانت عَلَى سغب

ينحو القناة ولم يبرح ينازلها … حتى تخر العدى جثياً عَلَى الركب

ذكرتنا زمن الفاروق من قدم … كلاكما ناصر الإسلام في الحقب

وأنت لله ما أحلاك من بطل … يا قائد القول قول الفيلق الحرب

أنت الجمال لجيش الله فارمِ به … جيش العدو لدى استحكامه تصب

❖ ❖ ❖

يا واهب الذهب الإبريز من كرم … هذي هباتك عني قط لم تغب

وضعتها[92] عند قلبي حيث أنت به … كيما تكون بمرأى منك عن كثب

دقاتها في سماعي من لطافتها … أحلى من العود بين الزهر والحبب

في كل ساعة وقت دار عقربها … لابد أنظر فيها نظرة الطرب

لا رغبة في حلى الدنيا وزخرفها … لكن لحبك عندي فهو مطلبي

وكي أرى الهبة الممدوح واهبها … واسم العظيم العلي المنقوش بالذهب

فاسلم ودم زينة الدنيا وبهجتها … وقائد الشعب تنجيه من العطب

❖ ❖ ❖

قصيدة الشيخ سليم اليعقوبي اليافي
في بطل الإسلام أنور باشا

[من البسيط]

هذي فلسطين فازت عربها بكم … يا «أنور» الناس من ترك ومن عرب

واصلتها اليوم، فافترت مباسمها … كالخود، تفتر يوم الوصل عن شنب

أنت الذي لم نجد في خلقه عوجاً … ومن كأنور في خلق وفي أدب

لك المروءة خَلقاً، والتقى خُلقاً، … والمرء بالخلق لا بالدر والذهب

(92) - يشير الناظم إلى الساعة الذهبية التي أهداه إياها بطل العثمانيين أنور باشا لما كان من جملة الوفد العلمي السوري الفلسطيني في دار الخلافة

لولا تقاك وما أوتيت من شمم   لمزقتنا بنو الأوثان والنصب

يمناك فيها . وحسبي باليمين هدى .   يراع حزم، وفي يسراك ذو شطب

❖ ❖ ❖

عما قريب، بفضل الله تسعفنا   (بفتح مصر) وما في الفتح من ريب

آياته ظهرت بالحزم فابتسمت   لها الثغور، ابتسام القلب بالطرب

حسبي وحسبك، إن «الروس» في فشل   والإنكليز ومن «والاه» في هرب

باؤوا بذل كما شئنا، وخزيهم   في «الدردنيل» دليل غير ذي كذب

إني رأيتهم . والحرب قائمة .   ما بين مضطرم منها ومضطرب

أودى بهم بمواض غير مغمدة   جيش ابن عثمان جيش المجد والحسب

يا نعم جيشا، يهز الدهر صارمه   والجيش إن صال هز الدهر بالقضب

هو الذي لم يدع في الحرب من أحد   من العداة، بلا قتل ولا سلب

ذو عدة لست أحصيها، وأي فتى   يحصي النجوم بأفق غير ذي سحب

يممت ساحاته في الدردنيل، فما   ألفيت فيها كمياً غير ذهي أهب

آساده لا تهاب الموت يوم وغى   بالمرهفات، ولا تخشى من الوصب

قوية الجأش لم تعبأ بمرتفع   من البغاة ولم تحفل بمنتصب

فازت بآمالها في الدردنيل وفي   أرض العراق وفي قفقاس بالأرب

روحي فداءٌ لتلك الأسد ما صحبت   في ساحة الحرب قلباً غير مكتئب

تطوى لها الأرض طياً في الحروب وكم   تطوي لها الأرض من بيد ومن كثب

الله يعلم أني لست أكذبكم   في وصفها القول في شعري وفي خطبي

❖ ❖ ❖

أنعم بجيش أعز الملك فانطلقت   بمدحه ألسن الأقلام والكتب

لله (أنوره) المقدام من شهدت   بحزمه الخلق من نجب ومن نجب

ذاك الذي صغت شعري في شمائله   والشعر في مثله ضرب من الضرب

ومدح أنور فرض لست أجحده   أيجحد الواجبات الشاعر العربي؟؟

هل مثله في ربوع الحزم من رجل   أصمى العداة بشهب الويل والحرب؟؟

كلا فأنور ثاني اثنين حزمهما   كالشمس رأد الضحى في الأفق لم تغب

بطل الوطن جمال باشا

أما (جمال) وحسبي أن أصوغ به   آيات شعري فذو مجد وذو حسب

ليث العرين نصير الملك (أحمده)   ومن كأحمد رب البيض واليلب

يسدي لنا الخير والخير الجميل إذا   أسداه أودى بليل البؤس والعطب

شهم بسالته في الشرق ناطقة   بأنه خير شهم غير ذي لغب

أعاد للعلم . دوراً . بعدما سلبت   في القدس والناس في لهو وفي لعب

ومدَّ من سوريا . خط الحجاز =إلى   قرب العريش بأيدي جيشه اللجب

وأنشأ السبل في بيروت محتسباً   وفي دمشق وفي يافا وفي حلب

وأرخص العيش للشرقي في زمن   فيه بنو الغرب في بؤس وفي سغب

(جمال) أنت أخو جيش لبانته   صدّ العداة وردّ الشهب بالشهب

للنيل فيك علَى رغم العدى أملٌ   وللقنال رجاء فيك لم يخب

❖ ❖ ❖

بالله (أحمد) أنجز ما وعدت بهِ   من فتح مصر وأخذ النيل عن كثب

فالإنكليز أهان المسلمين وفي   تلك الديار سقاهم أكؤس النوب

وجدد العدل في عهد (الرشاد) بها   فالعدل مطلب المصري ومطلبي

ووطد الأنس فيها والسرور وخذ   بضبع قوم أضاعوا الملك بالنشب

والله يوليك (فتحاً) تستعيد بهِ   في (مصر) مجد الكرام الترك والعرب

هذا هو الخطاب الذي ألقاه جميل بك النيال مدير الكلية الصلاحية وأوقاف القدس في الضيافة التي أقامتها بلدية تلك المدينة للناظرين العظيمين في فندق فاست قالها بلسان البلدة

قال جميل بك في هذه الخطبة بعد أن رحب بالقائدين المعظمين وذكر عواطف أهل القدس نحوهما: إن القائدين هما منقذا الدولة ومحيياها ولو لم يكونا على رأسها ما نجت هذه الدولة العظيمة القديمة حامية الإسلام الوحيدة ولسقطت في ورطة الاضمحلال وإن الجيش هو الذي ربته الدولة وافتخرت به منذ قامت بالأمر وإن جميع تاريخها غاص بحوادث هذا الجيش العثماني ومقدرته وحماسته وشرفه وإن علم شوكتها بفضل هذا الجيش قد خفق على الشرق والغرب من سفوح النيل إلى بلاد القريم ومن أذربايجان إلى فينا وكان خفوقه مقروناً مدة عصور بالشرف والمكانة بفضل بسالته وشهامته ولكن تأثير أعوام المصائب المشؤومة قد حرم هذا الجيش الباسل من هذا الميراث الثمين الذي أتاه من أجداده الطاهرين فكانت له هذه الصفات والقوى لو لم يتداركه عزمكم الشديد وهمتكم العالية وتبثوا فيه حياة جديدة وختم خطابه بقوله أن أهل القدس عامة من أجل هذا تضطرب أفئدتهم سروراً لمرآكم وتعقد الرجاء على نصركم وتوفيقكم وتنادي بلسان واحد ليحيا أنور باشا وجمال باشا ولتحيا الدولة التي أنجباها ولتحيا حليفتاها دولتا ألمانيا والنمسا والمجر الفخيمتين.

تعريب خطاب حكمت أفندي المومأ إليه
أمام أنور باشا وجمال باشا

يا حامي هذه الكلية ومؤسسها المحترم:

أيها القائدان العظيمان لجيشنا الباسل:

يا مفخر الأركان القويمة للدولة الأبدية القرار:

احترامنا لكم، والنصر معقود بلوائكم، والتوفيق متوقع على أيديكم. لولا صنيعكم أنتم ما أخذت هذه المدرسة ولا فتحت هذه الكلية وما ظهر إلى عالم الوجود هذا التجديد المنتظر للإسلام من مستقبل رفيع يحوي في مطاويه اليقظة والنهوض. فألف شكر ومنة لكم.

كانت ذكرى هذه المدرسة التي تدعى إلى اليوم باسم الصلاحية تعذب روح صاحبها المجاهد الشهير لأنها كانت إلى أمس تلقن البغي والعصيان بدل اليقين والإيمان. أسست هذه المدرسة دار علوم كبرى منذ زهاء ستمائة سنة وبعد أن كانت دار إرشاد وعلم تحولت إلى مركز مبشرين بالضلالة والعماية فكان صلاح الدين يضطرب في قبره للذي وقع لمدرسته. أنتم لما قدمتم هذه البلاد وجلبتم السعادة معكم وزرتم مرقده الشريف رأى روحه قريبة إلى روحكم فعرض لديكم جملة حاله وشكت مدرسته مما نالها من الاضطراب. وأنتم أيها القائد المبجل لما ألقيتم خطبتكم الأولى المهمة في الجامع الأموي قرب قبر صلاح الدين ذكرتم اسمه بأنواع الاحترام كأنكم تعهدتم له تعهدات في هذا الشأن حتى إذا خصتم إلى هنا أنشأتم هذه المدرسة فأدخلتم بصنيعكم السرور على روحه كما أدخلتموه على العالم الإسلامي أجمع.

جاء صلاح الدين من مصر فأنقذ هذه الديار، وأنتم ستذهبون من هنا لتخليص ذاك القطر التعس. فنسأل الحق تعالى الذي منحه النصر والتوفيق أن يجعلهما رفيقيكما.

متى انتهيتم إلى أشهر دور علوم الإسلام وأعني به الزهر المظلوم احملوا إليه تعظيماتنا وقولوا له قولاً لا شائبة فيه إن إخوانكم الأحداث الذين ولدوا في الحياة العلمية يقطعون اليوم المراحل في سماء الترقي، بالسير السريع على ما يقتضيه حال هذا العصر وهم عقدوا العزم أن يلحقوا بكم ويتتبعوا خطاكم.

جمع طلبة الصلاحية بين اسم صلاح الدين الأيوبي العظيم وبين اسم جمال باشا العظيم فكلاهما تاج ابتهاج لهذه المدرسة وكلاهما سراج وهاج في قلوب أهل الإسلام كافة. ولقد آلت مدرستنا على نفسها أن تذكر الأول كل يوم بالرحمة والترضي والثاني بالخير والاحترام. ستعيش الصلاحية بفضل هذه الأسماء الكبرى كما ستخلد لهذه الأسماء شهرة حسن الأثر. نحن قد دخلنا في مضمار الحياة وهذه غايتنا ومنتهى رجائنا: أن يتخرج طلبة يلقبون باسمكم العالي فإلى الله نتوسل أن لا يخيب أملنا.

استبشرت كليتنا بأن أولاها الشرف اليوم بزيارته هذا العظيم وكيل القائد الأعظم الذي عرفت الأرض عظم نفسه واشتهر اسمه اللامع بما قام به من الأعمال المجيدة في أكثر أرجاء الشرق والغرب وكلما ذكر يذكر بالإعجاب والاحترام. لا جرم أن قدومه والكلية في سنتها الأولى يوفر لها السعد والسعادة وسيكون تأثير زيارته إلى الأبد عاملاً من عوامل الارتقاء والشرف.

إن طلبة الصلاحية سيجعلون اسمه المحترم في أعز مكان من قلوبهم كما جعل ذلك

كل فرد بل أمته برمتها ويعرفون أنفسهم بعد الآن أن لهم ارتباطاً بهذا الاسم العظيم عن أمم ولذلك فلنهتف كلنا معاشر الصلاحيين من فم واحد:

ليحي حضرة أنور باشا وحضرة جمال باشا

❖ ❖ ❖

قصيدة الشيخ علي ريماوي القدسي

أرسلها بعد العودة لروح الأمة أنور باشا المعظم

[من الطويل]

أبا النور والدستور يا أنور العلى   عليك سلام الله والبركاتُ

سلاماً وتعظيماً وألف تحية   من الشعب تهديها لك الأسرات

عن القدس عن سورية وبلادها   ومن ضمت الأمصار والفلوات

إلى باعث الدستور بعد مماته   وقد كان لا ترجى إليه حياة

سلاماً وتعظيماً لا عظم قائد   تزاهى به الإسلام والغزوات

عليه من التقوى صلاحاً علائم   ومن رونق الدين الحنيف سمات

تباهت بيمناه السيوف وأشرقت   بيسراه في محرابه السبحات

❖ ❖ ❖

أبا النور يا نور الفضائل والذي   تجلت عن الدنيا به الظلمات

أتعلم أن الشعب يهواك كله   وتفديك من أبنائه المهجات

وصلت إلى القدس الشريف وفي الحشا   لبعدك أنفاس بها زفرات

وفي المسجد الأقصى خطبت فهللت   مصلون وانهالت لك الدعوات

وبُشرت بالنصر المبين فصفقت   أكف وسالت عندها العبرات

سروراً وأفراحاً فدم خير قائد   تزان بك الإسلام والصلوات

❖ ❖ ❖

في صحراء التيه

لم يترك وكيل القائد الأعظم حضرة أنور باشا دقيقة واحدة من وقته في سياحته تذهب سدى، بل حصر كده، شأنه منذ عرف في النظر فيما له مساس باختصاصه الحربي أولاً ثم الإشراف على المسائل الأخرى في البلاد. أما وجيشنا المنصور على قدم الاستعداد اليوم للزحف على مصر وإنقاذها من براثن محتليها، فإن بطلنا المحبوب زار صحراء التيه أيضاً لأنها الطريق الموصلة إلى القطر المصري، ليرى هناك ما أحدث من طرق حديدية ومعبدة وآبار ارتوازية وأحواض مياه وحصون، ومعاهد عسكرية تبلغ المقصود.

فركب أعزّه الله من مدينة القدس في سيارة هو ورفيقه أحمد جمال باشا إلى بئر السبع، فأعجب بما رأى من الطرق المعبدة حديثاً الممتدة على طول الصحراء، كما راقته تلك الآبار التي أُحدثت لجمع المياه وتطهير تلك الصحراء، وأثنى الثناء الكبير على القائد العام في هذه الديار لتوفره على مد الخط الحديدي بهذه السرعة، ووصوله إلى الحفير ثناءَه على تمديد الطرق المعبدة في تلك المفازة المشهورة برمالها ومعاكسة الطبيعة لها.

ولما بلغ القائد بئر السبع، استعرض العساكر المرابطة هناك وسر بحسن الانتظام والترتيب، كما انشرح صدره بالصحة العامة بين الجيشين.

حتى إذا وافى القائد بئر السبع تناول طعام الغداء في معسكر القوة السفرية الأولى، ثم استعرض هذه القوة كلها وآلاي الأقنجي الآتي من المدينة المنورة وفتش أنابير بئر السبع ومعاهدها العسكرية المختلفة، وعاد إلى بئر السبع. وفي عسلوج افتتح شعبة السكة الحديدية التي أنجزت حديثاً. والمسافة من القدس إلى بئر السبع 81 كيلومتراً ونصف كيلومتر، ومن بئر السبع إلى بئر حسانا 172 كيلومتراً، وهذه أهم المحطات التي يحاذيها الخط الحديدي وهي: القدس، بيت لحم، خليل الرحمن، ظاهرية، بئر السبع، عسلوج، حفير العوجا، قصيمة، ضيقة، بئر حسانا. ويجتاز أماكن أخرى ولكنها غير مشهورة مثل بير بيرين بين حفير العوجا وقصيمة.

وبفضل الطريق المعبدة مؤخراً تيسر أن يقطع المسافة بين بير حسانا وبئر السبع في العودة في مدة أربع ساعات، وهذه الطريق عملت في مدة وجيزة وبهمة كبرى، ويرجع الفضل فيها إلى الجيش الرابع الذي جعل فيافي تلك الأصقاع طرقاً سالكة، وكانت من قبل لا يسلكها الطير ولا تصلح لأنواع السير.

وتناول السائح العظيم طعام المساء في قصبة بئر السبع، وأقام آلاي المدينة المعروف

بالاقنجي في المساء زينات جميلة، ولعب بعض أفراده ألعاباً خاصة بهم، ومن الغد ذهب إلى بئر حسانا وهناك تناول الغداء بين المعاهد العسكرية المختلفة التي قامت بهمة عالية في برهة وجيزة، فسر من وراء الغاية بما شاهد من مضاء رجال الجيش وأمرائه وضباطه وأفراده، وفي المساء ركب السيارة إلى بئر السبع فقضى الليل فيها وقدمت عليه جميع العشائر والعربان المخيمة من قضاء غزة إلى حدود الترعة، وأنعم عليهم واستمال بإحسانه قلوبهم، ولعب تلك الليلة ألاي الاقنجي. وهو الاي عربان الحجاز الذين أتوا من ضواحي المدينة المنورة لمحافظة السواحل . بين يديه بالسلاح وأنشدوا أناشيدهم باللغة البدوية يمدحون بها شجاعته وثباته وعلو موقعه في نفوسهم، ويقولون إنهم يهرقون آخر نقطة من دمائهم بين يديه، فهش لهم وبش وأكرم مثواهم، وأمر لهم كافة بضيافة جمعت أولهم وآخرهم، وكان السرور بادياً على محياه بما شاهد من آثار إقدامهم وبسالتهم، وما منهم إلاّ من قبل يديه، ومنهم من وقع على رجليه يقبلهما، ومنهم من صافحه فكان ذاك من أبهج الأيام وأجمل المناظر، تجلت فيها المحبة الفطرية التي جبل عليها العرب باديهم وحاضرهم للدولة العثمانية ورجالها الأمناء الصادقين، وظهر كالشمس في رابعة النهار أننا أمة إذا عقدت عزمها على عمل عظيم وأخلصت النية في سبيل الواجب تنهض به خير نهوض.

ولعمري من كان يظن أننا في مثل هذه الحرب الزبون ونحن نجالد ونجادل في أربع ساحات للقتال، كل واحدة منها مما تعجز عنه دولة عظمى بمجموع قوتها، نوفق إلى إحداث ما أحدثناه من الطرق المختلفة والمعاهد والأوضاع والمرافق في طريق مصر؟ أما لو جئنا نعدد هنا بالتفصيل ما تم على أيدي رجال الجيش الرابع من مثل هذه الأعمال، فهذا يحتاج وحده إلى مجلد ضخم يجب أن يؤلفه أحد نوابغ أركان حربنا العلماء، فلهم في هذا البحث نظر حديد ورأي سديد رشيد[93].

[93] - **الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، المطبعة العلمية، بيروت 1916، الصفحات من 217 إلى 256.**

مراجع الكتاب

- إبراهيم أسود، **الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية**، المطبعة العثمانية، بعبدا 1998م.
- جرجي زيدان، مجلة الهلال السنة 22 لعام 1913- 1914.
- جمال الدين القاسمي، **العلامة القاسمي يصف رحلته إلى بيت المقدس قبل ثمانين عاماً**، جريدة الدستور الأردنية العدد 4861، 1981/2/22، ص 14 و15.
- رشيد نخلة، **كتاب المنفى**، بيروت 1956م.
- كامل جميل العسلي، **بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين**، عمان 1992.
- محمد كرد علي، **الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية**، المطبعة العلمية، بيروت 1916.
- مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، الجزء العاشر – القسم الثاني، في بيت المقدس 2. والجزء العاشر-القسم 22.
- نجيب عازوري، **يقظة الأمة العربية**، ترجمة الدكتور أحمد أبو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت طبعة ثانية 1998م.
- يوسف الحكيم، **سورية والعهد العثماني**، بيروت المطبعة الكاثوليكية 1964م.

فهرس

مجلدات الموسوعة :

- المجلد الأول: وصف فلسطين أيام الفاطميين.
- المجلد الثاني: وصف فلسطين أيام الحروب الصليبية.
- المجلد الثالث: السياحات الصوفية والزيارات الدينية.
- المجلد الرابع: موانح الأنس برحلتي لوادي القدس.
- المجلد الخامس: الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية.
- المجلد السادس: وصف فلسطين أواخر أيام العثمانيين 1898- 1916.
- المجلد السابع: فلسطين في عشرينيات القرن العشرين.
- المجلد الثامن: فلسطين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.

هذه الموسوعة:

مساهمة منها في احتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية لعام 2009م ارتأت دار كنعان للدراسات والنشر أن تقدم لقراء العربية موسوعة شاملة لرحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين خلال أكثر من أحد عشر قرناً، شهدت فلسطين خلالها عدداً كبيراً من الرحلات التي قام بها عرب ومسلمون، بعضها تم تحقيقه خلال فترات زمنية مختلفة، ومنها بقي حبيس المخطوطات، لم يتيسر لعموم القراء مطالعته.

وتكمن أهمية هذه الموسوعة، في أنها تمثل الجانب الآخر من صورة الرحلات التي قام بها الرحالون الغربيون إلى فلسطين خلال قرون طويلة، ساهموا من خلالها في تكوين وعي معين تجاه فلسطين، مستقى بشكل أو بآخر من الوعي الديني المسيحي واليهودي والذي يمثل فيما يمثله جانباً واحداً من الصورة، غير أن الأمر بات أكثر خطورة بعد حملة نابليون على فلسطين آخر القرن الثامن عشر، حيث بدأ نوع جديد من الرحلات مرتبط بشكل أو بآخر بالمشاريع الاستعمارية التي كانت تُعد في دوائر القوى العظمى في ذلك الوقت، مستهدفة إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين في معاندة غريبة متنكرة لحقائق التاريخ والجغرافيا والمنطق.

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، إذاً هي مساهمتنا في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية وهي مساهمة نطمح لأن ترفد المكتبة العربية بمرجع مهم يضاف إلى المراجع المهمة الأخرى التي صدرت عن فلسطين خلال العقود الماضية.

الناشر






ISBN 978-9933-434-01-4